

الحروب العالمية وما نتج عنها من علاقات  
اجتماعية واقتصادية وثقافية بين العرب والافرنج

تأليف  
زكي النقاش

١٣٦٥ هـ

١٩٤٦ م

## مقدمة الكتاب

لقد جاءت دراستي لهذا الموضوع تحقيقاً لرغبتين ، الأولى منهما قديمة وهي  
امنية عزيزة عليّ أن أجمع تاريخاً جامعاً لما كان يُعرف حتى امد غير بعيد "سورية  
الكبرى" وقد طالما دغدغتنى هذه الامنية وطالما حلت بها في البقظة والنعام  
واما الثانية فجديدة ان اتخذته موضوعاً لاطروحتي في سبيل نيل شهادة أستاذ  
في الآداب M.A. اما اختياري له فيجمع بين الغائبين ان هو جزء منم لما سبق  
لي واعدته من اجزاء هذا التاريخ الشامل وهو فوق ذلك تاريخ لحقبة لعلها من  
أهلك الحقب في تاريخنا أحببت ان اجلوها ما استطعت الى ذلك سبيلاً .  
اما الآن وقد وصلت الى النهاية او كدت فباستطاعتي ان اصبح فخوراً  
باني اقدمت على هذا العمل الشاق مع وفرة اعمالى "لأثبت للشباب ان التلمذة  
لا تعرف سناً وان الواحد منا طالب علم ما كان في قيد الحياة وانها فضلاء  
ذلك للذة روحية لا يشعر بها الا من عاناها .

ولا يسعني هنا الا تقديم الشكر الجزيل لمن كانوا لي خير معوان  
على تخطي ما اعترضني من صعوبات واعني بهم اساتذتي الكرام = الدكتور قسطنطين  
زريق قبل الاطلاع باعباء منصبه السياسي في الولايات المتحدة . والدكتور غليم  
ان كان لي شرف التلمذة عليه مدة سنة كاملة قبل ان اضطره المرض الى السفر .  
اما من كان له الفضل الاوفر في مساعدتي على انعام الشوط الى نهايته فهو الدكتور  
نبيه امين فارس . وكذا لك أحب ان اسجل كلمة شكر لادارة المكتبة في الجامعة الامبركية  
ببيروت وموظفيها ان كان لي فيهم انصار واي انصار في الوصول الى بعض المرجع  
الهامة .

واخيراً لعني ان يكون في جهدي المتواضع هذا حافظ لبعض الشباب  
والدابات من بني قومي الى عدم الاكتفاء ابداً بما لديهم من معرفة ضئيلة او كثيرة  
فان العروبة بحاجة ماسة اليهم والانسان بحاجة امس ولا شك .

(1) في ادارة التعليم والتأليف المدرسي

(2) وان ذلك في موضوع: "بابس الاروپايه اشداه: اليهوديه وانظرته راسم" من اصول

## الفصل الأول

- مقدمة تاريخية في ماهية الحروب الصليبية وأسبابها المباشرة
- ادوارها - ضعف الحكومات الإسلامية
  - فوز الافرنج وتأسيس مملكة القدس والامارات الثلاث
  - مظاهر القوة والضعف في الممتلكات الافرنجية
  - دور الانتكاس او هجوم المسلمين المعاكس
  - شرف الدولة مودود - عماد الدين زكي لو استرجاع الرها
  - الحملة الثانية وفشلها في المعزة
  - نور الدين زكي وسياسة تطويق الافرنج
  - ضعف الفاطن ونزاع الوزراء - فوز شيركوه
  - صلاح الدين واعادة الخطبة للعباسيين
  - نور الدين بوجس خيفة من صلاح الدين
  - وفاة نور الدين وترفع صلاح الدين الى السلطنة
  - الافرنج بين راسي الكفاح - ضربته لهم في حطين
  - تحطم المملكة في القدس وممتلكاتها في فلسطين
  - تجمع الافرنج في صور - انتقالهم بعد وصول المركيس كغونراد المونغراني
  - متاع صلاح الدين - المملكة الثانية وحصار عكا
  - المعاهدة بين ريشار وصلاح الدين - وفاة صلاح الدين وتجزؤ السلطنة بعده
  - المالبك وانهم في استرجاع البلاد
  - بيبرس - قلاوون - الاشرف - خليل

## الفصل الاول

اختلف الناس في نظرهم الى الحروب الصليبية ، فمنهم من رأى فيها حملات دينية صرف  
دعت اليها البابوية واستجابت لها الشعوب الأوروبية ما بين جرمانية وشمالية وفرنجية وابطالية عن اقتناع  
فحسب بوجود انتزاع " بيت المقدس " وتخليص " قبر المسيح " والاستيلاء على الاراضى المقدسة في سورية  
وفلسطين تسهيلا للطريق امام الكهجاج من اهل الغرب ليقدموا شعائر الدين ، ومنهم من رأى فيها حملات  
هوجاء لحمتها الفظاعة وسداها الوحشية فاعتبروها كأنها بجلتها حدث غريب نبا عن مجموع مظاهر التطور  
العالم .

والحقيقة انها حلقة في سلسلة الاحداث التى بفضلها تمت العلاقات بين الشرق والغرب  
منذ ايام التاريخ الاولى عندما امتد في مطلع الالف الاولى ق . م . نفوذ الفينيقي والآرامى من قلب عالم  
البحر المتوسط . شرقا وغربا وسط جناحي حضارتها على جميع بلدانه من <sup>صنفا</sup> احضن السند حتى سواحل  
الاطلسى .

ثم عاد ذلك السلطان فانكسرت امام بقظة الفرس واليونان في القرن الخامس ق . م . وما ان  
استدعرا ابنا فارس بقوتهم المادية وتفوقهم العددي على منافسيهم من ابنا هلاس حتى سعوا الى غزو  
بلادهم وضمهم في عقر دارهم ولما لم تكن المركبة حاسمة انقلبت الابهة واذا بالمكدونى الكبير يقود القوم  
سنة ٣٣٢ ق . م . ويحملهم شرقا حتى قلب الهند ، وكان ان امتزجت للمرة الاولى في التاريخ الحضارتان  
الشرقية والغربية وكونتا نواة الحضارة الانسانية الامة .

ولكن ما ان دار الفلك دورته وعطت سنة التطور عملها حتى دب الضعف من جديد ففى  
مفاصل حكومات السلاقيين و**البطالقة** و**الفرشيين** وعلت في الغرب موجة جديدة هي موجة الرومان تحمل  
جحافلهم الى حيث رفعت اعلامها فوق نخم ابران كما ركزت رايانها فوق جنوبي جرمانية وعلى هضاب  
بريطانية .

واظل المسكران - الشرق والغرب - متقابلين متنازعين ، بقرب من ٧٠٠ سنة حتى  
اعتراهم الضعف وسادتهم الفوضى فاطلت عندها كتاب العرب سنة ٦٣٠ من بواديهما صارخة مدوية ان  
منحوا ابها الآريون " فها هم الساميون قد عادوا وها هي العروبة آنية لتبسط اجنحتها وتبعث في الشرق  
والغرب حيويتها وكان ما كان من جمعها لشتات العالمين من خضرة سهول الصين الى تلاطم امواج الاطلسى



واذا الحضارة واحدة لا شرقية ولا غربية يعمل الجميع تحت راية الضاد ويستظلون بسلامها وينعمون  
بعديلها .

وفيما العالم كذلك اذا بشعوب اوربه قد اهتزت وسرت في شرايينها دماء الحياة فقامت  
تشنجها غارات على العرب في اسبانية وسردينية وصقلية بخبة النفلت من قبضتهم ، غير انه كان عهدود  
ظروف قامت البابوية تغتتمها فرصة للتدليل على عظم سلطانها وكبير نفوذها فسعت الى قلبها حروبا  
" دينية " كما رغبتها ان تكون . وبقيت هجوما فرنجيا معاكسا كما فهمها على العرب <sup>بحسب</sup> وفروضهم منذ  
ذاك ( ابن الانبرج . ص ١١٣ )

فما هي تلك الظروف يا ترى ؟

من تلك الظروف في الشرق ان كانت الخلافة قد دب في جسمها الضعف بعد تلك  
السطوة فاسترخت منها الاعصاب ووهنت عندها القوى فذلت امام الاتراك وتلاشت امام البويريين ( القرن  
الخامس الهجري ) فلاح في ذلك للغرب بريق امل خلب وتوهم الروم ان يستعيدوا سطوتهم ولكن ما  
لبثت الخلافة ان الفت نفسها متجددة الطاقة منبعنة النشاط بظهور السلاجقة على مسرح التاريخ  
العام فعاد قلبها ينبض بالقوة وجيوشها تعمل ، بعد امتلاكها لآية الصخرى على ازاحة الروم من طريقها  
وقد وقفوا على ضفاف البوسفور حاجزا دون اجتياحها لاوروبية من الشرق واذا ببيزنطية تنادي بالويل  
والشور وتلؤل مرتعدة خائفة فتستغيث بملوك اوروية وامرائها وبابا رومية على اختلاف بينها وبينهم  
في المذهب وتنازع في السياسة .

ولكن اتى للملوك والامراء ان يلبوا الطلب والاقطاع ملوثهم في حروب دامية وكيف للبابوية  
ان تلبى دعوة القبصرية وهي في خطر من الامبراطورية فكان لا بد وان يدبروا لها اذنا صماء تارة ويدعوها  
بين الياس والرجاء تارة اخرى حتى واثت البابا ظروف اكثر ملاءمة واستطاع التغلب على مناوئيه من أباطرة  
الالمان العتاة في الغرب . هذا وكان ان تحطمت ايضا وحدة الاسلام في الشرق بموت ملكساة السلجوقي  
سنة ١٠٩٢ فتبعثت امبراطوريته المترامية الاطراف اشلاء ونهضت عندها البابوية منلة باوربان الثاني  
سنة ١٠٩٥ نسعى الى توحيد جهود القوم بالقضاء على فوضى الاقطاع وتعنت الفرسان وتوجيههم  
بسطر الشرق حيث تبسط سلطانها وترفع رايها فكان دورها في ذلك دور من ينير بالدعايات كوامن النفوس  
ويموه بالخطب والمختلفات الحقيقة على السذج من الشعب فيدفع بهم الى نخيل ما ليس بالواقع محرقة  
فيهم اوتار التعصب الديني طورا ومثيرة عندهم للاحقاد الجنسية طورا آخر ، مصورة لهم قيام مأس في  
الشام قد بولغ في وصفها . فكم اوهمتهم نعاسة الحجاج لسوء تصرف الحكام من السلاجقة معهم ولتعسف

الخلافة من الفاطميين بمعاملتهم وكما اظهرت لهم المسلمين قائمين على عبادة الاوثان وهاكفين على السجود امام صنم محمد ومهينين " لغبر المسيح " . غير انها لم تستطع مع هذا ان تخفي الحقيفة كلها فلوحث لهم بما في الشرق من كنوز مدفونة وسهول خيره وممالك عظيمة وتجارات رابحة تنظرهم جميعها .  
وهكذا ما زالت بهم حتى اندفعوا فوجات متتالية بين فترات متفاوتة لمدة قرنين كاملين من الزمن تكسرت اخيرا على صخور الوحدة في سورية ومصر وتلاشت تاركة من الآثار ما هو باق الى يومنا هذا وما لم بقو على البقاء مع الايام .

وليس باستغرب ان تلقى تلك الدعاية عند مختلف الطبقات من الشعوب الأوروبية آثارا صاغية وقلوبا واهية الم تكن مثل الحياة عندهم دينية تزهدة كما رسمتها لهم الكنيسة والتقاليد وطبعتهم عليها الطقوس والمراسم فان لم يتح لافراد الشعب ان يحبوا جميعهم في عزلة الدبارات مع الرهبان والنسك فلا اتمل من ان يعتاضوا عنها بحمل الصليب وفحص الاكف بدما " الوثنيين " فيكفروا بذلك عن خطايا ارتكبوها وينالوا رضى الكنيسة وروءائها . ثم اليس<sup>(٤)</sup> في استجابة الطبقات الدنيا من الشعب تخفيف عن كواهلهم فكم كانوا يلقون في كسب العباك عننا ونصبا . كما انه (٥) كان للفرسان والامراك والملوك فيها سبيل لتحقيق مراميهم في المغامرة وحب الغزو والفتح والسيطرة ولسنا بناسين ذلك الشعب الشمالي " النورمان " وتدفع جماعته من منازلهم في الشمال الى فرنسا وانكلترة وسردينيا وصقلية بعد ما ارتادوا البحار واجتازوا الانهار ثم كيف لا يجيب النداء الابطاليون من بندقية من جنوبيين وبيزبين والكل منعك الى اكتساح الشرق واسواقه واملاك طرق تجارته واخيرا لماذا لا يلبى الفرنسيون من اهل الجنوب الدعوة وفي ذلك متنفر لاحقادهم المتراكمة في الصدور . السم يسبق لهم ان مدوا يد المساعدة الى اخوانهم الاسبان من المسيحيين ضد المراكبيين من العرب المسلمين تلك هي الظروف التي فيها ولدت " الحروب الصليبية " .

ولعلها هي التي جعلت بعضهم يصفونها بالوحشية والفظاعة بل والخرابة ايضا متوهمين اسبابها الحقيقية وهي ليست في الواقع بجملتها من مكوناتها في شيء بل ولا من مسبباتها البتة . فما هي اذاً العوامل الحقيقية لها ؟ ان الدوافع الحقيقية لها في اعتقادنا انسان لا ثالث لهما . العامل التاريخي وهو ضعف الشرق بعد المنع والسطوة وشعور الغرب بوجود الثقلت منه واسترجاع اراضيه بل والاخذ منه بالثار . العامل الاقتصادي الذي تنتقل به مرافق الحياة الى ابدى القوم مع انتقال الممالك لايديهم بفعل الاول . وهي كما ترى حدث طبيعي منطقي

كان لا بد له من ان يقع ولولم يكن هنالك بابوية او خلافة ولا اسلام او مسيحية ايضا وليس ما بنوه به بعضهم من دور خطير لعبه بطرس الناسك وامثاله في استنارة الفلاحين وقيادتهم لهم في حملات شعواء الا اسطورة الاجبال وبدعة الخيال . هذه هي الحروب الصليبية كما نخيلها بعضهم وكما تصورها البعض الاخر وتلك حقيقة امرها واسبابها ومهداتها نرحوان تكون قد وقفنا الى تبيانها وكشف اللثام عن كنهها حتى نتقدم الآن الى درس ادوارها وما تطلبت فيه من ظروف ومناسبات .

مرت الحروب الصليبية في ادوار ثلاثة خلال قرنين كاملين من الزمن اعترض الثاني والثالث منها فترة هدوء نسبي جاءت على اثر وفاة السلطان صلاح الدين وقبام النزاع بين خلفائه من اخوته وابنائهم .

وقد امتد الدور الاول نحو من ٤٠ سنة من ١٠٩٧م الى ١١٤٠م امتازت حملاته بالحمية الدينية عند القائمين بها وبكثرة المشتركين بها من الشعوب والافراد . وقد برز بعض القواد ممن كان لهم اثر بعيد في سير الحرب ونتائجها . اما الشعوب التي استجابت دعوة البابا اوربان الثاني في مدينة كليرمون من فرنسة سنة ١٠٩٥ فعديدة منها النorman والايضا البون والفرنج ، الا ان وفرة عدد هؤلاء من جهة واتراصطدام العرب بهم منذ ٧٣٣م في بوانيه وتوركان مما جعل العرب يطلقون اسمهم على الجميع فيقولون "حروب الفرنج" رغم تعدد العناصر المشتركة فيها من غير هذا الشعب .

ومن ابرز قوادهم الامراء بوهمن سيد او ترانتو وابن اخيه تنكريد وكلاهما من النورمان ثم غودفروا امير بويون في بلجيكا واخوه بولدوين وريمون الطولوزي امير بروفانس في جنوبي فرنسة وغيرهم آخرون ممن كانوا اقل شأنًا واطرفا .

وكان من نتائج هذه الحملة ان تغلب القمم على المسلمين في آسبه الصغرى وانزرد قبصر الروم حسب تعهد الفرنج له ~~مضعف~~ ما كان فقده من قبل ١٠٩٧ و ١٠٩٨ ثم تقدموا الى سورية واسسوا فيها امارتي الرها وانطاكية ثم مملكة اللاتين في القدس وكونينطة طرابلس . وليس بمستغرب ان يتساءل الواحد منا متعجبا "كيف استطاع اولئك الفرنج ان يتغلبوا على السلاجقة والفاطميين بتلك السهولة وتلك السرعة مع ما كان بينهم وبينهم من فوارق . / . . .

في العدد والعتاد وفي القوة والاستعداد \* الم يكن الفرنج غرباء في بلاد جهلوا منها دروبها وشعابها  
كما طالت فيها عليهم طرق مواصلاتهم فتعذرت عليهم منها سبل التموين والإعاضة . اما كان عليهم  
ان يهاجموا الحصون والقلاع ليدكوا منها الاسوار ويحرقوا الابراج ثم لئن رطت راية الصليب <sup>بهم</sup>  
وحدانهم الم تكن الاحقاد القومية قد باعدت بين قلوبهم كما انهم وان انفقوا على القتح وكسب المغلنم  
فقد اختلفوا على اقتسام الاسلاب وتوزع المقاطعات فلا عجب وحالتهم ما وصفنا ان يفقد حملتهم طابع  
الوحدة في الغاية والقيادة ومع ذلك فقد فازت وكان من نتائجها السرعة ما اسلفنا ذكره فما هو  
تعليل ذلك ؟

#### الحالة

ليس تعليل ذلك بعسر منى تفهمنا <sup>الطرفة</sup> في الشرق والرب وربنا ما كانت عليه من  
ظروف فاهرة ساعدت على ظهور تلك النتيجة المستغربة .

كان سبق للمسلمين في الشرق ان شهدوا في القرن الخامس الهجرى (الحادى عشرم)  
وحدة في صفوفهم بم قامت اولى امبراطوريات الاتراك على سواعد السلاجقة وامتدت اطرافها حتى ضمت  
مع ممتلكاتها اراضى الخلافة ايضا وقد رفع قواعدها السلطان طفول بك سنة ٤٢٥ - ٤٥٥ هـ .  
١٠٢٣ - ١٠٦٣ م . فاستولى في سنة ٤٢٥ هـ و ١٠٢٣ م على خراسان وفرمن العمال وخطب  
له في نيسابور . وما زال امره في علو حتى هابه ملك الروم وهاداه ثم انفذ رسوله الى الخليفة  
القائم بامر الله \* بالهدايا وسار يريد بغداد فدخلها لخمسين بقين من رمضان سنة ٤٤٧ هـ .  
و ١٠٥٥ م . ولقب بالسلطان ركن الدين وقضى على الملك الرحيم ابي نصر وعلى قواده وازال دولة  
بني بويه واخبر مات بالرى سنة ٤٥٥ هـ و ١٠٦٣ م . وقام بعده بالامر <sup>ابن</sup> اخيه عضد الدولة  
ابن ستجاع محمد ابا ارسلان فسار الى حلب واقترع عليها صاحبها محمود بن نصر بن صالح بن مرداس  
ولقى ملك الروم وهزمه في معركة ملازكرد الفاصلة سنة ١٠٧٠ م . و ٤٦٣ - ٤٦٤ هـ واستولى عندها  
على جنوبى الاناضول وشمالي سورية ثم تقدمت جيوشه جنوبا ففتحت القدس والرملة وحضرت دمشق غير  
انه مات في ربيع الاول من سنة ٤٦٥ هـ و ١٠٧٢ م . وقام بالامر بعده ابنه ملكشاه فاستولت جيوشه  
بقيادة اصغر اخوته تنهى على دمشق كما فتح آسنقر الموصل ثم قدم ملكشاه بنفسه الى حلب وسلمها  
الى هذا الاخير وعاد هو الى بغداد فامتد حكمه تسع عشرة سنة وشهرا وكان يخطب له من اقصى  
بلاد الترك في الصين الى بلاد اليمن بيد انه ما كاد يلقى حتفه سنة ٤٨٥ هـ و ١٠٩٢ م . حتى  
تغير الموقف في الشرق وتبدلت الطل غير الحال ان قامت المنازعات بين اخوته وابنائهم فتمزقت وحدتهم  
وانقسمت الاسرة الى فروع ثلاثة - واحد في بلاد العجم جت تبلىد افرادهم واستجموا وآخر في الاناضول

حيث رسخت قدمهم وثبتت لغتهم اما الثالث فكانوا في سورية حيث استعربوا وتوطنوا . وكان اقوامهم تتدبر سيد سورية فقام بحاول بسط نفوذه على جميع الامراء وقد بلغ في حملته سنة ٤٨٢ هـ و ١٠٩٤ م . شرقا مركز السلطنة نفسه غير ان السلطان بوكيارق رده من حيث اتى واستخلص السلطنة لنفسه واحتفظ تتدبر عندئذ بدمشق وحلب وهيمن نائبا عنه في الرها توروس الارمنى كما عين سليمان بن ارشق على القدس وهكذا قامت دولته حاجزاً بين السلاجقة في مدينة <sup>شرونة</sup> الاناضول وبين الفاطميين في القاهرة من مصر .

وما ان توفي الله تيمش سنة ٤٨٨ هـ و ١٠٩٥ م . حتى خلفه ولداه رضوان ودقاق في كل من حلب ودمشق اما في الجنوب فتقدم جنود الملك الافضل شاهنشاه وزير الفاطميين وطرد الارمنيين من القدس سنة ٤٨٩ هـ و ١٠٩٦ م . وقد تم ذلك كله دون ان يعبره تركيائهم اقل عنابة او اهتمام بل اكتفى بان يعترف له ابنا تيمش بشيخ من النفوذ الاسوي غير انه ساند الامبريوس في انتزاع الموصل من بني عقيل العرب ثم اقامه نائبا عنه في الغرب .

تلك كانت حالة المسلمين في الشرق خلال القرن الخامس الهجري او الحادي هو الميلادي اما حالتهم في الغرب فلم تكن خيرا منها . ان كانت خلافة الامويين في الاندلس قد هال مال نجمها الى الافول وشرع النصارى الاسبان بزحفون من الشمال لاسترداد اراضيهم واخراج المسلمين منها كما ان النورمان كانوا ايضا قد اخذوا في ١٠١٨ بزحفون الى كنالونية لمظاهرة الاسبان هناك . هذا فضلا عن ان كفة النصارى من الغرب <sup>الغربي</sup> في قلب البحر الابيض المتوسط اخذت ايضا في الرجحان وجعلوا يستردون الجزر القريبة من ايطاليا فاستولى البيزنطون على كوردينية في ١٠١٦ وبعد حرب امتدت ثلاثين سنة ١٠٦٠ الى ١٠٩٠ استخلص النورمان من العرب صقلية . فليس عجبا ان يكون هذا وذاك من مشجعات بوهمند وهو سليل هثولا لان بطمح الى تاسيس ملك له في الشرق او الغرب على حد سواء . ولذلك نقرر ان حملات الفرنج على الشرق انما جاءت متممة لتلك التي سبقتها في الغرب وهذا نفسه ما يقول به المؤرخ ابن الاثير طحطح الكامل . المرجع [ج ١ ص ١١٢]

في تلك الآونة العصبية من تاريخ المسلمين في اسبانيا واوربية وصلت جموع الفرنج الزاحفة من الغرب عن طريق البر والبحر الى القسطنطينية ولكن كان عليهم قبل ان يجتازوا المضيق الى الاناضول ان يبعدوا شكوكا قامت في نفس الكيسور لدى رؤيته اباهم ان وجد نفسه بين امرين اما ان يعتبرهم حلفاء قد توافدوا للتعاقد معه على قهر العدو المشترك ثم اقتسام ما ينتزعونه بينهم بالسوية واما ان يعتبرهم اتباعا فيكون له وحده الحق فيما يفتحون من ممتلكات العدو وعلى هذا الرسايل الاخير

استدرجهم الى ان يتعهدوا له بان كل ما يفتحونه من قديم مستلكاته فهو له وكل ما يسمح به لهم بملكوته باسمه فمآذا كانت النتيجة عندها نفتت في الصدور احقاد قديمة زادت في توسيع شقة الخلاف بين الكيستين ان الشرف ظهر بمظهر المستبد فلا الامراء اصابوا ما كانوا يتوقعون ولا الابطالون - ما عدا البندقية لما كان بينها وبين القسطنطينية من قبل - كانوا راضين عن سياسة التبصر الاحتكارية ، اذ الى ذلك ان بقاء القوم في مستلكاتهم الجديدة كان في خطر ان ملوك الروم كانوا ينظرون الى اماره انطاكية مثلا التي اختص بوهمند نفسه بها رغم تعهده لأكسيوس - بعين الحسد ولم ينوروا عن نُجرة المسلمين في استردادهم اماره الرها من الفرنج فيما بعد ولعل الكسيوس كان مغدورا فيما ذهب اليه وذلك بسبب سوء تصرف القوم الى حد لم يستطع معه ان يرى فيهم شركاء له في حمل السلاح وهكذا نرى ان الروم والفرنج لم يكونوا على وفاق رغم ما كان يبدو عندهم من وحدة دينية وان اختلفوا مذاهبا وما ان تم الاتفاق بينهم وبين الكسيوس ولو ظاهرا حتى مشت طلائعهم في شهر ايار من سنة ١٠٩٧ الى الاناضول في ممتلكات قلمح ارسلان السلجوقي وفي اقل من شهر استطاعوا انتزاع نيقية من حاميها فتقدموا عندئذ الى سهل بوريلام *Burilam* (الحيث قضوا على جيش قلمح ارسلان في واحد تموز فاسترد الكسيوس نصف ما كان قد انتزعه السلاجقة منه من قبل ان كان عليه ان يواجههم ويصد اليهم وحده دون ما معونه بلقاها من ملاجقة العراق او سورية .

فما كان من الفرنج الآن الا ان تركوا قلمح ارسلان يطمئن الى عاصمته قونية في موقفها الحصين ويتجهوا شرقا بجنوب الى كيليكيا حيث يقوم الارمن والرم على حراسة بعض المدن الامر الذي سهل مهمتهم فانتزحوا تنكرد " طرسوس ثم فيما كان الجيش الرئيسي يسير جنوبا الى انطاكية وعلى راسه بوهمند كان يوفد وين يسير شمالا بشرق ثم اتجه عند مرده الى الرها فلم يجد كبير عناء في فتحها وعليها كما راينا ذلك الارمني توروس وفي اواخر تشرين الاول سنة ١٠٩٧ كانت جموع الفرنج قد وصلت الى جوار انطاكية وكان باعسيان صاحبها عندئذ على طريقة للاشتراك مع رضوان صاحب حلب بمباغنة جناح الدولة امير حمص وذلك لمناداته بنفسه مستقلا عن حلب فما ان سمع باعسيان باقتراب الفرنج من اراضيه حتى عاد مسرعا الى مدينته التي كانوا قد سبقوه اليها واقاموا الحصار عليها من ١٢ تشرين الاول سنة ١٠٩٧ الى ٣ حزيران سنة ١٠٩٨ ذاق الفرنج خلالها الامرين ان ما كاد الشتاء يحل حتى فرسهم البرد وانتشرت بينهم الامراض وعصم الجوع بالرغم من تامين المراكب الراسية في السويدية ، مرفأ انطاكية ، لاعتادتهم ومن مساعدة الارمن لهم ايضا . اما السلاجقة فبالرغم من تنازعهم المحلي قد ثابوا الى رشدهم واتفق كل من جناح الدولة وُقُفُاق على مظاهره

بأغصان لا سيما وقد علموا بان الفاطميين شرعوا بفاوضون الفرنج طمعا باستخلاص فلسطين منهم فهاجم الحلفاء موخرة الجيش الفرنجى عند بلدة البارة فاخروا بذلك الزحف المباشر على المدينة وان لم يردوهم عنها نهائيا . بومعد اسبوعين او اكثر وصلت من احلب النجدات فصدّهم الفرنج عند بنجراروصارم . غير انه بعد اربعة اشهر اخرى من ذلك الحين غدر احد الارمن بأغصيان ودلّ بوهمند على منفذ سرى الى المدينة فدخلها رحاله فى ٣ حزيران سنة ١٠٩٨ ومات بأغصيان فيما كان بطاب النجفة لدى علمه بسقوط المدينة . ولكن الفرنج ما اعتوا ان راوا كربوغا امير الموصل وقد وصل بغنّة على راس جيش كبير مقبم الحصار على انطاكية واستمر على ذلك لمدة ٢٥ يوما سقطت المدينة بعدها وبقيت الحامية فى القلعة صامدة حتى اوشك القوم ان يصلوا الى اتفاق مع كربوغا غير ان هذا كان مكروها عند بعض فرقه كما ان الخلاف كان قد دب بين العرب والترك فى جيشه بسبب مكابد رضوان فاخذ الكثيرون بفادرون فرقههم . واما الفرنج فعداودهم الامل على انزل العنور على " الحرية المقدسة " وصدوا فسى مواضعهم مستبسلين حتى تمت لهم الكَلْبَةُ . الخَلْبَةُ

فلما استسلمت لهم الحامية بعد اسبوع ارتأى القوم تاخير الزحف على القدس حتى شهر تشرين الثانى عليهم يستريحون من طول ما اصابهم من العناء ويستقلون مددا جديدا يخذون به صفوفهم بعد ما نزل فيها من الخسارة فى الارواح بين الفرسان على الاخص . هذا مع ما قام بينهم من نزاع على قضية انطاكية وما اذا كانوا يتخلون عنها للقبصرام بيقونها فى عهدة بوهمند . وفيما هم فسى نزاعهم وترددهم كان بوهمند وتشارك بيملان على تقوية مراكزهما فى كل من كيليكية وانطاكية كما ان ريمون تقدم من البارة وانتزعهما اما غودفريد فكان يسعى الى تامين مركز اخيه بغدوسن فى منطقة تل باشر حيث قضى ورجحاً من الزمن راجا غاديا بينها وبين انطاكية حسبما كانت تقتضيه الظروف والملابطة

ولكن ما لبث التذمر ان دبّ فى القوم للتأخر عن الزحف على القدس مما جعل المتنازعين ينفقان على مباغنة المعرة وبعد شهرين من الحصار سقطت المدينة وكان فى ذلك حل لمشكلة اجتمعت كلمة الاكثرية على المسير جنوبا فما كان من ريمون الا ان رضى وساروا جميعهم ما عدا بوهمند ان عاد هو الى انطاكية حيث ثبت قدمه .

وما ان سار ريمون مصعدا فى وادى العاصى حتى وجد نفسه امام مقاومة ضعيفة ان فضل الحرب فى تلك المدن تقديم الموت لهم وروئيتهم يستنرون فى زحفهم جنوبا على ان يقاوموا او يبرهوا اراضيتهم تتخرب .



فتقدمت اليهم وفود حمص وطرابلس وهم في سهل حصن الاكراد فكان في ذلك ما اوصى الي ريمون تاسيس  
كونية له تجاور انطاكية وتفوقها ولعل هذا الامر نفسه <sup>او ما</sup> اوصى اليه ان يحاصر عزقة القائمة على سفوح لبنان  
الشمالية على مسافة قليلة من الوادي الواصل بين حمص وحماه والساحل فحرب فيه ريمون خيامه في ١٤  
شباط بعد مغادرته حصر الاكراد وما ان تقدم من طرطوس حتى غادرتها حاميتها مما جعل الافرنج يتصلون  
من جديد بالاساطيل البحرية ويتمنون فضلا عن انضمام قوى جديدة اليهم ثم اتخذوا السير على طول  
الساحل وحاصروا جبلة في طريقهم وهكذا اجتازوا سهل طرابلس ومضيق نهر الكلب دون اقل مقاومة  
وهكذا ظلوا حتى وصلوا الى فلسطين حيث مروا بعكا وحيفا وقسارية وارسون وما ان توغلوا قليلا في  
الداخل حتى وصلوا الى مدينة الرملة فوجدوها وقد غادرتها الحامية فكانت هذه اولى ممتلكاتهم في  
فلسطين فاقاموا فيها حامية وفي صباح ٧ حزيران سنة ١٠٩٩ اطلت عليهم المدينة المقدسة وكانت حاميتها  
من الفاطميين تقدر بـ ١٠٠٠ رجل اما الفرنج فكانوا يقدرون بما يقرب من ٤٠ الفا منهم عشرون الف  
مقاتل وبعد حصار دام اكثر من شهر سلمت الحامية في ١٥ تموز سنة ١٠٩٩ على ان يسمح لهم بالالتحاق  
بعسقلان سالمين .

غير ان القوم نكثوا العهد واعملوا السبي في رقاب المسلمين في مذبحه فظبحة جرت فيها  
الدماء في الشوارع بل "خاضت فيها الخيول حتى ركب الفرسان" وهدد الخروب كان الفرنج قد نغموا غل  
صدورهم فذهبوا يرفعون اكلهم الملطخة بالدماء في الصلاة الى الله شكرا على ما اولاهم من نعمة النصر  
على "الكفار" غير انهم ظلوا في خوف من الجيش المرابط في عسقلان فما ان علموا بان المصريين يستعدون  
للكرة عليهم باقتوهم في الغرب من عسقلان وفازوا عليهم في ١٢ آب سنة ١٠٩٩ ثم كادوا يدخلون المدينة  
لولا ان الخلاف بين ريمون وغودفريد ما جعل المسلمين يتقون ويرفضون التسليم .

وما ان سلم القوم "القدس" حتى اعترضتهم قضايا عديدة منها = الحكومة وشكلها ان  
برز عندئذ حزب الكنيسة بدعم ريمون لاقامة حكومة اكليزيكية . ولما رفض هذا ترشيحهم له بدعوى انه  
لا يقبل تاجا في مدينة نالم فيها "السيد المسيح" تقدم للمنصب غودفريد موثرا لقب "حامي القبر المقدس"  
على لقب "صاحب التاج" وبعد ايام شغلها احد رجال الدين منصب نائب البابا فكان النائب الاول  
المنوفى .

غير ان هذه القضية عادت الى الظهور لدى وفاة غودفريد ان ان بوهمند سيد انطاكية  
قد رشحه للمنصب حزه وكاد حزب الكنيسة هذا يفوز بامنيته لولا ان وصل بنفوس اخو غودفريد من  
الرها وتدخل مع حزه في الامر وفاز بالتاج في سنة ١١٠٠ وعلى هذه الصورة تم تاسيس "مملكة القدس"



ولكن استمر النزاع بين الفكرتين ( العلمانية والاكليركية ) حتى سنة ١١٠٣ عندما فاز بخدوسين بعزل نائب البابا ومع ان الخلاف بعث في عهد بخدوسين الثاني ( ١١٢٨ - ١١٣٠ ) غير انه ختم بموت النائب البابوي الثالث وانتهت القضية بتغلب العلمانية على الاكليركية .

وهكذا دلت هذه القضية على مدى الخلاف في الحقيقة رغم دعوى قيام الوحدة الدينية . الا ان فوز الملكة لم يكن ضربة على الكنيسة فحسب بل كان كذلك على حزب بوهمند النورمانى ايضا اذ ان انطاكية لم تكن اقل حسدا للقدس من الاكليركيين للعلمانيين . الم يكن بوهمند اكثر نفرا من غودفريد كما ان انطاكية اكثر خصبا من القدس نفسها ، لكن القدس بمركزها الدينى كانت تجعل قلوب الآلاف تهوى اليها سنويا ثم وان لم يستقروا جميعهم فيها فقد كان الكثيرون منهم يبقون وكان في ذلك سبيل دائم من الوافدين الذين كانوا يندون حيوتها ويقدمون بجديد دمهم فجموع الفرنج . ولا بد من الاشارة الى ان قضية العلمانيين والاكليركيين تدل على صحة ما ذهبنا اليه سابقا من ان " الحروب الصليبية " كانت تنسخر بالصيغة الدينية فقط .

واما القضية الثانية فكان السعى وراء حماية " المملكة الجديدة " من الفاطميين مع العمل على توسيع رقعتها على حساب ما يحا وروهلن المدن والقرى وهذا هو ما اضطلع به غودفريد وبعض خلفائه .

هذا مع العلم ان ذلك التوسع لم يكن الى الداخل لقلعة المحاربين من الفرنج ولقوى دمشق وضعف القاهرة من جهة ثانية . ثم لوشاءات القدس ان تلتفت شرقا لتعذر عليها التموين لذلك كانت مضطرة لان تلتفت دائما الى الغرب وعليه فيكون الفضل في تموينها يرجع الى الايطاليين واساطيلهم بينما الفرنج الوافدون عن طريق آسية الصغرى كانوا قلما يستطعمون الوصول الى سورية بسبب قوة السلاجقة ولاستنكاف الروم من متابعة الحرب والقتال ايضا .

وكان بين الايطاليين الجنوبيين والبيزنطيين والبندقيون غير ان الجنوبيين كانوا اكثرهم اثرا في حياة " مملكة القدس " ولا عجب اذ كان قد سبق للقسطنطينية ان منحت البندقيين بعض الامتيازات منذ سنة ١٠٨٠ م . . هذا مع العلم ايضا ان البيزنطيين كانوا اصدقاء انطاكية

بينما كان الجنوبيون حلفاء القدس وموآزرتهم استطاع بغدوين الاول ان يقزوا ارسون وفسارية وعكا . لكن الجنوبيين قد ساعدوا ريمون في فتح جبيل سنة ١١٠٤ كما ساعدوا خلفه في فتح طرابلس سنة ١١٠٩ وكذلك فقد شد ازربغدوين في سنة ١١١٠ ملك النوروج في فتح صيدا وفي ايام بغدوين الثاني ظهرت البندقة القدس وذلك عندما رأت ان جمهورية البيزينسي سنة ١١١١ قد نالت بعض الحقوق دونها من القسطنطينية وفي سنة ١١١٨ اضطرت ايضا الى ان تومي وجهها شطر القدس فقدم اسطول لها مؤلف من ١٢٠ مركبا في سنة ١١٢٣ وصد هجوما للمصريين كما ساعد في فتح صور سنة ١١٢٤ . وكان ذلك مقابل السماح لها بالدخول الى فلسطين والتمتع بامتيازات وصلاحيات عديدة ومع ان الامور اختلفت بينها وبين الرمم فقد حافظت على امتيازاتها في القدس وفي القسطنطينية ايضا .

وهكذا فقد اتسعت " مملكة القدس " حتى امتدت على طول الساحل من بيروت ( ١١١٠ ) الى العريش على الحدود المصرية ومع هذا الامتداد جنوبا وشمالا فلم تكن لتتسع شرقا الى ابعد من مقاطعة الاردن . اما في الشمال فكانت تحدها امارة دمشق .

لكن بغدوين الاول استطاع ان يضا في الجنوب الشرقي حتى ابلة على البحر الاحمر وصد للمصريين في تلك الجهة اقتحم في سنة ١١١٦ قلعة الثوبت في منتصف الطريق بين ابلة والبحر الميت وفي سنة ١١٤٠ ايام الملك فلك قد اضيف الى ذلك كله الاراضي الواقعة شرق البحر الميت حيث اقاموا قلعة الكرك .

وكان لبعض هذه الفتوحات عوامل تجارية ان كانت تقع على الطريق العام للتجارة البحرية والبرية بين دمشق والقاهرة فيكون العاملان الاقتصادي والاستراتيجي قد تضافرا على رفع " مملكة الفرنج " الى مركز السيادة في فلسطين .

غير ان القدس وممتلكاتها لم تكن في الحقيقة سوى النواة التي عليها مدار الامور في المقاطعات الفرنجية الثلاث - الرها وانطاكية وطرابلس ان الاولى منها وقد تأسست سنة ١٠٩٨ من بلدوين الاول نفسه كانت بحكم الواقع تابعة للقدس وقد حكمها بغدوين الثاني قبل حكمه على القدس كتابع لبغدوين الاول من سنة ١١٠٠ - ١١١٨ ثم بعد ذلك تعاقبت على حكمها اميرا تل باشر من اسرة جوسلان حتى فتحها زنكي سنة ١١٤٤ ولما كانت تقع الى الشرق

من الفرات مع اتصالها ببلاد الارمن وبالطريق التجارى العام الممتد على مجرى الفرات حتى الرقة والمنجى من ثم الى انطاكية ودمشق نقول ولما كانت مقاطعة الرها تقوم في هذا الموقع كانت حباتنا قصيرة الامد .

اما المقاطعة الثانية = كونتين طرابلس ، فقد وقعت تحت نفوذ القدس في عهد مبكر من تاريخها ومع انها قد اسسها ريمون ما بين ١١٠٢ - ١١٠٥ بمظاهرة الكسبوس وبالاتفاق مع الجنوبيين فانها لم تُشتمل على العاصمة حتى سنة ١١٠٩ وحتى قبل هذا الفتح اضطرت بسبب ما قام فيها من نزاع بين ابن ريموند وابن اخيه على ورايتها - الى مساندة القدس لها وبمساعدة الملك بنديون الاول فقط تم لها فتح العاصمة . وهكذا نرى ان كونتية طرابلس ايضا قد وقعت تحت نفوذ القدس منذ بدء تاريخها .

وفي تلك الاثناء - ايام حكم بنديون الاول - كانت امارة انطاكية - وعلى ادارتها اولا تنكرد ثم روجير بعد سفر بوهمند - مشغولة البدين بالمنازعات مع جيرانها المسيحيين في كل من طرابلس والرها ، ومع امراء ماردين والموصل من المسلمين . غير انها عند وفاة روجير سنة ١١١٩ دخلت تحت وصاية بنديون الثاني ملك القدس حتى سنة ١١٢٦ عندما بلغ بوهمند الثاني سن الرشد وكان بوهمند قد تزوج باحدى بنات بنديون ولدى وفاته سنة ١١٣٠ غدا بنديون الثاني للمرة الثانية الوصي على انطاكية . فيمكن اعتبار انطاكية منذ ذلك الوقت مقاطعة تابعة للقدس . وعلى هذا باستطاعتنا ان نعتبر عهد بنديون الثاني في سنة ١١٣١ الوقت الذي فيه تم نشوء " المملكة اللاتينية " بحدودها المعتدة من بيروت في الشمال الى العرش وابلة في الجنوب وضمها لمحاقيتها الشمالية الثلاثة . وعندئذ عدت سيدة امورها .

الا ان العوامل التي ساعدت الفرنج على تاسيس هذه المملكة بحدودها ولمحاقيتها فترجع بالدرجة الاولى الى ما شاهدناه في سورية من فوضى ميا سية ومنازعات اقطاعية واختلافات جنسية ودينية . اصف الى كل ذلك ما كان السوريون انفسهم قد فقدوا من شعور بالكرامة القومية لتعدد الحكام عليهم وكثرة ما لاقوه من عنف وعسف . هذا مع مساندة الروم والارمن للفرنج . اما القول بمسالمتهم فلا نستطيع رده اذ شهد لهم بذلك خصومهم انفسهم غير ان ما يدعيه ستيفنسن من تفوقهم بفنون الحرب والقتال فنسمح لانفسنا ان نقف منه موقف المتردد بقبوله اذ ان صح الاخذ به بالاضافة الى الفاطميين وهم في ابان شيخوختهم فلا

نستطيع الاخذ به بالاضافة الى السلاجقة وقد كانوا في ارج مجدهم العسكري . وان ننسى  
فلسنا بناسين ما قدم الابطاليون من مساعدات قيمة بفضل اساطيلهم بنقلها الحجاج والجنود  
وتزويدهم بالاعاشة والمون وغيرها من آلات الحصار ومواد البناء . واني لألّهي من واجبي هنا  
ان انفي عن مجموع النصارى الوطنيين مهمة ~~مهم~~ ان كثيرا ما اتهمهم بعض المفرضين بانهم  
مدوا يد المساعدة للفرنج ضد مواطنهم من المسلمين منذ ان اطل القوم على البلاد وانهم  
فعلوا ذلك تحسبا للروابط الدينية . اما الحقيقة التي لا بد من ثبوتها ان الزمن - وهم من  
النصارى كانوا اول من ظاهروا للفرنج ولكنهم فعلوا ذلك بدافع قومي وحبيا بنبل الاستقلال  
لا بدافع التعصب الديني وكذلك لم اقف في مطالعاتي على ما يبرهن لي ان مجموع طائفة من  
الطوائف في لبنان قد انضمت الى جموع الفرنج وان اكن قد وقفت على ما بوضوح بصراحة ان بعضا  
من الموارنة والمسلمين قد انضموا الى القوم بعد تغلبهم بحامل الارتزاق ليس الا . كما ان  
الفرنج قد استطاعوا في ابان سلطانهم ان يخربوا البعض للتجنيد عندهم وتاليف ما عرفوه بالفرق  
الخفيفة حتى تسير تلك الفرق في القتال على النظام المعروف ان ذاك في البلاد .

تلك كانت كثرة العوامل التي مكنت الفرنج من التغلب على اهل البلاد  
والفوز بتاسيس ملك لهم في تلك السرعة وذلك اليسر . وليس في اعتقادنا من الاهمية بمكان  
ان يستطيع القوم ذلك فحسب بل ما هو اهم منه قدرتهم على المحافظة عليه والاستمرار فيه  
طويلا . وهذا ما نحب ان ندرسه ونضع بين يدي القارى ما توصلنا اليه من نتائج .

لا بد لكل دولة تأسست عن طريق النزوال والفتح وورثت في الاحتفاظ بكيانها  
فضلا عن توسعها وتقديمها مهما اتسعت رقعتها اوضاعا تفوق لا بد لتمثل هذه الدولة من  
انظمة داخلية تدعمها ومؤسسات شعبية تشد اجزاها وتربط اقسامها بعضها ببعض بل ومن  
قوة مسلحة تحميها من غارات الخبير وتصد عنها المعتدين .

فلننظر كم استطاع الفرنج - وقد اتاموا لانفسهم في جزء من سوربة خلال  
ثلاثين سنة او اقل " دولة لاتينية " تكونت من " مملكة القدس " ومقاطعة الرها " وامارة انطاكية  
وكونتة طرابلس حتى شملت اراضيها الساحل السوري باجمعه مع تبسط قلبها الى الداخل في الشمال  
والجنوب - ان يحفظوا بها . ولكي ننفذ على الحقيقة قبل ان نفررها بجدر بنا ان ندرس اولا

حالتها الداخلية في انظمتها الادارية والقضائية والمالية وثانيا مكانتها الخارجية في قوة جيشها ومختلف فرقته .

وإذا توجهنا الى التاريخ بهذا السؤال " الى أي حد استطاع الفرنج الاحتفاظ بدولتهم في الشرق خلال " الحروب الصليبية " الفناء بجيونا على الفور بقوله " الى امد قصير " وذلك لاسباب داخلية وعوامل خارجية تضافرت معا على إهلاكها قبل ان تفرغت للعمل على توسعها والاخذ باسباب التقدم .

اما الاسباب الداخلية لذلك فتتلخص فيما يلي =

(١) - ان انقسام الدولة الى اربع وحدات سياسية هي = مملكة القدس ومقاطعة

الرها و امارة انطاكية وكونتة طرابلس كان وحده عائقا هاما ، طريق تقدمها وتدد اجزائها وربط اقسامها بعضها ببعض . واذاما ذكرنا ان هذه الوحدات كانت تتالف ايضا من عناصر مختلفة وان امورها كانت في ابدى زعما متنازعين ، ادركنا كم كان في هذا وذاك من اسباب ناعية للمتنافر والتباغض . الم تكن الرها والقدس تمنان بالنسب الى البوغنديين بينما كانت انطاكية نورمانية الاصل وطرابلس بروفنسية الدم " ثم ان الخلاف الذي نشب بين الزعما المؤسسين قد اتصل بعدهم بالخلفاء ايضا فكان ذلك سببا رئيسيا في فشلهم وعدم تعاونهم وهم في اخرج الاوقات من تاريخهم فضلا عن انسان بعضهم الحسام احيانا وقتالهم بعضهم بعضا بل وتعاهد الآخريين مع المسلمين احيانا اخرى .

(٢) ثم ان قلة عدد المقيمين من الفرنج في سورية بالاضافة الى سكانها من المسلمين

وغيرهم مع ما كان بين اولئك من الخلاف والفرقة وهشولا من الوفاق والوحدة كانت عاملا هاما آخر في هدم تلك الدولة . فان عدد الواقديين منهم قد بالغ المؤرخون الاولون فيه كثيرا مع ان الذين غادر منهم اوطانهم فعلا لم يصل منهم الا عدد ضئيل الى سورية وقليلون منهم توطنوا في الشرق حدها . وعليه فيكون سكان " الدولة اللاتينية " من الفرنج مع من كان بينهم من الغرباء ومن المسلمين اقل بين القوى المهاجمة لهم والتي كانت اكثر منهم تماسكا واتحادا .

(٣) - واذاما اخرجنا الى هذا اوزاك ما كان بينهم وبين الروم من مشاحنات احيانا

ندرك مبلغ ما كان لذلك من بعد الانروسو العاقبة . لهذه الاسباب عقب الوقت القصير الذي فيه

أحرزوا ذلك الفوز السريع وقت أطول اضاعوه في المشاحنات والمنازعات بينما استفاد منه المسلمون باستعادة نشاطهم واسترداد وحدتهم .

(١) - ولم يكن ذلك وحده من عوامل فشت في عضو " الدولة اللاتينية " من الداخل بل كان هناك ما هو شر منه ويعنى به حالة كل من تلك الوحدات الأربع نفسها فلو أخذنا " مملكة القدس " ودرسنا مكانة الملك فيها من اتباعه " البارونات " لوحدناه بحكم القانون كأحدهم وأن من شيء كان يميزه عنهم فهو اجتماعهم على اختياره رئيسا عليهم كما كان الحال مع غوفريد وبندوسن الأول لكن اعتلاء العرش ما لبث أن أصبح وراثيا فكان للمجلس الأعلى أن يتدخل فيما كان يقع من اختلاف على وراثته . وليس هذا فقط بل كان هذا النظام يسوغ للوريث إذا كان أنثى أن تنقل التاج لزوجها وفي ذلك أيضا من أسباب الخلاف ما زاد في حال الدولة سوءا على سوء . لذلك نقرر مع *Barker* أن الأسباب لانحلال الدولة سنة ١١٨٧ لا يبعد أن تكون قد تجمعت بسبب تلك الحقيقة وما نجم عنها من الاختلافات والمنازعات " (ص ٣٩) *The Crusades* وإذا اكتفينا إلى النظام العسكري في " الدولة اللاتينية " رأينا حظ الملك منه كحظه من نظام الحكم إذ كان عليه أن يدفع للمتجندين من أصحاب الأقطاعات جملا وأن يقدم لهم الخيول أيضا والا استنكفوا من القتال واضربوا عن اللحاق به في الثارات والمعارك وهناك غير هؤلاء من الفرق كجماعة المرتزقة <sup>سمن</sup> هم لم يكن لهم قطائع أرضية يتسلمونها من الملك بل يتقاضون من الملك إعطيات معينة . وكذلك فرق " الفرسان " الخفيفة المولفة من السوريين والمسلمين وكانت في قتالها تسيطر على النظام العربي في الكر والفر كما أن " المشاة " كانوا من الأرمن أما رماة الشباب فكانوا من " الموارنة " .

أضف إلى تلك الفرق منظمتي " السنتارية " و" الداوية " وفرسانهم وكانوا جميعهم هم يرجعون إلى رؤسائهم المستقلين بأمورهم كاستقلال أميرى انطاكية وطرابلس ثم إن مجموع هذه الفرق كلها لم يكن يزيد عن ٢٥,٠٠٠ بل لعل قوة المملكة كانت تستند في الدفاع عن المدن إلى الحصون والقلاع التي بناها " السنتارية " و" الداوية " أكثر منها إلى قوة الجيش وفرقه . ولا يجب أن يفتقد تلك الحصون والقلاع ما زالت ماثلة وهي شاهد على ما كان لها من أثرين في الذود عن المملكة .

ثم ان اكبر خلل في نظام الدولة كان الملك والحكومة يعانiban من جرائم الامرين فقد انها نظاما ماليا فائيا . ان مع ان دخل الملك - من الضرائب المفروضة على القوافل التجارية والمكوس الجمركية في المرافى \* ومن ارباحه من الاحتكارات ورسم المحاكم وضريبة الراس ( الجزية ) على اليهود والمسلمين والنحويضات الحرة من الدول الاسلامية - كان ضخما . غير ان مصاريفه كانت ايضا ضخمة الى حد يبرز معه تحت عبثها بالرغم عما كان يتناوله من مساعدات مالية يقدمها له ملوك اوربية بدلا من اشتراكهم في " الصليبيات " وما كان يغممه هو من الغزوات التي كان يقضيها على البلاد الاسبوية المجاورة . وقد كان دائما في اضطراب مالي ان كان ينفقه نظام للضرائب الوطنية كالتي حاولوا فرضها فقط في سنة ١١٨٣ والتي كان يحول دون ولا جبايتها امتيازات التجار والكنيسة . وبقيت الكنيسة تستملك الاراضي الحديدية مع رفضها المساهمة في الدفاع عن المملكة مع انها كانت تنقاضي حصتها كاملة من العشر عن كل فعخل تحمل اليه يدها ولو كان ذلك من غنائم الحرب . وبالرغم من انها كانت اغنى المؤسسات في الدولة فقد كانت باعفاها من الرسم تساهم بطريقة غير مباشرة في تقويض دعائمها . ولعل منظمي " الستبارية " و " الدارية " التابعين لها كانوا من اخطر مني على حياة المملكة .

وكذلك لم يكن النظام القضائي في " الدولة اللاتينية " باقل تعقدا وبالناقص اضرارا في الدولة من الانظمة السابقة الذكر ان كان في القدس محكمتان اثنتان = الاولى المحكمة العليا تقضى بين المتنازعين من الاشراف او بينهم وبين الملك ، والثانية تقضى بين المتخاصمين من عامة الفرنج المدنيين وكان من صلاحياتها النظر في الحرائم ايضا . الا ان كلتا المحكمتين كانتا تعتمدان في حكمها على العرف ان لم تكن الشريعة مدونة . ولم يكن ضرر التجار اقل من ضرر الاشراف ورجال الدين في هذا النظام ان كانوا على الاغلب عديدين واثريا . مما جعلهم في جسم الدولة وحدة قوية مستقلة بامورها الاجتماعية والسياسية بل والقضائية وفي ذلك ما فيه من عرقلة لسير الدولة وتقدمها .

وما كان يسود في " مملكة القدس " من المحاكم بفضل هذا النظام كان يسود مثله في

في كل مقاطعة ايضا = فمحكمة للاشراف واخرى للمدنيين التجار ، فضلا عن محكمتين أخريين احدها في المدن التجارية الكبرى<sup>(١)</sup> وثانيتهما محكمة " السلسلة " في المرافئ . وكانت الاولى تتالف من اربعة سوريين واثنين من الفرنج وكانت تنظر في القضايا التجارية المتعلقة بالبحر<sup>سوريين</sup> والثانية ( من ايام الملوك سنة ١١٦٢ - ١١٧٤ ) كانت تنظر في قضايا التجارة وكانت كسابقتها تتالف من رئيس ومعاونين له . وكان هناك محكمة اخرى مستقلة عن كل ما ذكر وتختص بالابطاليين في كل مدينة تحت ادارة قناصلهم وكان من حقها النظر في جميع القضايا العادية عدا ما كان منها يتعلق بحرمة القتل والسرقة او الاحتيال . ولما كانت هذه المحاكم تدخل في دائرة الاعفاءات من الرسوم والواجبات المالية كان ذلك مضرًا بمصلحة الدولة . وكان للكنيسة ايضا محاكمها الخاصة لتنظر في جميع القضايا المتعلقة بالاحوال الشخصية وباملاكها وكانت هي ايضا تعفى من جميع الرسوم والواجبات .

ولعله من المفيد ان نذكر هنا ايضا ان " الدولة اللاتينية " لم تكن لتشكل النقص في الجهاز الحكومي فحسب بل كانت تعاني تدهورا في الاخلاق ايضا مما حمل مجموع القوة الحاكمة بالاضافة الى الحكومتين<sup>ننضال</sup> شيئا فشيئا حتى عجزت عن النهوض بنعماتها .

تلك بعض العوامل الداخلية التي كانت تنخر في جسم " الدولة اللاتينية " فيما كانت الاسباب الخارجية تنضاف للقضاء عليها نهائيا . اما هذه الاسباب فتتمثل في هجوم المسلمين المعاكس<sup>وقد</sup> بدأ فعلا بامتلاك عماد الدين زنكي للموصل سنة ١١٢٧ . غير ان عام سنة ١١١٠ يشكل في الحقيقة نقطة التحول في تاريخ هذه الحروب او دور الانتكاس بالاضافة الى الفرنج والانتعاش باعتبار المسلمين ان فيه شرع هتولا في الشاسك والارتباط حتى استعادوا وحدتهم من جديد .

وكان مصدر تلك اليقظة في الجزيرة العليا من ارض ما بين النهرين حيث تبلورت فكرة الجهاد والاستشهاد في سبيل استرجاع البلاد الدامية من مغتصبها واجلائهم عنها نهائيا .

(١) محلة القندهة كما لا نوا يستوعق



ولحل الفضل في ذلك يعود الى حد بعيد لمدينة طرابلس ان صعدت  
طويلا وصبرت صبورا جميلا ولا تحجب فقد كانت من " اعظم بلاد الاسلام واكثرها تحملا  
وثروة (الكامل ج ١٠ ص ١٧٢ ) ويعود شيء من ذلك الفضل لصاحبها فخر الملك  
ابي علي بن عمارة الذي " ظهر منه صبر عظيم وشجاعة وراى سديد " ( نفسه ص ١٧٣ )  
في الدفاع عنها حتى اذا كان عام ١١٠٨ وقد شعر بما لم يعد له به احتمال  
توجه الى بغداد يستنجد بالسلطان فوعده خيرا لكنه عاد في سنة ١١٠٩  
عندما سقطت المدينة فجدد طلبه للنجدة وصدق ان استقرت امارة الموصل  
لشرف الدولة مودود سنة ٥٠١ هـ . رجل الساعة ان ذاك فاستطاع بموافقة  
اخيه السلطان محمد بن ملكشاه وتشجيعه ان يبحث في نفوس المسلمين الحمية  
الدينية ويهيب بهم الى الجهاد . وظل مدة اربع سنين لا تفر له همة عن  
القيام بما نذب نفسه له حتى توفاه الله بعد ان ترك من بعده وصية لخلفائه  
بوجود المناورة على الجهاد ، وان ما عرف عن خلفائه من عزم اكيد في الاستمرار على  
القتال قد دفع بامراء الجزيرة الفراتية لان يتابعوا عملا بداء مودود وتنى عليه  
الامير الغازي بن ارتق صاحب ماردين حتى كانت نتيجة حملاته باين سنة ١١٨ -  
١١٢٣ ان ضم الى ممتلكاته مدينة حلب وسكانها . وهكذا فان الحركة التي  
اجهزت على " دولة اللاتين " كان مبعثها من الموصل وماردين .

وكان في جيش مودود تركي آخر من فرسانهم المعدودين والمشهود لهم  
بالشجاعة وجودة الراى وحسن القيادة كما عرف فيما بعد بضبط ما ولبه ايضا بحنكة  
وكفاءة ونعنى به عماد الدين زنكي فقد ارتفع له صيت في ارض الجزيرة وظل له  
فيها قدر حتى اذا ما كانت سنة ٥٢١ هـ و ١١٢٧ م . وقد شمرت آتخذ امارة  
الموصل من سيد بدبر امرها بوفاة صاحبها ابن آفسنقر البرسقي وورثته لم يكن  
خييرا من عماد الدين لها فولاه السلطان البلاد كلها وكان لزنكي هذا في الدولة  
راى حصيد دل على مبلغ تفهمه بلامور تفهما صحيحا ان كان يقول = " ان البلاد  
كبستان عليه سباج ، فمن هو خارج السباج بهاب الدخول ، فاذا خرج منها من  
يدل على عودتها ويطمع العدو فيها زالت الهبة وتطرق الخصم اليها " . ولما

كانت بلاده " بحدق بها الاعداء " وكلهم بقصدها ويريدون اخذها واختلطت ولاياتهم بولايتهم من كل جهاتها " لم يكن ليقتنع بحفظها بل كان لا ينفصلي عليه عام حتى يفتح من بلادهم وظل يقصد هذا مرة وذاك مرة اخرى وماخذ من هذا ويصانع ذاك الى ان ملك من كل من بلبه طرفا من بلاده . ولما راي ان بلاده قد اصبحت كبلستان عليه سياج وان كل من هو خارج السياج هاب الدخول ادرك ان الوقت قد خان للانقضاض على فرسته " الرها " فاخذ بوم القوم من الفرنج انصه لا يقصدهم وانه في شغل اغل عنهم في ديار بكر حتى اذا اكد له عيونهم ان جوسلان امير الرها قد جازت عليه الحيلة واطمان حتى فارق المدينة وهدر الفرات غربا بافت القوم في ٦ جمادى الآخرة سنة ٥٣٩ هـ و ٢٣ كانون الاول سنة ١١٤٤ م . وقاتلتها ثمانية وعشرين يوما وما زال يضيق عليها الخناق حتى اخذها " عنوة وقهرا " ثم تسلم مدينة سروج وسائر ما كان من البلاد بيد الفرنج شرقي الفرات ما عدا البيرة . وبذلك يكون قد سدد ضربة من اولى الضربات التي قضت على دولة اللاتين في بلادنا .

ويرجع بعض الفضل في ذلك الفوز الى تفكك الفرنج وعدم الاتفاق بينهم اذ كان جوسلان في نزاع مع انطاكية كما كانت القدس بعيدة عن مركز القتال ومع انها ارسلت المدد فلم يصل الا بعد فوات الوقت (ستافانسون ص ١٤٩ - ١٥٠) وبهذا الفتح تم الاتصال بين حلب والجزيرة العليا كما اصبحت هذه تواجه عدوها مع اطمئنانها الى مؤخرتها وشهت حلب فوق ذلك تحديق باراضي اللاتين بعد ان كانت هي معهم في حصار دائم تقريبا (ص ١٥٣) .

اما قول بعضهم ان عماد الدين لم يكن ليهتم لامر الجهاد قدر اهتمامه لتوسيع رقعة ولايته فمردود اذ انه كان يرمى من كل غزواته وفتوحاته الى جعل ولايته " بلادا كبلستان عليه سياج . . . . " وما يثبت ما نوافق ابن الانير على تقريره ويدحض دعوى فروسيه وسواه من مؤرخي الغرب امثال ستافانسون قوله " . . . . " واما انا فاذا اخذت الثلثين كان قليلا لما انا بصدد من تصد الاعداء والجهاد

وزولواي لطال عليك ان تشرب الماء آمنا في مارددين ولكن الفرنج ملكوها " ص ١٤١ (Revue)

غيران سقوط " الرها " قد انار في اوروية موجة من الغضب مشوب  
بفزع وهلع مما اهاب ببعض رجالهم الى القيام بدعوة الى " صليبية جديدة " .  
ولكن هبهات ابن القوم اليوم منهم بالامر ، فلم يكن لدعوتهم الا القليل من الصدى  
وبالرغم من ذلك التحول فقد استطاع هؤلاء اخراج ملك فرنسة لويس السابع  
وامبراطور الجرمان كونراد الثالث .

الا ان وصولهما الى بلاد الشام كان في ربيع سنة ٥٤٣ هـ و ١١٤٨ م .  
في حين كان التفاهم بينهم معدوما كما كان الامر بين فرنج الشام ايضا . لذلك  
اخذا يتسائلان ابن بجبان نتجه حملتهما الى نور الدين بن زنكي وخليفته  
في حلب الى انرفى دمشق . ولكن القدس ما عنت ان اوقعتهما ان اقتنعتهما  
بوجوب العمل بمقد دمشق . وهكذا ظلت طرابلس وانطاكية بمعبدتين عن ضم  
جهودهما الى الحملة .

وما ان توافدت قوى الالمان والفرنسيين الى طبرية حيث اجتمعوا بفرنج  
الشام حتى اتجهوا جميعهم نحو دمشق واقاموا عليها الحصار في صاير ربيع الاول  
سنة ٥٤٣ هـ و ٢٤ تموز سنة ١١٤٨ م . فخرج اليهم اهل المدينة والعسكر  
فقاتلوهم وصبروا لهم في معركة البئر على نحو نصف فرسخ من دمشق فقوى الفرنج  
وضعف المسلمون . عندها تقدم الامير الامبراطور حتى نزل في العبدان الاخضر  
فخشى الناس ان يملك المدينة غيران معين الدين كان قد ارسل الى سيف  
الدين غازي بن زنكي يدعوه الى نصرة المسلمين وكف العدو عنهم فما كان من  
هذا الا ان قدم الى الشام مستشعرا معه اخاه نور الدين محمودا من حلب  
فنزلوا في حمص وارسل الى معين الدين يخبره بحضوره مع كل من يقوى على  
حمل السلاح من بلاده ويطلب اليه ان يسهل لنوابه دخول المدينة حتى اذا  
انهزم دخلها هو وعسكره واجتمعوا بها وقد أكد له انه ليس له في ذلك اي  
مطمح اقليمي . ثم ارسل الى الفرنج يتهددهم ان لم يرحلوا عن المدينة فلم يطل بهم  
الامر حتى كفوا عن القتال خوفا من الهزيمة اولا ومن ان يضطروا الى قتال سيف الدين  
ثانيا . فابقوا على انفسهم وقوى بذلك اهل دمشق على حفظها واستراحوا من متابعة  
القتال غيران معين الدين آنر لم يكن لبضع الفرصة فقام بدوره بفاوض الفرنج الغرباء

بخوفهم بسيف الدين وعلمهم بحضوره لنجدته وانه ان لم يرحلوا عن دمشق  
اضطر هو الى تسليمها اليه وحينئذ يندمون ولات ساعة مندم . ثم ارسل السبي  
فرنج الشام بعدهم ويتوعددهم ان هم استمروا في مساعدة هؤلاء ويقول لهم " انكم  
لتعلمون انهم ان ملكوا دمشق اخذوا ما بابدبكم من البلاد الساحلية وانه ان شعر هو  
باى عجز عن حفظها سلمها الى سيف الدين وعندئذ لا يبقى لهم معه مقام فى الشام"  
فاجابوه الى النخلي عن الاوروبيين واجتمعوا الى الامبراطور والملك وخوفوهما من  
سيف الدين وكثرة عساكره مع تتابع الامداد اليه وازيها ربما ملك دمشق وضعفوا هم  
عن مقاومته وما زالوا بهما حتى رحلا بساكرهم عن المدينة فتسلموا هم قلعة بانيناس  
من أنر كما كان وعدهم وارتدوا من حيث اتوا (الكامل ج ١١ ص ٥٨-٥٩)

وهكذا انكسفت النعمة عن الدمشقيين ونجت مدنهم من خطر تهديدها  
مدة من الزمن وكاد الحظ يخونها فكان فى ذلك فوز كبير للبلاد واهلها ان انهم اى  
المسلمين تقروا وضعف مركز الفرنج لا سيما بعد ان تعلم الاوروبيون وجوب نزع ثقتهم  
من الفرنج المقيمين وعدم المبالاة بهم واذنا ذكرنا ان الفوز لم يكن فوزا عسكريا بقدر ما  
ما كان فوزا سياسيا ادركنا ان اوروبية لم بعد نرى - ولو الى حين - ان تمد يد المساعدة  
لهم . وبهذا اصبح المسلمون وليس لهم من خصم سوى فرنج الشام وقد ظهر ذلك  
حالا فلا جنود حضرت ولا مساعدات مالية وصلت بل ولا حجاج وفدت واصبحت الحرب مع  
نور الدين دون ان يلقى القوم نجدة ما من الخارج .

ولئن كانت ضربة زلزال في الرها موجعة فان " لعبة " معبن الدين  
فى دمشق لم تكن اقل انرا طيبا من هذه الوجهة . ومن نتائجها انها فتحت المجال  
امام نور الدين لان يهاجم انطاكية ويتفرغ بعدها الى انعام الفتح فى مقاطعة الرها ويجلب  
القوم عنها . ففتح كل ما وقع منها فى الغرب كتل بائرسنة ٥٤٥ هـ . و ١١٥٠ م . كما انه  
كان قد هزم ريموند سيد انطاكية وقتله سنة ٥٤٤ هـ . و ١١٤٩ م . بعد ان تسلّم  
عدة مدن فى شرق امارته . اما بخدوين الثالث ملك القدس فقد حاول ان يستفيد من  
تلك الحال فسعى الى التقرب تارة من دمشق واخرى من القسطنطينية وبالفعل فقد ساد  
حسن التفاهم بين القدس والقسطنطينية طوال عهدى بخدوين واخيه امرى بفضل ما

تبادل البيهتان من الفساق عن طريق الزواج الامر الذي جعل الفرنج يصمدون في وجه نور الدين . الا ان النزاع الداخلي بين افراد الاسرة المالكة من الفرنج ظل سائدا بينما كان المسلمون يشددون الخناق تدريجيا عليهم من الشمال والجنوب اذ ان نور الدين كان يسعى - شان من سبقه من ابطال المسلمين - الى الاحاطة ببلاد الافرنج ووضعها بين راسي الكعاسة . وبالفعل فقد سقطت دمشق سنة ٥٤٩ هـ و ١١٥٤ م . في يديه وانضمت بذلك الى بقية البلاد وخسرت عندها مملكة القدس اكبر صديق لها كما فتحت الطريق الى مصر .

الا ان بلدوين كان قد سبق له ان انتزع من الفاطميين عسقلان سنة ٥٤٨ هـ و ١١٥٣ م . بعد ان صمدت في وجه الافرنج خمسين سنة وهكذا توهم انه قد اصبح الطريق مفتوحا امامه الى القاهرة .

اما الحالة الداخلية في مصر فكانت من الفلق والاضطراب بحيث طمع بها كل من دمشق والقدس اذ ما كاد طلائع بن رزيق وزير العاضد فيها يقضى نحبه في ايلول سنة ٥٥٧ هـ و ١١٦١ م . حتى خلفه ابنه الملك العادل وارسل بعزل شاور امير الصعيد بالرغم من كفايته ومكانته فما كان من هذا الا ان زحف على القاهرة فانهمز الملك العادل منها ونبت شاور مكانه في صفر سنة ٥٦٢ هـ و ١١٦٦ م . غير ان طامعا جديدا باسم خرقام جمع جموعا ونازه شاور الامر فانهمز منه الى الشام حيث التجا الى نور الدين في دمشق في ربيع الاول سنة ٥٥٩ هـ و ١١٦٣ م . وطلب اليه ان يجهزه بالعاكر ليسترجع منصبه على ان يكون له ثلث دخل مصر عدا ارزاق العساكر ويبقى له نائب يقيم بجنوده في مصر . فانتدب نور الدين لذلك اسد الدين شيركوه منجهز وسار ومعه ثلثون في جمادى الاولى سنة ٥٥٩ هـ و ١١٦٣ م . بينما اتجه نور الدين الى اطراف بلاد الفرنج مما بلى دمشق بحساكره منعا للقوم من التعرض لاسد الدين وحملته .

ولما وصل اسد الدين الى مدينة بلبس من ارض مصر انهمز امامه ناصر الدين اخو خرقام فنقدم الى القاهرة ودخلها ظافرا فخلع على شاور <sup>الذي</sup> واعيد الى الوزارة واقام اسد الدين بظاهر القاهرة غير ان شاور غدر به ونكث عهده وارسل اليه بامر بالعودة الى الشام فامتنع وطالبه بتنفيذ ما كان استقر بينهما من شروط فلم يجبه شاور الى ذلك

عندها امر نوابه تسلم مدينة بلييس والقبرض على ائمة الامور في البلاد الشرقية فارسل  
شاور الى الفرنج يستمددهم ويخوفهم من نور الدين ان ملك مصر فكان لهم في ذلك  
ما لم يحتسبوه وسار امرى الى تلبية الدعوة .

وكان قد وصل آنثذ الى الساحل الشامى جمع غفير من نصارى الفرنج  
لزيارة القدس لاستناب بهم الفرنج الساحلية فاعانوهم وتوجه بعضهم معهم واقام الآخرون  
في البلاد لحفظها . فلما قارب القوم مصر تصد اسد الدين شيركوه ببلييس فاقام بها هو  
وعسكره وجعلها له ظهرا يتحصن به فاجتمعت العساكر المصرية والفرنج ونازلوه ببلييس  
وحصروه بها ثلاثة اشهر وهو ممتنع بها <sup>بها</sup> فاجتهدوا في القتال وبراوحهم فلم يبلغوا منه وطرا .  
وفيما هم كذلك اتاهم الخبر بهزيمة الفرنج على حارم وتملك نور الدين لها وصبره الى  
بانباس فاسقط في ايديهم فراسلوا اسد الدين بالصلح وطلبوا اليه مفارقة مصر وتسليم  
ما بيده منها الى المصريين فاجابهم الى ذلك انه لم يكن قد علم بقهر نور الدين  
للفرنج في الشام واستيلائه على حارم فضلا عن ان الاقوات والذخائر قلت لديه  
فخرج في ذي الحجة سنة ٥٥٣ هـ و ١١٦٣ م . وعادوا هم الى الشام ليدركوا بانباس  
فلم يصلوا الا وقد ملكها نور الدين وعاد منها الى دمشق .

غير ان اسد الدين ظل بعد رجوعه الى الشام يتحدث عن مصر  
ونفسه تستحقه اليها فاقنع نور الدين براه فجهزه في سنة ٥٦٢ هـ و ١١٦٧ م .  
بجيد قوى وسير معه جماعة من الامراء ، بينهم ابن اخيه صلاح الدين بلخت عدتهم الفى  
فارس . فلما اجتمع العسكر سار الى مصر برا فوصلها وعبر النيل الى الحانق الغربي  
ونزل بالجيزة مقابل القاهرة وتصرف في البلاد الغربية وحكم عليها واقام ثبثا وخمسين يوما .  
اما شاور فلما بلغه دخول اسد الدين الى مصر ارسل الى الفرنج  
يستنجدهم فوافوه على " الصعب والذلول " طمعا في ملكها وخوفا عليها من اسد الدين .  
غير ان هذا عاجلهم وهزمهم مع المصريين وتقدم بدها الى نجر الاسكندرية فتسلمها  
بمساعدة من اهلها واستناب بها صلاح الدين وعاد هذا الى الصعيد . ولكن المصريين  
والفرنج عادوا فاجتمعوا على القاهرة واصلحوا حال عسكرهم وساروا الى الاسكندرية فحاصروا  
صلاح الدين بها غير ان اهلها سبوا حتى عاد اسد الدين من الصعيد اليهم فما علم

القوم به حتى خافوا وارسلوا يطلبون الصلح فاجابهم اليه وشرط على الفرنج ان لا يقيموا بالبلاد ولا يملكوا فيها قرية واحدة فاذعنوا واصطلحوا وعادوا الى الشام وتسلم المصريون الاسكندرية في نصف شوال ورحل مبركوه الى دمشق في الثامن عشر من ذي القعدة . غير ان الفرنج كان قد استقر بينهم وبين المصريين ان يكون لهم مرسنة في القاهرة وتكون ابوابها بيد فرسانهم ليمتنع نور الدين من انفاذ عسكر اليهم ويكون لهم من دخل مصر كل سنة مائة الف دينار . هذا كله استقر مع شاور اما العاضد فلم يكن له معه حكم واد الفرنج الى بلادهم في الساحل الشامي وتركوا بمصر جماعة من مشاهير فرسانهم .

وفي ربيع سنة ٥٦٤ هـ و ١١٦٨ م . زاد طمع من كان منهم في مصر فراوا ان ليس في البلاد من يردهم عنها فارسلوا الى اميرى ، ملكهم في القدس يستدعونه لملكها وقد هونوا عليه امرها وحملوه على السير اليهم . فلما سمع نور الدين بالخبر شره هو ايضا بجمع عساكره وامرهم بالقدوم عليه فجدد الفرنج في السير الى مصر حتى قدموها ونازلوا بلبس وملكوا قهرا بمسئله صفر سنة ٥٦٣ هـ و ١١٦٨ م . ثم ساروا منها الى القاهرة وحصروها فخاف الناس منهم ان يفعلوا بهم ما فعلوه باهل بلبس فحملهم ذلك على الامتناع فحفظوا البلد وقاتلوا دونه وبذلوا جهدهم في ضيقه حتى ضاق بهم الامر وارسل الخليفة العاضد الى نور الدين يستغيث . فامر اسد الدين ان يسرع الى القاهرة فوصلها في ٧ جمادى الآخرة سنة ٥٦٤ هـ و ١١٦٩ م . فوجد الفرنج وقد رحلوا عنها الى بلادهم خائبين مما املوه فاجتمع بالعاضد لدين الله فخلع عليه وفرج به اهل مصر . غير ان اسد الدين لم يطل به الامر حتى توفاه الله في ٢٢ من جمادى الآخرة سنة ٥٦٤ هـ و ١١٦٩ فكانت ولايته شهرين وخمسة ايام فارسل العاضد الى صلاح الدين وخلع عليه وولاه الوزارة بعد عمه وتثبت قدمه وهونائب عن نور الدين فاستمال قلوب الناس وبذل الاموال فمالوا اليه واحبوه وضعف امر العاضد ثم ارسل يطلب من نور الدين ان يرسل اليه اخوته واهله ففعل وشرط عليهم طاعته والقيام بامره ومساعدته فاخذ اقطاعات الامراء المصريين فاعطاها اهله وامراءه الذين معه وزادهم فزادوا له حبا وطاعة غير ان هذه السياسة منه قد استفزت

المصريين وراحوا بفاوضون الفرنج باستعدادهم للقيام بثورة بمساعدتهم غير ان صلاح الدين علم بامر وقضى على الفكرة في مهدها واهمل امر العاضد حتى اصبح وليس له من الامر شيء .

هذا وان الفرنج لما ايقنوا بالهلاك لدى تملك شيركوه مصر راحوا يستنفزون

حمية الروم عليهم يتعاونون معا على انتزاعها من الاتراك فلبى هو لا ا ندا هم وجهزوا اسطولا من مائتي سفينة ووابتعدوا للنزول على دمياط فارسل صلاح الدين العساكر في النهل وكتب الى نور الدين بالامر فسير هذا بدوره الجموع كما توجه هو ايضا الى ديار الفرنج فلغار عليها واستباحها ووصلت الغارات الى ما لم تكن تبلغه من قبل لخلو البلاد من مانع يمنحها فلما ايقن الفرنج انهم اصبحوا بين نارين رجعوا خائبين كما وجدوا بلادهم خرابا واهلها بين قتيل واسير وكانت مدة مقامهم على دمياط خمسين يوما اظهر فيها صلاح الدين من حسن القيادة والدرابة ما سحله له التاريخ بالحمد والتناء كما اخرج العاضد من المال ما لا يعد ولا يحصى . وراح الفرنج والروم يتلاومون فاضطر امرى بعدها الى الاكتفاء بالحفاظة على ما تبقى له من بلاده في السلام وثبتت قدم صلاح الدين في مصر فقام عندها بعمل على تاسيس ملك ببقى في اعقابها من بعده ولعل هذا ما شغله عن مجاهدة الفرنج بالسرعة المتوقعة وتحت امره سيده نور الدين . اما العاضد فابقى صلاح الدين له لقبه الاسمي لمدة سنتين اخرتبه ان لم يجد من الحكمة خلعه

توا لثلا يشرعليه الراي العام الد بنى والقوى في مصر بل اثران تفعل الابام فعلها . غير ان نور الدين خرج اخيرا عن صمته وامر بقطع الخطابة للعاضد وباقامتها للعباسي في بغداد ( المستضي ) ولما تردد صلاح الدين في استجابة الامرال عليه \* والزمه الزاما لا فسحة له في مخالفته \* ان كان على الحقيقة نائبا له وانفق ان مرض العاضد وابتد عليه الالم فاقدم عنده صلاح الدين وحل العقدة فقطع الخطبة في اول جمعة من المحرم سنة ٥٦٧ هـ . او ايلول سنة ١١٧١ م . \* ولم يمتطح فيها عنزان \* ثم كتب فليس بذلك الى سائر البلاد المصرية ففعلوا ثم ما لبث العاضد ان توفاه الله في ١٠ محرم فلبى صلاح الدين للعزاة واستولى على مصر الخلافة وعلى جميع ما فيه من كنوز وتحف .

عندئذ لم يبق امام صلاح الدين لتحقيق حلمه سوى سيده الاسمي

نور الدين غير انه هنا ايضا فضل التريث والاناة على العجلة والندامة وترك الاقدار



نحل المشكلة الباقية كما حلت غيرها من المشاكل السابقة وراح يتجنب حتى الاجتماع مع نور الدين كما فعل عندما سمع نور الدين بخزونه لحصن الشوبك فوون ان يكون له بها علم ورغب في الاجتماع به فوجد صلاح الدين الى مصر عائدا من الشوبك وكتب يعتذر بالقتال البلاد غير ان نور الدين لم يقبل منه وتخبر عليه وعزم على قصد مصر واخراجه منها . الا ان القضاء جاء بفصل بين السيد ونائبه بالموت اذ توفي الله نور الدين في شمال سنة ٥٦٩ وتوز سنة ١١٧٤ م . في دمشق عن ٥٦ سنة قضى اكثرها فيما قتال الفرنج . فخلفه في دمشق ابنه صالح اما عبل وله من العمر ١١ سنة فاطلعه الفارس في الشام وصلاح الدين في مصر وخطب له فيها وخرّب السكة باسمه غير ان الملك الصبي ما لبث ان لعبت به الا هواء فنقلته الى حلب فكان في ذلك لصلاح الدين فرصة ان سار الى دمشق في ٥٧٠ هـ . ١١٧٤ م فملكها كما ملك بعدها حمص وحماة ومن ثم اتجه الى حلب وحاصرها وفيها الملك الصالح ولما ضيق عليها الخناق استجد خصومه بالاسماعيليه وبصاحب طرابلس ريموند الثالث الوصي على عرش القدس ( اذ كان في نفس الوقت من وفاة نور الدين قد مات ملكها امري ايضا وخلفه ابن له حنظير السن مجزوم ) . فما ان علم السلطان بعزم الفرنج على السير نحو حلب حتى رحل عنها فارتدوا هم ايضا وتسلم في طريق بحلبك \* وصار اكثر بلاد الشام بيده \* غير ان العداوة بينه وبين رجال الملك صالح استمرت عدة سنين اخرى استولى خلال تلك على قلعة بحرين وبزافة ومنبج واعزاز وحاول ان ياخذ حلب فحجز عنها وتم الصلح بينه وبينهم فارتد عنها وقصد بلاد الاسماعيليه فذهب بلدهم مصاف واخره واحرقه وما زال بهم حتى طلبوا الصلح فاجابهم اليه ورحل عنهم في سنة ٥٧٢ هـ . ١١٧٦ م . ثم التفت الى مدن الشمال كأمد وهبتاب وما زال ينتقل بين الشمال والجنوب فيقاتل الفرنج تارة ويضم من مدن الشمال تبعضا تارة اخرى حتى كانت سنة ٥٧٩ هـ و ١١٨٣ م . فسار من عنتاب الى حلب ونزل عليها في الحرم وكان صاحبها عماد الدين زنكي بن مودود بن زنكي فاستقر بينهما ما الصلح وتسلم صلاح الدين حلب وعوضه عنها بسنجار ونصيبين والخابور والرقه وسروج واقام السلطان فيها الى ان هفوفرة من تقرير قواعدها ودبونها واقطع اعمالها وبذلك قد تم له ان يجمع بين وادي النيل وبلاد الشام وجعل الفرنج بذلك بين فكي الاسد

فلم يجد السلطان الان بدا من قتال الفرنج لكثرة تعددهم على قوافل المسلمين في طريقها بين القاهرة ودمشق ولعل أقطع ما أثار مغيبته البرنسر ارناط صاحب الكرك وكان من اعظم الفرنج واخبثهم وائدهم عداوة للمسلمين ان لم يكنف بسلب القوافل التجارية واعتزاز الحجاج في طريقهم الى مكة والمدبنة - رغم ما كان بين الفرنج والسلطان من مهادنة - حتى قام في ١١٨٢ - ١١٨٣ م بعمل لغزو الحجاز بحراً الامر الذي اخرج صلاح الدين عن حلمه وجعل بندره ان يقتله ان ظفريه ، فراح عندها يستنفر الناس للجهاد ويحثهم عليه ويبعث الى بلاد المشرق ومصر وسائر بلاد الشام يدعوهم الى الجهاد وامرهم بالتجهز له ثم خرج من دمشق في اواخر المحرم من سنة ٥٨٣ هـ . و ١١٨٢ م . في عساكرها وسار الى رأم الملك في حوران حيث تلاحقت به العساكر الشامية ، فلما اجتمعوا جعل عليهم ولده الملك الافضل عليا وسار هو الى بصرى ليمنع البرنسر ارناط من طلب الحجاج ، ولجعله يلزم بلده خوفا عليه فلما سمع ارناط يقرب صلاح الدين من بلده لم يقاومه وانقطع عما طمع فيه ، فوصل الحجاج بالمين . عندها سار السلطان الى الكرك وبث سراياه من هناك على ولاية الكرك والشوبك وغيرها فنهبوا وخربوا واحرقوا والبرنسر محصور في وكوه لا يقدر على الدفاع عن بلده وكذلك فعل سائر الفرنج فلزموا طرة بلادهم خوفا من العسكر الذي كان مع ولده الملك الافضل (الكامل ج ١١ ص ٢٢٩) .

وفيما كان صلاح الدين حيث رابناه كان ابنه الافضل قد ارسل من رجاله من بتعدى للفرنج في صفورية فخرج اليهم الفرنج في جمع من الدلوية والاصينارية وغيرها فالتقوا هناك وجرت بينهم حرب " شابت لها المفارق السود " فانهم الفرنج وقتل منهم جماعة واسر الباقون .

ولما اتت صلاح الدين البشائر بذلك انصرف المبين على الاستتارية والدلوية عاد عن الكرك وقد تلاحقت به سائر الامراء والعساكر واجتمع بهم وساروا حتى نزلوا بالاقحوانة قرب طبرية . عندئذ اتفقت كلمة الفرنج بحد فرقتهم وجمعوا فارسهم ورجالهم وساروا ٢٠٠٠٠٠ من عكا الى صفورية فتقدم المسلمون حتى خلفوا طبرية وراهم ظهورهم وصعدوا جبلها ، ولما جنهم الليل قاتلوا المدينة ونقبوا بعض ابراجها واخذوها عنوة .

فلما علم الفرنج بالخبر اجتمعوا للمشورة وبعد اخذ ورد قرابهم على قتال المسلمين ،  
وكان صلاح الدين قد عاد من طبرية الى عسكره ونزلوا على الماء والزمان قبض  
شديد الحرقاجهد العطش الفرنج ولم يتمكنوا من الوصول الى ذلك الماء اذ كانوا  
قد استهلكوا ما هناك من ماء الصحاريح ولم يستطيعوا الرجوع خوفا من المسلمين  
فبقوا على حالهم الى الغد وهو يوم السبت في ٤ تموز سنة ١١٨٧ م وقد اخذ العطش  
منهم ماخذه فركب المسلمون في الصباح وتقدموا الى الفرنج فاقتتل الفريقان قتالا شديدا  
حتى انهزم الفرنج وكان بعض المتطوعة قد القى في تلك الارض نارا وكان الحشيش كثيرا  
فاحترق وكانت الريح شديدة فحملت النار والدخان اليهم فاجتمع عليهم العطش وحر  
الزمان وحر النار والدخان وحر القتال وحسبوا انهم لا ينجيهم من الموت الا الاقدام  
فحملوا حملات متدركة باءت جميعها بالفشل لوهنوا لذلك وهنا عظيما . عندها اخاطبهم  
المسلمون احاطة السوار بالمعصم فارتفع من بقي منهم الى تل بناحية حطين وارادوا  
ان ينصبوا خيامهم ويحموا نفوسهم فاندت القتال عليهم من سائر الجهات ومنعهم مما  
ارادوا ولم يتمكنوا من ان ينصبوا غير خيمة الملك . فلما صار الملك على التل في مقدار  
مائة وخمسين فارسا من الفرسان المشهورين حملوا حملة صادقة على من بازائهم من  
المسلمين غير ان هؤلاء صمدوا ثم كروا عليهم فالتقوا خيمة الملك واسروه من بكرة  
ايهم ، وبينهم الملك واخوه البرنس ارناط وصاحب جيبا وابن هنفري ، ومقدم الداوية  
وجماعة من الاستنارية والداوية ايضا . وما اصيب الفرنج منذ خرجوا الى الساحل  
سنة ٩١ هـ و ١٠٩٧ م . الى الان يمثل هذه الواقعة (في ٤ تموز سنة ١١٨٧ يوم  
السبت ٥ ربيع الاول سنة ٥٨٣ هـ ) التي فاقت بالمها ما تركته فيهم بمعركة الرها  
على يد عماد الدين زنكي ل ٤٣ سنة خلت ، كما انها ذكرتهم بارتدادهم عن دمشق في  
معركة المزة ايلم كوهنراد الثالث ولويس السابع وتاكيد لديهم انهم لا بقاء لهم في الشام  
بعدها .

ولما فرغ المسلمون منهم نزل صلاح الدين في خيمته <sup>واحض اليه</sup> ملك  
الفرنج - وصعد البرنس ارناط - وقد اهلكه العطش فسقاه ماء منلوجا فشرب واعطى  
فضله ارناط فشرب ايضا فقال صلاح الدين - ان هذا الملعون لم يشرب الماء باذني

فبنال امانى " ثم كلم البرنسر وقرعه بذنوبه وعدد عليه عوراته ثم قام اليه بنفسه  
فضرب عنقه وقال = " لقد كنت نذرت دفعتين ان اقتله ان ظفرت به " فلما قتله  
وسحب واخرج ارتعدت فرائص الملك فسكن السلطان جائسه وامنه واما القمص صاحب  
طرابلس ، فانه كان قد انهزم في وسط المعركة وبجا ورحل الى صور ثم قصد طرابلس  
ولم يلبث الا اباما قلائل حتى " مات غيبا وحنقا لما جرى على الفرنج ٠٨ (الكامل  
ج ١١ ص ٢٤١ - ٢٤٣) .

لقد كان للضربة النجلاء التي سددها صلاح الدين الى قلب  
" الدولة اللاتينية " سهل حطين في ٥ ربيع الاول سنة ٥٨٣ من الانار والنتائج  
ما جعلها غرة في جبين التاريخ ومن آثارهم انها مزقتهم شرمزق وقلبت معنوياتهم  
راسا على عقب حتى تركتهم لا يلوون على شئ ولا يدرون ما يفعلون فاخذوا بشارهون  
الى ملاحظتهم تساره الحيوانات الى اوكارها وقد احست بهزة ارضية او بتخبير فجائى  
فى العوامل الطبيعية .

ومع هذا كله فلم تفارة صلاح الدين الرافة ولا الرحمة بل راح فى  
نصره وفوزه بكنوعلى فقبرهم وحن على ضعيفهم وبنو منهم على ارواحهم فيسمح لهم  
بالرحيل الى حيث شاءوا ، فلم يجدوا من ذلك المصاب مهريا ولا منه ملجا غير  
التجمع فى مدينة صور ، علمهم باستعادتهم وعيهم بقدرهم على التفكير فى الامر  
فيئند يرون مصيرهم قبل ان يوهمهم صلاح الدين برجاله ويقنهم عن بكرة ابيهم  
بعد ان امنهم وهو فى نشوة النصر وطمانتهم وهم فى غمرة الهزيمة .

هذا ما كان من اثر ذلك فى نفوس القوم اما ما كان من النتائج  
الطيبة التى جناها المسلمون = ان السلطان لم يدع خمرة الفوز تلعب فى اعصابه  
ولا فرصة النصر ترفى تفكيره بل راح من وقته يفكر ويعمل على مطاردة القوم فى  
كل مدينة وبلد وكل قلعة وحصن حتى لا يدع لهم فرصة الهدوء او اللجوء الى التفكير

بأمرهم فما ان فرغ من امر حطين حتى توزع هو واخوه الملك العادل وبقية الامراء العمل فراحوا جميعهم يتلقفون فلول الفرنج وساجمون مدنهم ويحاصرون قلاعهم في الشمال والجنوب والوسط حتى جنوا ما استطاعوا ان يجنوه من الثمار الشهيبة بعد ذلك الظفر المبين = ففتح العادل على حدود مصر مجددا بابا ومدبنة بافا كما تسلم صلاح الدين مدينتي طبرية وعكا ودخل امراؤه بعساكرهم الناصرة وقبسارية وحبفا وصفورية والقلعة وغيرها من المدن والحصون والقلاع في البلاد المجاورة كتبنين وصيدا وجبيل وبيروت ثم ملكوا نابلس وسبسطيه حتى لم يبق امام صلاح الدين اهم من عسقلان والقدس لاسباب عديدة منها = انهما على طريق الى مصر يقطع بينهما وبين الشام وكان فوق ذلك يريد ان تنصل الولايات ليسهل خروج المعسكر منها ودخولهم اليها ثم لما في فتح البيت المقدس من الذكر الحمل والصبب العظيم الى غير ذلك من الاغراض " فسار عن بيروت نحو عسقلان " عروس الشام " التي صدت القرنج عنها خمسين سنة وصدت في وجههم سبعة اشهر في سنة ١١٥٣ فاجتمع الى اخيه الملك العادل والى من معه من عساكر مصر ونازلوها يوم الاحد في سادس عشر جمادى الآخرة سنة ٥٨٣ هـ و ٢٩ تشرين الاول سنة ١١٨٧ م . وكان سبق للسلطان ان احضر من دمشق ملك الفرنج ومقدم الداوية وقال لهما = " ان سلمتما البلاد الى فلكما الامان " غير انه اخطر الى قتال المدينة ونصب المنجنيقات عليها وضرب الحصار حولها لمدة ١٤ يوما فلما راوا انهم كل يوم يزدادون ضعفا ووهنا راسلوه في تسليم البلد على شروط اقترحوها فاجابهم اليها وسلموا المدينة سلخ جمادى الآخرة سنة ٥٨٣ هـ و ٤ ايلول سنة ١١٨٧ .

وبعد ان فرغ من امر عسقلان وما جاورها من البلاد امتال الرملة والزروم وغزة والخليل وبيت لحم وبيت جبريل والنطرون وكل ما كان للداوية في اطراف البلاد المجاورة امر باسطول مصران بخروج ويقطع الطريق على الفرنج ثم سار هو الى البيت المقدس فنزل عليه في ١٥ رجب سنة ٥٨٣ هـ و ٢٠ ايلول سنة ١١٨٧ واقام الحصار عليه وما زال يضيق عليه الخناق حتى دخله المسلمون يوم الجمعة السابع والعشرين من رجب و ٢ تشرين الاول . وكان يوما مشهودا وقد اظهر فيه صلاح الدين

من الاربحية والشهامة ومن الرفافة والانسانية ما سجله له التاريخ بالفخر والاعجاب .  
وانا لنكتفى بالاشارة اليه والتنويه به هنا لتتوسع في ذلك بمكانه . واذاما ذكرنا  
انه لم يكن بين سقوط القدس ومعركة حطين سوى اربعة اشهر وتذكرنا ما تم خلالها  
من فتح ونصر ادركنا ان صلاح الدين لم يترك دقيقة دون ان يستفيد منها في مجاهدة  
الفرنج ومصابرتهم والعمل على استرجاع البلاد والتخلص منهم .

وها هو وقد فرغ من امر القدس يبادرها في ٢٥ شعبان فاصدا  
الى صور وقد تفرغ لها بعد ان كان توقف عن فتحها قبلا لحصانتها وامتناعها . لكنه  
وجد انه قد اخطا فقد جاءها بحرا بعد فتح عكا وغيرها من المدن الساحلية بقليل ،  
المركيس "كونراد صاحب مونفرا" للزيارة والتجارة فدخلها وقد اصبح فيها خلق كثير  
ممن قصدوا من فلول الفرنج ومثرت بهم بعد معركة حطين ، وقد ظلوا وليس لهم راس يجمعهم  
ولا قائد يقاتل بهم ، وفيما هم يفكرون في مراسلة صلاح الدين وتسليم البلد اليه ،  
اتاهم المركيس ، وهم على ذلك الحزم ، فردهم عنه وقوى نفوسهم وضمن لهم حفظ المدينة  
وبدل ما معه من الاموال وشرط عليهم ان تكون المدينة واعمالها له دون سواء فاجابوه  
الى ذلك واقام عندهم ودبر احوالهم " وكان حسن التدبير " شجاعا فشرع في تحصينها  
بتجديده حفر خنادقها وعمل اسوارها حتى زاد في حصانتها .

تلك كانت حالة صور واهلها لما وصل اليها صلاح الدين في ٢٢  
رمضان من السنة نفسها واثاء مقاتلتها في البر ولكنه وجد ذلك قليل الجدوى لضيق  
المجال بين المدينة والبر فرحل عنها وقد ادرك انه باهماله لها من قبل قد جعلها  
تقوى عليه الان لا سيما وقد تعب هو وامل اصحابه القتال وفتيت معهم النفقات واصبح  
الثناء على الابواب فاذن العساكر جميعها بالعودة الى اوطانهم والاستراحة والرجوع  
اليه في الربيع المقبل .

ولم تكن صور وحدها هي التي اقلقت السلطان بل كان هناك ايضا  
قلاع كوكب وصفد والكرك ، اذ كانت البلاد الساحلية من عكا حتى جبيل قد اصبحت جميعها  
في قبضة يده ما عدا هذه الحصون وكان يود لو لم يبق في الداخل ما يشغل قلبه ويقسم  
همه ويحتاج الي حفظه ، لثلا يقع منها ضرر على الرعايا والمجتازين لها منهم فلم يربدا

وقد امتنعت عليه قلعة كوكب من الذهب الى دمشق بعد ان ترك عليها من يقيم محاصرتها حتى ولى الشتاء ببرده ووصله وهاد الربيع بصحوه ونواره فاخذت العساكر تنوافد عليه حتى اجتمعت وكثرت عنده فتوجه الى الشمال ونزل تحت حصن الاكراد وجعل يغير منه حتى فتح صافينا والعرصة وحمور وغيرها من البلاد والولايات ووصل الى قرب طرابلس لابصر البلاد وتعرف الى مسالكها ثم عاد الى معسكره سالما وقد غنم العسكر من الدواب على اختلاف انواعها ما لا حد له واقام تحت حصن الاكراد الى آخر الربيع سنة ٥٨٤ هـ و ١١٨٨ م ثم اتجه شمالا وراح ينتقل من فتح الى آخر حتى دخل جبلة واللاذقية وصهيون وملك حصون بطن وس والشفرودربساك وغيرها وكلها من املك صاحب انطاكية . فلما سمع هذا بكل ذلك خافه واشفق منه فارسل يطلب الهدنة وبذل اطلاق كل اسير عنده من المسلمين فاجابه السلطان الى ذلك واصطلحوا ثمانية اشهر اولها تشرين الاول و آخرها آخر ايار سنة ١١٨٩ م و ٥٨٥ هـ وكان صاحب انطاكية في هذا الوقت اعظم الفرنج ثمانا واكثرهم ملكا فانه كان تسلم طرابلس بعد موت القمص عن غير ولد بخلفه فيها .

وهاد صلاح الدين الان الى حلب حيث فرق السكر الشرقية وسار هو منها الى دمشق ودخلها في اول رمضان فاشير عليه بتفريق العساكر فقال = " ان العمر قصير والاحل غير مامون ، وقد بقي بيد الفرنج هذه الحصون = كوكب وصفد والكرك وغيرها . ولا بد من الفراء منها فانها وسط بلاد الاسلام ولا يؤمن شر اهلها وان اغفلناهم ندمنا فيما بعد " .

وهذا برهان على شدة قلق السلطان من جهة وعلى عزمه ان لا يقع فيما وقع فيه مع صور من قبل فراح بتلفت الى الجنوب وكان قد جعل على الكرك - اثناء غيابه في الشمال - عسكرا يحصروه ، فلازموا الحارثي لم يبق للصير عند الفرنج مجال فراسلوا الملك المادل فتسلم منهم القلعة وامنهم وملك ايضا ما بغاربه من الحصون كالشويك والدعبرة والسليخ ، فاطمان الى ذلك صلاح الدين كما امن قلوب من في ذلك الصقع من البلاد كالقدس وغيرها ، فقام عندئذ السلطان بغادر دمشق

الى قلعتي صفد وكوكب وملكهما عنوة فاجتمع المسلمون بفتحهما من حد ايلة الى اقصى اعمال بيروت لا يفصل بينه غير مدينة صور وجميع اعمال انطاكية .

عندها راح صلاح الدين بتفقد المدن وتحصناتها فزار القدس

وعقد فيها عبد الاضحى ثم سار منها الى عكا فاقام فيها حتى انسلخت السنة ٥٨٤ هـ ولما حلت سنة ٥٨٥ هـ وشاء اتمام ما كان بدا به من فتح ما بقي من الحصون

والفلاح عوطرد الفرنج سار في ربيع الاول سنة ٥٨٥ هـ و ٥ مابوسنة ١١٩٩ من عكا الى

شقيف ارنون لبحصره فنزل في مرج عيون حيث جاءه ارناط صاحب صيدا فدخل اليه

واحتج به واظهر له الطاعة والمودة وطلب اليه ان يمهله لبسامة الشقيف حتى يكون

قد احضر اولاده من صور لثلاث بنالهم من صاحبها اذى ، فخدع صلاح الدين واجابه الى

ما سأل فاستقر الامر بينهما على ان يتسلم صلاح الدين الشقيف في جمادى الآخرة

من السنة وظان ينتظر في مرج عيون وهو على قلق لامرين هما (١) قرب انقضاء مدة

الهدنة بينه وبين بوهمند صاحب انطاكية فما كان منه الا ان ارسل من يكون مقابلها

لثلاث بغير صاحبها على بلاد الاسلام عند انقضاء الهدنة (٢) لما بلغه عن اجتماع

الفرنج بمدينة صور وما يتصا بهم من الامداد في البحر وان ملك الفرنج "عفي اللوزيناني"

الذي كان قد اسره السلطان واطلق سراحه بعد فتح عسقلان قد اصطلح هو والمركب

بعد اختلاف كان بينهما وانهم اجتمعوا في خلق كثير وخرجوا من مدينة صور الى

ظاهرها . فكان هذا واشباهه مما بزعه ويخاف من ترك الشقيف وراء ظهره

والتقدم الى صور وبها الجموع المتوافرة فتقطع الجبهة عنه . واخبرا عندما كلم صلاح

الدين ارناط ادرك مكره وخداعه فاخذه وحبسه ، وفي اتنا هلك جاته الاخبار

بمخروج الفرنج من صور لحصار صيد غير ان عساكره اعجزوهم عن الوصول اليها فعادوا

الى مكانهم . ولكن صلاح الدين ادرك انه قد اصبح عليه ان يتخذ خطة الدفاع

كما وانه بعد ان كانت المبادرة في يده كل تلك المدة واذ ا بها تنتقل الى العدو .

وكان صلاح الدين - وهو في عسقلان - قد احضر من دمشق الملك

عفي "واطلقه بعد تسليم عسقلان ، كما راينا واخذ عليه عهدا بانه يخادر البلاد

ولكنه ما لبث ان ينقض على عفي في صيف سنة ١١٨٩ م و ٥٨٥ هـ ويشرع بالزحف

على عكا رغبة منه في استرجاع ما كان الفرنج قد فقدوه بعد هزيمة حطين . وما



البت كونراد صاحب صوران وفد ايضا بعساكره ، كما انضمت اليهم جموع الوافدين من اوربنة .

وكان ذلك في ٥ شعبان سنة ٥٨٥ هـ و ١١٨٩ م واستمر الحصار على اشد ما يكون بين الفريقين // من قتال حتى استنفد كل منهم ما لديه من جهد وفن وذخائر وآلات حصار في البر والبحر ما لم تشهد مثله في جميع ادوار هذه " الحروب الصليبية " واستمرت الحال على هذا المنوال حتى كان ربيع سنة ٥٨٧ هـ و ١١٩١ م حين وصلت امداد الفرنج من البحر الى من كان منهم على عكا وكان اول من وصل الملك فيليب اوعست في ١٢ ربيع الاول سنة ٥٨٧ هـ و ٢٠ نيسان سنة ١١٩١ فقويت بذلك نفوس القوم والحواف في قتال المسلمين ثم وصل ملك الانكلتار (الانكليز) .

وكان فيمن خرج من ملوك الفرنج في هذه الحملة ملك الالمان فسار رجاله وارينه على القسطنطينية حتى <sup>عبروا</sup> غلبوها وصار على ارض بلاد الاسلام فاهلكهم البرد والحوار والتركان ، ولما قاربوا مدينة تونس تزودوا وساروا حتى اتوا بلاد الارمن فامدهم ملكهم بالاقوات والعلوفات ثم اتجهوا نحو انطاكية وكان في طريقهم نهر فنزلوا عنده ودخل ملكهم اليه ليقتل ففرق فيهم . فصار ولده ملكا بعده غير انه اختلف عليه اصحابه وما كاد يسير بهم حتى وقع فيهم الوباء والموت وما ان وصلوا الى انطاكية حتى نسيم بهم صاحبها فساروا حتى طرابلس ولم يبق منهم الا القليل فركبوا البحر الى عكا ولما راوا ما نالهم في الطريق من جهد ونصب عادوا الى بلادهم وكان هذا آخر العهد بهم (الكامل ج ١٢ ص ٢٣ - ٢٤)

ثم وصل ملك الانكلتار (الانكليز) في جمادى الاولى سنة ٥٨٧ هـ و ٨ حزيران سنة ١١٩١ وكان قد استولى في طريقه على جزيرة قبرص واخذها من الروم غدرا ولما فرغ منها سار الى عكا فوصل اليها في ٢٥ قطعة كبار مملوءة رجالا واموالا فحطم به امل الفرنج واشتدت نكايتهم بالمسلمين وضائق به ولاء الحبل فارسلوا الى صلاح الدين يعرفونه - اللهم فلم يقدر لهم على نفع فعزموا على تسليم البلد يوم الجمعة في ١٧ جمادى الآخرة و ١٢ تموز على الشروط الآتية (١) بذل مائتي الف دينار وخمسمائة اسير من المعروفين ~~مليونين~~ (٢) اعادة الصليب . (٣) دفع ١٢ الف دينار للمركب صاحب صور فقبل الفرنج ان يودوا الفهم مقابل ذلك (١) خروج من في البلد باموالهم وانفسهم

على ان ينفذ صلاح الدين تلك الشروط . فاجابوه الى ذلك وحلفوا له عليه وان يكون مدة تحصيل المال والاسرى الى شهرين فلما حلفوا له سلم البلد اليهم ودخلوه سلما . فلما ملكوه غدروا واحتاطوا على من فيه من المسلمين وعلى اموالهم وحبسهم واظمروا انهم انما يفعلون ذلك رغبة منهم في ان يبروا شروط الصلح في حيز التنفيذ وراسلوا صلاح الدين في ارسال المال والاسرى والصلب حتى يطلقوا من عندهم فشرع في جمع المال فلما اجتمع عنده من مائة الف دينار راسلهم طالبا اليهم ان يحلفوا اليه على اطلاق الاسرى وان يضمن الداوية ذلك " لانهم اهل دين يرون الدفء " فكان جواب الداوية انهم لا يحلفون ولا يضمنون لانهم يخافون غدر من عندهم وقال ملوكهم = " اذا سلمتم البنا المال والاسرى والصلب فلنا الخيار فبمن عندنا فحينئذ علم صلاح الدين عزمهم على الغدر فلم يرسل اليهم شيئا واعاد الرسالة اليهم وقال " نحن نسلم اليكم هذا المال والاسرى والصلب ونعطىكم رهنا على الباقى وتطلقون اصطبنا وتضمن الداوية الرهن ويحلفون على الوفاء لهم فقالوا = " لا نحلف انما نرسل البنا المائة الف دينار التي حصلت والاسرى والصلب ونحن نطلق اصطبكم من نريد ونترك من نريد حتى يجيى باقى المال فعلم الناس حينئذ غدرهم فلم يجبههم السلطان الى ذلك .

فلما كان يوم الثلاثاء في ٢٧ رجب سنة ٥٨٢ هـ و ٢٠ آب سنة ١١٩١ ركب الفرنج وخرجوا الى ظاهرا البلد بالفارس والراجل وركب المسلمون اليهم وقصدوهم وحمالوا اليهم فانكفوا عن مواقعهم واذا اكثر من كان عندهم من المسلمين قتلى قد وضخوا فيهم السيف واستبقوا الامراء والمقدمين ومن كان له مال وقتلوا من نواهم من سوادهم واصطبل بهم ومن لا مال له فلما راي صلاح الدين ذلك تصرف في المال الذي كان جمعه واعاد الاسرى و والصلب الى دمشق .

وعلى كل حال فليس امتلاك الفرنج لعكا بالشىء العظيم ان انهم قضوا

في ذلك سنتين من الزمن وكان الاجدر بهم ان يبذلوا ما بذلوه من مال وجهد ورجال في مقاتلة صلاح الدين نفسه وكسر شوكته ان ربما كانوا قد استنطعوا ان يحصدوا شوكة المسلمين وان يستردوا ما خسروه بعد معركة حطين وهكذا يكون الفرنج قد رحوا مدينة واحدة وابقوا على قوة صلاح الدين كاملة هذا فضلا عن ان جيش الفرنج كان مؤلفا من جنسبات عديدة

كان معها الحسد والنزاع والفرقة اغلب عليهم من الاتحاد والتعاون الوثيق . وقد كان وجود  
فيليب ورشار في نفس المعسكر كقبلا بوقوع مثل ذلك ان كان كل منهما قد حمل معه  
حقده على الآخر وكان تفاخر كل منهما على الآخر يكتفي لابقاع الشقاق والفرقة بينهما  
وبين قواها هذا ولم يكن كونراد وفي يجيز منهما ان كان الاخران ينافس كل منهما  
صاحبه وبعد حصارها بقليل وقع بينهما الخلاف على تاج القدس ان كونراد تزوج  
بابزابيل ابنة زوج سيسيل في اواخر سنة ١١٩٠ م . وبذلك يكون قد نال الحق الشرعي  
في عرش القدس لان سيسيل كانت الان قد توفيت فقام فيليب بساكنه في دعواه فما كان  
من في الا ان تمنى على رشار ان يدعمه هو ايضا في قضيته ولعل هذا ما كان  
رشار ينتظره . وهكذا تشابكت منافسة فيليب لرشار مع منازعة كونراد لغى واخذوا  
بشغلون بهذا وذلك مما كان من فيليب الا ان استعد للرجوع الى فرنسا فاجبر من عكا  
في اليوم الاخير من تموز سنة ١١٩١ م مدعيا ان السبب لذلك حالته الصحية ولعل  
الحقيقة ان لم ترقه الطل في فلسطين ان مصالح <sup>فلسطين</sup> اقتضت وجوده هناك .  
على كل حال فقد <sup>وصفه</sup> الانكليز بذلك بالفرد والخبانة للقبضة الكبرى . غير ان  
مذاكرته لفلسطين لم تحسن الطل فيها ان بقيت اكثرية الصليبيين من الفرنسيين  
بقيادة امير برغانديه وظلت القيادة العامة لرشار وان كانت سلطته قد حد منها  
كثيرا ان لم يترك معه في مدارجه احد من كانوا يساندون كونراد الذي بقى في  
صور بترقب الفرس ليزيد في رقعة املاكه وما لبث ان دخل في مفاوضات مع صلاح الدين .  
(الشاف) واصبح الممول/الآن في تحسين عمالة الفرنج في البلاد خاصة  
وحالة الحملة الثالثة عامة ، على كم ببرهن رشار في حملاته من سياسة وحسن قيادة  
ان لم ببرهن انه فهم مقدار اهمية القضاء على قوة صلاح الدين واكتفى بالعمل على استرجاع  
القدس غير <sup>انهم</sup> تردده في العمل ايضا قد زاد في سوء الطل حتى كان سفره الى  
انكلتره نالته الاسافى . نا

ولما فرغ الفرنج من اصلاح امر عكا برزوا منها في ٢٨ رجب و ٢٥ آب  
وساروا مستهبل شعبان نحو حيفا فنزلوها ثم منها الى قيسارية فارسوف فباقا فنزلوها  
ولم يكن فيها احد من المسلمين فملكوها ولما هزم المسلمون بارسون سار صلاح الدين

الى الرملة وامر بتخريب عسقلان فخرت في ١٩ شعبان والقبت حجارتها في البحر وهلك فيها من الاموال والذخائر التي للسلطان والرعية ما لا يفع تحت حصره وفي اثرها حتى لا يبقى للفرنج في قصدها مطمع ولما سمع القوم بتخريبها اقاموا مكانهم ولم يسبروا اليها .

هذا ما كان من امر ريشار بعد اخذهم عكا اما المركيس كونراد صاحب صور فلما رأى ما رأى من من ملك الانكليز وغدره به عاد الى صور ولما سمع بتخريب عسقلان ارسل الى ريشار ينحى عليه باللائمة ويقره قائلاً = " لو كنت مكانك لا يرتك كيف اسرع الى المدينة فاحتلها عنوة قبل ان ادع للسلطان فرصة ليفعل بها ما فعل "

وعندما فرغ صلاح الدين من عسقلان رجع الى الرملة فغرب حننها ومنها دخل القدس وبعد ان تفقدها واطمان الى حالها توجه الى النطرون في الثالث عشر من رمضان والرابع من تشرين الاول فراسله جينيث ملك " انكلتار " يطلب المهادنة اذ لم يعد يجد من اى الفرنج ملازمته في حروبه المشؤومة . فثلث الرسل تنرد الى الملك العادل اخى صلاح الدين حتى استقرت القاعدة = (١) ان ريشار يزوج اخته من العادل (٢) ويكون القدس وما يابدى المسلمين من بلاد الساحل للعادل (٣) وتكون عكا وما بيد الفرنج من البلاد لا تحت ملك " انكلتار " مضافا الى مملكة كانت لها داخل البحر قد ورثتها من زوجها (٤) وان رضى الداوية بما يقع الاتفاق عليه . فعرض العادل ذلك على صلاح الدين فاجابهم اليه . لكن رجال الدين كانوا الحائل دون تلك الامنية التي لو تمت لكان للتاريخ شأن غير هذا الشأن ولكن . . . . .

وهكذا لم يتم الصلح وراح ريشار يهجم صلاح الدين بعزمه على قسد القدس وظل بما ظل ويتردد حتى كان الشتاء وحالت الاحوال والامطار بينهما . وكان ريشار اراد ان يبرر عجزه عن مهاجمة القدس فطلب الى من كان معه من الفرنج " الداميين " ان يصوروا له مدينة القدس ولما فعلوا ذلك قال = " هذه مدينة لا يمكن حصرها الا طالما صلاح الدين حى وكلمة المسلمين مجتمعة " فلما قال لهم ذلك علموا رايه وراوا قلة المبرة عندهم فاضاروا عليه بالعودة الى الرملة فعادوا خائبين خاسرين . ولما حجز الفرنج عن القدس رحلوا في المحرم سنة ٥٨٨ هـ و ١١٩٢ م الى عسقلان ودخلوها ثم شرعوا في عمارتها لكن صلاح الدين لم يدعهم بذوقون طعم

الراحة بل ظل بواصا ارسال سراياه فتارة تواقع طائفة منهم وتارة تقطع العبرة عنهم دون ان يكون له فيها مطمع .

وفي خلال ذلك راسل صلاح الدين مقدم الاسماعيلية وهو سنان بوجوب العمل بواسطة رجاله على قتل المركب صاحب صور فكان ذلك في ١٣ ربيع الآخر سنة ٥٨٨ هـ و ١٢ ايلول سنة ١١٩٢ م ونسب الفرنج قتله الى تدبير من ريشار لينفرد بملك الساحل الدامي . اما الملك "غني" فكان قد اتى من ريشار جزيرة قبرص وذهب لبنتسليها . فقام على حكم الفرنج فكان المركب المذتال الكونت هنري ابن اخت ريشار وزوج ايزابيلا ارملة المركب وعا حتى سنة ٥٩٤ هـ و ١١٩٧ م .

في تلك الاثناء عزم ريشار على مغادرة البلاد ان رأى اجتماع عساكر المسلمين وعجزه هو عن مفارقة ساحل البحر ، وقد طالبت غيبته عن بلاده فراح يرسل السلطان في الصلح فتردد السلطان بالاجابة خوفا من ان يكون ريشار انما يفعل ذلك خديعة ومكرا وارسل بطلب من المصافح والحرب فاعاد الفرنجى رسله مرة بعد مرة الى الملك العادل في تقرير الصلح فاجاب صلاح الدين حينئذ مضطرا الى الصلح فحضر رسا الفرنج وعقدوا الهدنة لمدة ثلاث سنوات وثمانية اشهر ٢١ شعبان ٥٨٨ هـ و ١١ ايلول سنة ١١٩٢ م . وتحالفوا على هذه القاعدة = (١) تبقى البلاد الساحلية للفرنج والداخلية للمسلمين (٢) تبقى القدس في الهيي المسلمين ويسمح للحجاج الفرنج بدخولها مع بقاء كنيسة القيامة في حوزتهم . (٣) اما عسقلان فتخرب ولا تكون لاي من الفريقين وبذلك انتهت الحملة الثالثة بالفشل الذريع ان كان جيشها بدون قيادة موحدة فضلا عن الخلافات التي كانت مستحكمة بين الزعماء من الفرنج الواقدين منهم والمتبلدين بينما كان المسلمون على الضد من ذلك موحدين القيادة بزعامة رجل الساعة صلاح الدين هذا مع وحدة في الهدف ورغبة اكيدة في العمل لتخليص البلاد .

اما صلاح الدين فسار عندئذ الى القدس وتنفذ شؤونه وتحصناته ثم توجه الى دمشق وجعل طريقه على الشور الاسلامية كنايبر وطبرية وصفد وتنين وبيروت وتعهده هذه كلها وامر باحكامها وفيما كان ببيروت اتاه بوهند صاحب انطاكية واعمالها واجتمع به وخدمه فخلع عليه صلاح الدين وعاد الى بلده ورجل صلاح الدين الى دمشق بدخلها بن الاربعاء في ٢٥ شوال وكان دخولها اليها يوما مشهودا وفرح

الناس فرحا عظيما لطول غيبته ولذهاب العدو .

وفي هذه السنة ٥٨٩ هـ في صفر توفي صلاح الدين بدمشق في ٣ اذار سنة ١١٩٣ بعد حصى اصابته في ١٦ صفر حتى ٢٧ منه ٥٨٩ هـ ومرضه ٥٧ سنة .  
لقد طوى القرن الثالث عشر (١١٩١ - ١٢٩١) آخر صفحة من تاريخ الحروب الصليبية وكان السبب الاكبر في ذلك ان الامدادات التي كانت اوربية توصل بها الفرنج في بلادنا قد خفت الى حد لم يعودوا يستطيعون معه الدفاع عن انفسهم فضلا عن هجوم جديد يقومون به .

ولم يكن مرد ذلك ، في اعتقادنا ، الى ان حبيبة القوي الدينية قد خمدت اذ انها واصابها شيء من الفتور بسبب فشل " الحملة الثالثة " بل على الضد من ذلك فقد ظلت تلك الحمية تلهب قلوبهم بدليل ان البابا لم ين من دعوة الاوروبيين الى استرداد فلسطين كما ظال الامراء والملوك يعتبرون ذلك من اقدس واجباتهم ، غير ان عوامل جديدة تجمعت للحيلولة دون ما كانوا ينتفون ، فمن ذلك حملات تاربية (عرفوها بالصليبية تجموا) حملتهم الى نواحي عديدة من اوربية نفسها ومطلمممنممنم وحالت بذلك دون القصد الى ديارنا ولوت الصليبيين عنها الى المانية واسبانية وسواهما .  
ففيما كانت لحملة من اقوى الحملات (الرابعة) تعد للتوجه الى بلاد الشام في ١٢٠٢ اذ بها تحول الى القسطنطينية (١٢٠٢ - ١٢٠٤) فكان في ذلك لغت لانظار القوم الى بلاد الروم لمدة ستين سنة ونيف وتحويلهم عن اوطانهم نحو ان فرقة الفرسان التتوقون التي استت حوالي ١١٩٨ لتعمل في الشام قد صرفت جهودها في خدمة الكنيسة والامة في جرمانية نفسها .

ولم يكن مثل هذه الحملات لمحقق وحده القوم عم مد يد المعونة الى الفرنج في بلادنا بل كان هناك ايضا ما شغل البابا والامبراطور عن ازعاج المسلمين في الشام وذلك ما كانا فيه من نزاع مبيت آذانه . ولعل فردريك الثاني كان يستطيع ان يسترد ما كان انتزعه صلاح الدين لو لم يبق طوال حكمه مشغول بالدين في نزاهه مع البابا (١٢٢٠ - ١٢٥٠) وقد بلغ ذلك النزاع بين الكنيسة والامبراطورية الذروة بعد موت فردريك في حين كان الفرنج في بلادنا بائس الحاجة الى مدد اذ كانت حياتهم / أصبحت تنوقف حقا على مقدار ما كان يصلهم او يمكن ان يصلهم من المدد عن

عن طريق اوروية . اضف الى كل ذلك ان اعظم ملوك اوروية في اواخر القرن الثالث عشر  
عشر (١٢٦٢ - ١٢٨٥) ونعني به شارل انجولمك صقلية ) قد شغلته القضية القديمة  
القائمة على النزاع بين النورمان والروم من اجل املاك القسطنطينية عن كل اهتمام  
وعناية بامر الشام وقايا الفرنج فيها ، حتى انه نوى حملة صليبية منها الى مونتيس كونس  
ولم بلغت في كل حياته الى التفكير بها او بمن فيها من الفرنج .

ولم يكن ما سلفنا ذكره هو كل شيء بل ان الفرنج انفسهم في  
بلادنا لم يكونوا خيرا ممن في اوروية اذ كانت المنازعات بينهم ايضا قائمة قاعدة الى  
حد لم بعد استنجادهم باوروية ليشرك في نفوس القوم اقل اثر .

ثم ان ما كان يتصف به صلاح الدين من الحمية الدينية والرغبة  
الشديدة في جهاد القوم ، لم يكن احد من ورثته وخلفائه قد ورث شيئا منه ،  
فقد كان اخوه العادل وكذلك الكامل (ابن العادل) تسيرهما عوامل اخرى ،  
فدخلت المنازعات المحلية والمناسبات على الملك فكان ان استطاع الفرنج استرداد

بعض ما كان انتزعه منهم صلاح الدين كبيروت والقدس وطبرية وعسقلان مع ان ذلك لم يمتد بقسائم القوم  
ومعاشة نفوس العادل او ابنه الكامل او اسماعيل وابوب وذلك في السنوات (١١٩٨ - ١٢٠٤ - ١٢٢٩

١٢٤٠ - ١٢٤١) وما بلغت النظر آنقد ان الصليبيين الغربيين انفسهم لم يحرزوا  
انتصارا عظيما بذكر فضلا عن انهم لم يفتحوا بلدة واحدة عنوة واستبقوها في ايديهم .  
فحملنا (١٢١٧ - ١٢٢١) و (١٢٤٩ - ١٢٥٠) ، كانتا اكثر الحملات عددا وخطورة  
ومع ذلك فكلتاها ثلاث في مياه النيل دون ان تثبت لهم قدما فيها .

ولقد لاقى سياسة المتأخرين من الابويين السلسلة هوى في

نفس فردريك الثاني امبراطور جرمانية وملك صقلية ، فكان على وفاق تام مع الملك الكامل .  
اما السلطان ابوب ، فعلى قصر عهده في السلطنة = ١٢٤٠ - ١٢٤٩ قد شغل

ايامه في الحروب الداخلية . وظلت الحال كذلك حتى وفد الخوزاميون (١) لترك الحوارزميزيون  
واشتركوا معه في طرد الفرنج ثانية من القدس وجعلهم يفتحون اعينهم على ما قد خبا لهم  
المستقبل القريب من المفاجآت . وهكذا انقضى عهد المهادنة والتساهل معهم

وكان آخر اللابويين توران شاه بن ابوبفما ان استشهد المماليك بضعفه حتى اغتالوه وانتخبوا من بينهم من خلفه في ١٢٥٠ .

وكان لا بد لمؤسسي الاسرة الجديدة من ان ينشغلوا مؤقتا في حروب اقتضاها انقراض سلالة وقيام اخرى ، فضلا عما اعترض طريقهم من عزوة التتر وقتل الدبار الثامنة . وقد كان ركن الدين بيبرس ( ١٢٦٠ - ١٢٧٧ ) اول من تصدى بوقف زحفهم وجهاد الفرنج بعد صلاح الدين ولا عجب ان تتشابه انتصاراته بانتصارات سلفه العظيم ، فقد اكتسح بافا وارسون وقيسارية في الجنوب كما احتل حصن الاكراد وصافيتا وحصونا اخرى في مقاطعة طرابلس فضلا عن فتحه لانطاكية واكثر ملحقاتها في الشمال . ثم جاء بعده في الامة السلطان قلاوون وما لبث ، بعد هدنة مع الفرنج عمل خلالها على تقوية نفسه ان كثر على طرابلس وانتزع ما تبقى منها . وفيما كان يعد العدة للانقضاض على عكا اذا بالوفاة تحول بينه وبين مبعثه ، لكن امانيه قد حققها بعده خلفه وابنه الملك الاشرف خليل اذ ما كاد يتسلم زمام السلطنة حتى سارع الى تسديد الضربة القاضية في ١٢٩١ الى الفرنج في عكا فاخذت على اثرها المدن تسلم واحدة بعد الاخرى فكانت النهاية كبيت من الورق او خبط مسن العنكبوت . وهكذا اسدل الستار على آخر فصل من ماساة قام ودارها الخريون باسم الدين ظاهرا وباسم الاستعمار باطنا . . . . .

تلك نظرة خاطفة في تاريخ الحروب الصليبية كان لا بد منها قبل الخوض في موضوعنا الاصل وهو العلاقات الاجتماعية والثقافية بين الفرنج والعرب في الشام خلالها وما تم من تبادل بينهم في هذه النواحي وغيرها وما كان له من اثر في نهضة اوربية وتخلف الشام .



## الفصل الثاني

- ١ - المجتمع الشامي في القرن الخامس الهجري الموافق للقرن الحادي عشر الميلادي
- الحالة السياسية = السكان وكثرة اجناسهم - حالتهم الاجتماعية -
- الحالة الدينية عندهم - تسامح العرب في حكمهم - تعجيل بعض الشذوذ -
- الحالة الفكرية - الحالة الاقتصادية - الفنون الجميلة

## الفصل الثاني = ١ - المجتمع الثامن في القرن الخامس الهجري

الموافق للقرن الحادي عشر الميلادي .

-----

الحالة السليمة ان ما منبت به الخلافة في القرن الثالث الهجري من ضعف وامنها على يد مالبيكها الاتراك قد انداع الفوضى في ممتلكاتها ونشر الذعر والقلق في امصارها حتى طمع القواد والامراء في القرن الرابع من مختلف العناصر والقوميات في الاستقلال عنها وتأسيس الحكومات هنا وهناك فعدت الامبراطورية العربية كرقعة الشطرنج اجزاء والوانا .

وكان للديار الشامية من ذلك نصيب كبير ان توات عليها الدولات ،  
بقيتها قواد اترك مستبدون او زعماء عرب متالمون ، فكانت الدولتان الطولونية والاشيدية التركيتان ثم الحكومتان الحمدانية والفاطمية العربيتان ، فما كان من الروم الا ان ادلوا دلوهم وسط تلك الفوضى علمهم بفوزون ببعض الغنمة او كلها . واذا بهم ، وقد عجزوا عنها جميعها ، يتنحون حلب ويخربون قصر الامير سيف الدولة الحمداني فيها سنة ٣٥٠ هـ و ٦٦١ م ، ثم عادوا مرة اخرى وتوغلوا في كبلبيكة عام ٣٥٩ هـ ، ٩٦٩ م . فتفتحت امامهم ابواب الشام وتقدمت جيوشهم حتى انطاكية التي ظلت في ايديهم الى عام ٤٧٧ هـ .  
و ١٠٨٤ م .

ثم بعدها بقليل طمعوا ببيت المقدس فجاسوا خلال الديار حتى دخلوا دمشق ونقاصوها الجزية ، لكنهم فشلوا في الدخول الى فلسطين وقد تحدث ابن الفلانسى عن توغل القوم في البلاد حتى بلخوا السواحل حيث اقتحموا بيروت وحملوا بعض اهلها عبيدا وكذلك فعلوا بحبيل ، لكن طرابلس صمدت لهم اربعين يوما فاضطروا بعدها الى رفع الحصار .

وفيما كان سيف الدولة في كروفر مع الروم اذا بالفاطميين يزيدون طينة البلاد بلت وسهاجمونها من الجنوب كان ما حل بها لم يكن كافيا ليجهز عليها حتى اتوا برهفونها فتزداد ضعفا على ضعف وفوضى على فوضى .

ثم لما انكشف عنها الروم وتغلب الفاطميون ظهر المرديسيون فسي  
اوائل القرن الخامس الهجرى فى حلب وما زالوا فى قتال مع الفاطميين  
حتى ضعفوا وزالت امارتهم عام ٤٧٣ هـ و ١٠٨٠ م .

فى تلك الاثناء كان السلاجقة قد ثبت ملكهم فى العراق وانبسط  
نفوذهم على بلاد الروم عامة وعلى الشام خاصة سنة ٤٦٣ هـ و ١٠٧١ م .  
وليس غريبا ان يتساءل الواحد منا فيقول = " وماذا كان موقف  
الشاميين انفسهم من تلك الحال التى توى بلادهم تتخبط فيها كالكرة بين ايدى  
صغار اللاعبين وارجلهم " . فالجواب على ذلك = " ان المصائب التى نالت  
عليهم منذ سقوط الامويين وعلى البلاد كانت على ما يظهر قد اوهنت منهم  
العزائم واضعفت فيهم العزة القومية فجعلتهم يسكنون الى كل غاز ويعنون الى  
كل فاتح فيفتنون من كل ذلك موقفا سلبيا غربيا كان ما يحدث عندهم لا يعنيه  
منه شئ ولا يتاثرون منه بامر . . . . . "

الحالة الاجتماعية وحسن بنا الان ان نلقى نظرة على السكان فنحللهم الى عناصرهم  
وادبانهم لنفهم مجتمعهم فى تلك الفترة من تاريخهم .

ان اقدم من عرف التاريخ من اهل الشام يتكون من الساميين  
( ١ ) الآراميين ( ٢ ) والعبانيين ( ٣ ) العرب . اما قبل نزول هؤلاء فكانت البلاد  
مقاما لفئات لا يعرف اصلها . وكان الساميون اقوى منهم فنزلوا على بلادهم  
واستقروا فيها واخذ اولئك بالانقراض قبل الميلاد بعدة قرون . وهكذا تمت  
الغلبة للساميين وآدابهم وادبانهم ( زيدان النمدن الاسلامى ج ٥ ص ١٠ )

على ان موقع الشام الجغرافى جعلها عرضة لطامع الفاتحين من الامم  
القديمة كالمصريين والحثيين والاشوريين والفرس ، وتقاطرت شعوبهم اليها ، ولكن  
الامر لم يستقم لامة من هذه الامم فى الشام كما اسقام للسيلوقيين من خلفاء  
الاسكندر ، فتوافد اليها اليونان واقاموا فيها واختلطوا باهلها لا سيما بعد ظهور  
النصرانية وهى فى سلطة الرومان غير انه ظل العنصر اليونانى متغلبا عليها فى مواعل  
البلاد كما بقى بضعف فى الداخل تدريجيا .

ومع ذلك الاختلاط بقيت الشعوب السامية محافظة على آدابها  
ولذاتها وعاداتها وخاصة اليهود منهم في الجنوب ، واما الآراميون فسي  
الداخل فتنصروا وانفردوا بأديبهم وعاداتهم .

وعلى هذه الصورة كانت حدود الشام الغربية على الساحل  
يغلب عليها العنصر اليوناني وعلى حدودها الشرقية ما يلي البادية  
يغلب عليها العنصر اليوناني وعلى حدودها الشرقية ما يلي البادية  
يغلب عليها العنصر العربي . وكان ، منذ القرن الرابع قبل الميلاد ،  
امة عربية عرفت بالانباط ، تنزل وراء فلسطين غربا بجنوب في بقعة تمتد  
من شبه جزيرة سينا الى حوران تعرف ببلاد العربية الصخرية ولا تزال  
آثار عاصمتها سلم (البترا Petra) باقية الى الآن . وكذلك في القرن الثاني  
قبل الميلاد بسط الابطوريون وهلم جبل من العرب نفوذهم على الجهات  
الشمالية من جبل لبنان (الكورة وكسروان) وعلى الساحل ما بين طرابلس  
وبيروت وظلوا حتى الفتح الروماني ، ولسنا بناسين ايضا ملكة تدمر  
العربية باكثرية سكانها والدور الهام الذي لعبته ايان القرن الثالث  
الميلادي في تاريخ البلاد وحضارتها . وما ان طلع القرن الرابع  
الميلادي حتى كان ملوك الشام من الفساسنة في الحولان وحوران . . .  
فسكان الشام عند الفتح العربي إذا كان معظمهم من بقايا  
الآراميين الاصليين وبقايا الانباط والابطوريين والتدمريين والفساسنة  
وتدخلهم جميعهم مئات من ام اخرى غير سامية كالجراجه في جبل اللكام  
واخلاط من مولدى اليونان والرومان في الساحل ومولدى الفرس والاكرواد  
في الشمال .

على انه لا يعرف على التحقيق عدد القبائل النازحة عن  
جزيرة العرب ايان الفتح / ولكن المؤكد ان اكثرينهم لم تكن مما بقضى  
ان يكونوا الموائد الاعظم في البلاد التي نزلوها آنذاك بل كانوا  
في كل منفع حفنة صغيرة اذبه ما تكون بالخميرة في معجن العجان .

ذلك لان القبائل التي هاجرت منهم الى البلاد المغلوبة لم يكن عددها ليزيد عن نصف المليون من النفوس في الخمسين السنة الاولى وقد قدر بعضهم من نزلوا الشام بمائتين وخمسين الفا ، والشام اقرب الاقطار الى الاختلاط بحزيرة العرب ، ومع هذا فظل عدد العرب في الشام الى قلة ، ثم حدث في اثناء الفتنوح الاموية والحروب الداخلية ان انتقل بعض الطوائف والجماعات كالنظ الى الساحل في ايام معاوية والجراجمة الى الداخل ايام عبد الملك وذلك لباخذوا مكان الروم الذين نزحوا عن البلاد ان ذاك .

وهكذا في اواخر القرن الاول من الهجرة اخذت قبائل جديدة تغد على البلاد فكانوا النواة مع من سبقهم اليها في تعمير سبب البلاد واهلها ثم انشا اهل الذمة يتعلمون اللغة العربية بحك الطبيعة اذ فتح لهم العرب باب الخدمة في الدولة ولم يعض القرن الثاني الهجرى حتى غدت الاكثية الساحقة في القرنين التاليين من العرب وان لم نقل في الدم والجنس ففي اللسان والثقافة .

غير ان المرأة في تلك الاثناء كانت قد فقدت كثيرا مما نعمت به في العهود الاولى من احترام وكرامة ، يوم كانت تشارك الرجل على عادة العرب ، في نضاله ونشاطه العزة في فخاره ، اذ انزل سبق الرجل ، بعد ذلك ، الى مهاو سحيقة من الانحلال الخلقي بسبب الجوارى والقيان وما تبعهما من تخفت وامتناع ، توارت على اثر ذلك المرأة العربية عن العيان واتخذت مكانها في الموهخرة تهتم بعض الاهتمام بالآداب والعلم وتعنى بشئ غير يسير من التنسك والتصون في .

وهكذا بعد ان كانت رهبة الدين وهيبة الخلافة في عصر الراشدين تحولان دون تودي العرب في مهاوى الشهوات والمطذات جاءت دولة الامويين ، واذا بهم ينفخون في العرب روح العصبية فيبحرونهم بذلك عن مخالطة من يملون امورهم من الامم الا مخالطة الحذر المترفع .



ولعل اوضح مظاهر انحطاط المرأة العربية في العصر العباسي  
تجنى الشعراء عليها واغراؤهم الرجل بها حتى مرتت الالسنه واطمانت  
الاسماء الى مقالة السوء واثاعة الفاحشة بين النار ونتمثل هذا في  
اقوال الشعراء واذا رحنا نوازن بينها وبين ما كان يقال بها في العهد  
الحاهلي وصدرا سلام والعهد الاموي عندها ادركنا ما وصلت اليه  
المرأة من الانحطاط في نظر الرجل وفي نفسها من ذلك الا قول احدهم  
في العهد العباسي =

لا بُؤْسُنْكَ من مخدرة

قول تغلظه وان جرحا

عُسرُ النساءِ الى مياسرة

والشئ يسهل بعدما جمعا

وقول الآخر =

كان الشباب مطية الجهل

ومحسن الضحكات والهزل

والباعثي والناس قد رقدوا

حتى ازور حليلة البعل

اما في العهود السابقة فدونك ما يمثل راي الشعراء - وهم

المعبرون عن الراي العام - بالمرأة اذ ذاك =

قالت - وقلت تخرجي وصلي

حبل امرى \* بوصالكم صب

صاحب اذ ابعلى \* فقلت لها

القدرئى \* ليس من ضربى

فنتان لا ادنو لوصولهما

عريس الخليل وجارة الجنب

اما الخليل فلست غادره

والجار اوصاني به ربي

كما ان في صدر الاصلام كان الشاعر يقول -

ما ضرّ جاري اذ يجاورني

ألا يكونَ ليبنه سنراً

وكذلك كان الشاعر في الجاهلية يقول -

واغتر طرفي ان بدت لي جارني

حتى يوارى جارني ماواها .

وهكذا ما زالت حالة المرأة في تقهقر وانزلاق حتى جاء ابو العلاء في القرن

الخامس وراح يتهمها في ذمتها وامانتها ودينها وخلقتها . ولم يدع لها

لمحة من الخير ولا حجب عنها لفحة من الشر وهو الى كل ذلك لم يعد

ما بقوله فيها اهل عصره .

ولم يكف الرجل ان يقصمها عن منال العيون ويسدل دونها

الاستار حتى راح يتناول فيما اباح الدين رُوَيْبِقَةً منها وبالغ في ذلك المتأخرون

من فقهاء الحنفية . ولم يلبثوا ان تناولوا ايضا في صوتها فقالوا - لا يجوز

لها ان تلبى جهره \* . هذا فضلا عن الحيلولة بينها وبين تادية الصلاة جماعة

كل ذلك مما تناوله فقهاء القرن الخامس باسم الدين -

والدين منه براء - ورأى للفتنة وحسما للداء الويل على رابهم .

ولقد افرق الناس في حجاب المرأة حتى عيب عليهم ان يذكروا

اسمها . وبعد ان كان معاوية يتحدث عن نفسه الى مجلس خلافته فبهذا

حدته بقوله - " انا ابن هند " . وبعد ان جاء شاعر بنو امية بمدح فحل

أحسبهم عبد الملك بن مروان بقوله -

انت بن عائشة المنى فُضِّلْتُ ارومَ بنسائها

بعد كل هذا وذاك اصبح اسم المرأة يعاب ذكره وتلصق

وجوه الكناية عنه حتى لقد اراد ابو الطيب المتنبي ان يرثي خولة بنت

حمدان اخت الامير سيف الدولة فسمّاها فعلة -

كأن فعلة لم تملأ مواكبها دبار بكر ولم تخلع ولم تهيب



الحالة <sup>الدينية</sup> التي الى هذه الحالة كانت قد وصلت المرأة في المجتمع العربي ومنه  
الثامى في القرن الخامس . وكما تعددت عناصر السكان واختلفت اجناسهم  
كذلك تنوعت ادبانهم وتفرقت مذاهبهم فكانت العربية اولا و الميوسية  
والنصرانية . كما جاء الفتح العربي فاضاف اليهما الاسلام وقد كان ما لبث  
هذا ان اتخذ طريقة بينهما وهذا دين الاكثرية من السكان في القرن  
الرابع الهجرى .

ما لا شك فيه ان العهد العربي في الشام قد امتاز بروح التسامح  
التي عمت البلاد ونعمت بها جميع <sup>الدينيين</sup> <sup>الزمنيين</sup> من يهود ونصارى .  
وكان للميوسية فرقتان = اليهودية والسامرية كما كان للنصارى  
فرقهم وطوائفهم = النساطرة والبعاقبة والملكية ثم الموارنة وطالما قامت فيها  
المشاحنات والمنازعات والفتن حتى كان العهد العربي فاقتر الخلفاء الكنيسة  
الارثوذكسية وعاشت بقية الطوائف النصرانية التي حكمت عليها الكنيسة قبلا .  
واذا رحنا نقابل بين ما كانت الحال بين اهل تلك المعتقدات  
من مجادلات ومشاحنات في عهد الروم وبين ما آل اليه امرهم ابام العرب  
من تسامح ، رابنا الفرق عظيما والبون شاسعا ولا غرابة نفى ذلك فان الاسلام  
قد اقر ما سبقه من ادبان سماوية ووصى باهلها خيرا وتركت الخلافة  
لهم الحرية الدينية تامة غير منقوصة ، بشرط ان يؤدوا ما عليهم من جزية  
طفيفة مفروضة لقاها حمايتهم من العدو وقعودهم عن حمل السلاح بل انها  
تركهم ورائهم في احوالهم الشخصية وسحاكهم الدينية وراحت تستعين بهم  
في الادارة والكتابة والمالية .

اما ما قبل عن عمر بن عبد العزيز من اصداره عهدا لاهل الذبيحة  
بخرج به عن تلك الخطة الحميدة وينحرف عن سياسة اسلافه من الخلفاء  
فلا نعتقد صحته ونشجبه بشدة انه لم يذكره سوى المتأخرين من المؤرخين  
فضلا عن اضطراب في طريقة ابراده . اصف الى هذا وذاك بعده عن روح  
الرجل وصره (زيدان - التمدن ٤ ص ١١)

لكننا نفر ونعترف بسوء ما اتاه المتوكل والرئيد من قبله والحاكم من بعدهما غيران لذلك ثعلبلا برفع الشيعة فيه عن العرب عامة والاسلام خاصة . ومرد ذلك عندهم الى (١) خلق الرجل منهم خاصة او (٢) الى احوال طارئة جعلتهم يتخذون ذلك الموقف من المؤمنين .

اما المتوكل فقد كان شديد الوطاة على النصارى ولا نستغرب منه ذلك اذ لم يكن اقل وطاة على غيرهم ايضا فلقد شدد التكبر على الشيعة واهلك العلماء والكتاب . على انه لم يرتكب هذا الشطط لغير داع اليه فقد حمله على ركوبه انتصار بعض النصارى لاعداء الدولة . وذلك ان المسلمين من اهل حمص قد ونبوا بعاملهم فاعانهم النصارى عليه فكان هذا داعيا الى النعمة عليهم (ابن الاثير ج ٢ ص ٢٩)

واما ما يقال عما حدث في ايام الرئيد من التضييق عليهم (ابن الاثير ج ٦ ص ٨٢) بالرغم مما عرف عنه من اعتدال وتسامح فمرجه الى ان النصارى قد ساعدوا الروم في الغور )

وكذلك يقال في اضطهاد الحاكم الفاطمي لاهل الذمة من يهود ونصارى فانه يرجع الى خلقه الخاص وعقله المضطرب والى قيام حرب بين الروم وبينه يومئذ فتبادل الروم وللغرب تخريب المعابد هنا وهناك فكان ان امر الحاكم بهدم كنيسة القيامة بالقدس تشفيا لما كان فعله الروم من تخريب جامع كان في القسطنطينية . واذا ما ذكرنا انه قد انزل الحاكم مثل ذلك في المسلمين انفسهم علمنا مبلغ تعصبه وحمقه .

وما يشهد بتسامح بعض الخلفاء مع اهل الذمة وتركهم لهم الحرية الدينية تامة غير منقوصة ما جاء في " الحضارة الاسلامية في القرن الرابع الهجري " تأليف الاستاذ آدم فز استاذ اللغات الشرقية بجامعة بال بسوسرة وقد نقله الى العربية محمد عبد الهادي ابوزيد بكليّة الآداب الشرقية قد ذهبت الدولة الرومانية في معاداتها للمسيحيين الذين يخالفون رجالها في التفكير ابعد مما ذهب اليه الاسلام بالتحية الى اهل الذمة . فلما اعاد الامبراطور نقفور افتتاح بلاد الشام كان ما وعد به اهل الشام وامنهم به ان يحبيهم من مضايقة

في نسخة الرواية  
في نسخة الرواية  
في نسخة الرواية

كنيسة الدولة ولكنه رغم هذا الامان لم يال جهدا في مضابفة العقوبيين ،  
فاضطرتهم مثلا الى الخروج من انطاكية " ه . وقد جاء في نفس المصدر  
ص ٦٩ = " وكثيرا ما كان رجال الشرطة المسلمون يتدخلون بين الفرق  
النصرانية لمنعم من المشاجرات ، حتى عين حاكم انطاكية في القرن  
الثالث الهجري رجلا يتقاضي ثلاثين دينارا من النصارى في الشهر  
وكان مقره قرب المذبح . وعمله ان يمنع المتخاصمين من قتل بعضهم  
بعضا " ه . وما يجدر التنويه به في هذا الصدد ما جاء لنفس المؤلف  
ايضا ص ٨٧ " لا نجد المؤرخين حتى المسيحيين منهم يذكرونه الا قليلا  
من المشاغبات بين المسلمين واهل الذمة في القرن الرابع الهجري " ه .  
هذا فيما يتعلق باهل الذمة فلنر ما كانت عليه الفرق الاسلامية نفسها .

اما الفرق الاسلامية فكانت في القرن الرابع الهجري  
كما يلي = (١) السنة (٢) والشعبة <sup>والاكثر ما كان بينهما من نضال وقتال</sup>  
مرده السياسة حتى كتب للشعبة ناسير دولة الفاطميين فنبت التشيع  
الذهني رسميا . ثم كان ان انقسم القوم بالاضافة الى سوق الامانة  
في ابناء علي بن ابي طالب فكان الانبياء عشريون وكان الاسما علبون وما  
لبث هؤلاء ان تفرقوا مبعدا فكان منهم في الشام الحشاشون والنصيريون  
كما كان من الفاطمية الدرزية .

### الحالة الفكرية

بم فتح العرب الشام لم تكن اللغة العربية جديدة على  
اهلها . ولا غريبة عن اسماع ذويها اذ كان الفسافة في الجولان وحران  
كما كان التنوخيون في الشمال . هذا فضلا عن كان ينزلها من القبائل  
والبطون في ارجاء تدمر والفرات وسبنا .  
فما ان تم الفتح حتى اخذت العربية تنتشر وتبذت الرومية  
والآرامية . ولم يضر القرن الاول حتى اصبحت اللغة العامة في النظر كله  
تقريبا اللهم ما عدا بعض القرى النائية حيث ظلت الآرامية تستعمل في تخاطبها  
وطوقها الدينية .

فما ان تم الفتح حتى اخذت العربية تنتشر ونبتت الرومية والارامية  
ولم يعض القرن الاول حتى اصبحت اللغة العامة في القطر كله تقريبا اللهم  
ما عدا بعض القرى النائية حيث ظلت الارامية تستعمل في تخاطبها وطقوسها  
الدينية .

وقد علل ابن خلدون انتشار اللغة العربية بقوله = " لما كان لسان النواة  
عربيا ، اقبل الناس عليه يتعلمونه لان الناس تبع للسلطان فصار استعماله  
من طاعة العرب وصار اللسان العربي لسانهم حتى رسخ ذلك لغة في البلاد  
وصارت الالفسة الاعجمية دخيلة فيها وغريبة " (الاسلام والحضارة العربية - لكردي علي  
ج ١ ص ١٧١ )

ويرى الاستاذ العلامة فيليب حتى " ان هذا الغزو اللغوي كان اعسر  
عمليات الغزو الاخرى لدى العرب وقد يكون ذلك صحيحا بالاضافة الى  
فارس واسبانية البلاد الآرية . اما الاثلام الشام بوصفها سامية فلم تبد مقاومة في  
هذا الصدد . اما ما ظل سائرا من اللغة السريانية في بعض القرى في جبل  
لبنان مثلا - فمردء الى البعد عن مراكز السياسة من جهة والحركة الفكرية  
من جهة ثانية .

ونحسن الملاحظة في ان العربية كلغة تدوين وتاليف قد سبقت  
اللسان في التخاطب .

وقد احتفظت الشام بعد انتقالها الى بني العباس بصيغتها  
العربية واخذت اللغة تحل محل اللغتين اليونانية والارامية حتى غدت لغة  
العلم ولغة التخاطب العامة ، وعظم حظ البلاد في الادب واشتهر فيها شعراء  
كبار منهم ديك الجن الحمصي وابو تمام التحترى وتمثل الحركة الفكرية  
ابان القرن الهجري الثالث في اتساع حركة النقل من الرومية والفارسية  
والهندية الى العربية وقد قامت الشام بقسطها منها وقدمت لها نفرا من  
الناقلين نذكر منهم قسطن لوقا البعلبكي وحبير بن الحسن الاعثم الدمشقي  
وعبد المسيح بن عبدالله الناصي الحمصي فقد نقل هثولا \* كتبا لافلاطون وارسطو  
في الفلسفة ولجالينوس وابقراط في الطب كما نقلوا كتبا غيرها .

(١) مقدمة ابن خلدون ص ٣٢١ - المجلد الرابع - بيروت ١٩٧٨

اللسان السامية المحلثة في سورية ولبنان - حبيبي

اما في القرن الرابع للهجرة فمع ما شهدته البلاد من فوضى في السياسة واضطراب في الاجتماع فلم يقو لا هذا ولا ذاك على وقف النهضة الفكرية فيها فضلا عن اطفاء جذوتها بل ظلت تار الفكر مضطربة موقدة . وما ان انصف هذا القرن حتى ظهر فيه الادب في مظهر عظيم لم يسبق له عهد بمثله الا في عهد الامويين ، وبكفي ان نستشهد على ذلك بما كان يتجلى ما ماتبه في بلاط سيف الدولة الحمداني في حلب حيث قصده نوابغ الشعراء والادباء حتى قيل = " ان لم يجتمع بباب احد من الملوك ، بعد الخلفاء ، ما اجتمع بباب سيف الدولة من شيوخ الشعر وامراء النثر = " ولا عجب فالسلطان سوق بحلب اليها ما ينفق لديه " وقد كان رب القصر نفسه ادبيا شاعرا محبا لجيد الشعر مدد الاهتزاز لما يسمع منه .

هذا في الادب ، اما العلم الدينية فقد ظهر فيها نفس فسي المائة الرابعة بعد الهجرة على قول السيوطي ، غير ان العلم المادية كالطب والهندسة والفلك فقد نبغ فيها فحول وظهرت بها نجوم تذكر منهم ابا الحسن كشمكرايا الطيب العالم وعيسى الرقي المنجم (١) و ابا القاسم علي بن احمد الانطاكي وكان رياضيا مهندسا . ومن المهندسين الرياضيين المجتبي الانطاكي كما ان نبغ في الجغرافية والتاريخ محمد بن احمد بن ابي بكر البناء المعروف بالمقدسي ، صاحب كتاب " احسن التقاسيم " وكان لقبه الماروني كتاب حسن في التاريخ (٢) ومن ازدان بهم بلاط سيف الدولة وعقدوا مجالس العلم والمناظرة فيه ثم انتقل معه الى دمشق المعلم الثاني فيلسوف العرب ابو نصر محمد الفارابي

اما القرن الخامس الهجري فقد امتاز بان نشأت فيه طائفة من الرجال الذين عنوا بالفلك ، والعلم الابعى والرياضي والطب فكان ممن نشأ منهم في الديار الشامية ابو الفضل الحارثي الدمشقي المهندس الرياضي العالم بالحساب والطب ، ومحمد القيسراني الدمشقي العالم بالحساب والنجوم وعلى الصلحة والفلك وجورجر بن يوحنا البيروني العالم بالطب .

---

(١) وكان عيسى ينقل من السرانية الى العربية (٢) الخططح ٤ ص ٣٥

ولعل اعظم ما يفاخر به هذا القرن نبوغ ابي العلاء احمد بن  
سليمان المعري التنوخي حكيم العرب واديبهم الاكبر .

ومما يحسن التنويه به في هذا الصدد ان القاضي جلال الملك  
ابا الحسن علي بن محمد بن احمد بن عمار قد جدد في طرابلس دار العلم  
في سنة ٤٧٢ هـ . فنشرت العلوم والاداب واصبحت طرابلس بفضلها مائة علم  
ودرس ومباراة في التعلم .

ولقد استلزمت تلك النهضة الادبية العلمية جمع الكتب وتأسيس  
المكتاب حتى صار في كل جامع كبير مكتبة واخذ السلاطين وامراء بتسابقون  
في ذلك .

ولعل اول خزانة للكتب العربية في الشام قد انشئت في دمشق  
انشاها حكيم آل مروان \* خالد بن يزيد الاموي المتوفى سنة ٨٥ هـ . وان لم  
يصل الينا شيء كثير من اخبارها ، فانها كانت تحوى بعض الكتب التي نقلت  
اليه عن القبطية واليونانية ( الروية ) والسريانية في الكيمياء والنجوم والطب  
ولربما كان فيها بعض من كتب الجفرانية لانه ثبت مما قاله ابن السنيدي  
عندما زار خزانة الكتب في القاهرة في سنة ٤٥٣ هـ . انه كان فيها كرة من  
نحاس من عمل بطليموس وقد كتب عليها حملت هذه الكرة من الابير خالد  
بن يزيد بن معاوية ( العهدة في ذلك كله على الجماعة محمد كرد علي  
في حطه ج ٦ ص ١٨٩ )

وجاء القرن الثاني للهجرة والشام تفتى باعظم فاجعة سياسية  
في تاريخها وذلك بسقوط دولة بني امية وقيام بني العباس فلم يوتر عنها  
انه كان فيها خزانة كتب اذ كانت الكتب تجعل اذ ذاك في الجوامع او  
في بعض الدور الخاصة ( نقرأ المؤلف ) .

ثم ان الشام لم تعرف دار حكمة مع دار للكتب كالتي انشاها  
المامون في بغداد او دارا للعلم مع خزانة للكتب كالتي انشاها الحاكم في  
القاهرة الا في القرن الخامس عندما انشا مثلهما بنو عمار في طرابلس وكذلك  
كان في كل من كفرطاب والمعدة في زمن حكيمها خزانة للكتب وقد زارهما كما  
زار خزانة طرابلس . وهذه كانت قبل بنو عمار بمدة لابن القضاة بنو عمار

لم يستولوا على طرابلس الا بعد الاربعين واربعمئة ٤٤٠ هـ . وكان ابو العلا .  
قد زار طرابلس قبل هذا التاريخ وانتفع بخزانتها وكتبها الموفرة .

وكان ايضا في جامع حلب الخزانة كتب مهمة في زمن ابو العلا .  
الصعري وقد ظلت هذه الخزانة عامرة الى القرن السابع ولم يعلم ما اذا  
كانت الخزانة الكبرى التي انشاها في حلب الامير على سيف الدولة  
الحمداني وجمع فيها من الكتب الامهات كانت عامة للناس ايض كخزانة الصوفية  
ام كانت خاصة به بوجعته في قصره وكذا اشتهر عنه ولع بالكتب عظيم .  
وربما ذهبت هذه الخزانة وغيرها في هجمة الروم على حلب وتخريبهم قصر  
سيف الدولة .

وقد قلت عنابة الملوك بخزائن الكتب ، عندما كثرت المدارس في  
هذه الديار في القرن الخامس مكثفا بخزائن الكتب في المدارس التي  
انبتوها من حيث انها بذلك امر . ولم تكن لتخلو مدرسة من المدارس  
في الشام من خزانة كتب . وكان لحلب ودمشق والقدس وهي من حواضر  
العلم الحظ الانوفر من ذلك . غير ان طرابلس نازعتها هذه المكانة لوجود  
معامل الورق الجيد فيها ( الخططج ٦ ص ١٩٠ ١٠٠٠ ) وهذا بقودنا بطبيعة  
الحال الى درس المدارس .

لم تكن المدارس في الشام من ابتداء الحرب بل كان سبق  
لهذه البلاد ان عرفت المدارس من قبل بدليل ان المسلمون كانوا في دمشق  
بشاركون النصارى في مدرستها التي كانت تخرج رجالا في الدين والعلم والادب  
ويظهر ان المساجد ظلت للعبادة وتلقى القرآن وعلوهه والحديث  
وفنونه وعلم اللغة وتفرعاته وما يتعلق بذلك كله من المطالب التي فيها يعلم  
امرهم حتى منتصف القرن الخامس الهجري يوم انشا في دمشق رابن نظيف بن  
نما شاء الله ابو الحسين الدمشقي مدرسته المعروفة بالرشانية سنة ٤٤٢ هـ .  
وكان الحسن بن عمار قاضي طرابلس للفاطميين قد سبق له ان اسس فيها دار  
حكمة او شبه مدرسة جامعة على نحو دار الحكمة التي انشاها الحاكم في مصر  
سنة ٤٠٠ هـ . وقد غدت طرابلس في النصف الاخير من ذلك القرن بفضل دار

الحكمة ديها ، كعبة المتعلمين كما كانت حلب في القرن الرابع على عهد  
سيف الدولة كعبة المتاديين .

ويجب ان ندرك ان هذه المدارس كثيرا ما كانت لتلقى  
العلوم الدينية وما تستلزمه من فنون لسانية . اما الطب والفلك والهندسة  
فكان لها جميعها جامعات خاصة بها . وهكذا نرى ان المدارس في الشام  
لم تعرف على سورتها الحاضرة الا على يد ملوك الطوائف فيها من اترك  
واكراد وان بدأت في القرن الخامس وكثرت وتعددت في القرون التي  
تلت ودراستنا لها تتعلق في غير ما نحن بصدد الان .

الحالة الاقتصادية - ومن مميزات الشعب الشامي انه مهما نالت عليه المصائب  
وتخلفت في بلاده فوضى الادارة وارهقه حكامه بالضرائب فانه يبقى  
مالكا لا لنشاطه ، جادا في العمل ليكسب عيشا رغيدا ويحيا حياة طيبة سعيدة .  
فلعل الفضل في ذلك يرجع الى خصب اراضيه وعتدال  
مناخ بلده ، ووفرة الانهار فيه وتدفق مياه بنايحه . وقد عرفنا فيه تلك  
الحيوية وذلك النشاط منذ ابعد عصور تاريخه . عرفنا فيه الزارع النشط  
والصانع الماهر والتاجر الدائب .

ولما جاء العرب بعد الفتح وظهر ما اظهروا من حب الاستقرار  
والاخذ باسباب جاة جديدة بتوفر فيها النعيم ورغد العيش جعلوا قانونهم  
"من احيا ارضا مواتا كانت له " . واطرد ذلك عندهم ان اغتبطوا بما وجدوه  
من الخصب في هذه الربوع بالاضافة الى جذب بلادهم وبواديها المحرقة . فكان  
لذلك منهم من الانر البليخ ما انطق شاعرهم في عمر يوم فتح ابلابا (القدس) بقوله =  
والقت اليه الشام افلاذ بطنها وعيشا خصيبا ما تعد ماكله .  
وما ان تربعت امية في وسط الحكم واخذ آلهم ورجالهم يقتنون  
المزارع وبالقون في اتخاذ القروس والزروع المنمرة حتى جعلوا القرى مستغلات  
لهم وتنافسوا في ذلك حتى لا تبقى ارض شاغرة لا تستغل فانزل معاوية  
قوما من القروس في طرابلس واتخذ هشام بن عبد الملك الضياء والمزارع وهو  
اول من اشقق انهارا كثيرة عزيره منها النهر الذي فوق الرقة وغرس غرسا  
كثيرا بالحزيرة والشامات حتى بلغت غلته اكثر من خراج مملكته .



وما زالت عناية الخلفاء والوزراء ثم الملوك والامراء بتعهد الارض  
متوفرة حتى اهتزت وريت وفابعت وغلت فافتنى اهلها وانثروا . وآية ذلك  
انه بالرغم من كل ما جابه ولاية الفاطميين وعمالهم من الضرائب وما جمعوه  
من الثروات الضخمة ظل اهلها في بجموحة ورفد من العبد يبعثان في  
النفوس الدهشة والاستغراب (لائفس ج ١ ص ١٥٠-١٥٨ )

وما اشتهر عندهم من اصناف الزروع والاشجار جميع الخلات النفيسة  
كالقطن والسسم والكروم والتين والزيتون والفسق والساق والنخيل وصنوف  
الرمان وانواع التمور وقد ذكر بعضهم ان التفاح اللبناني موصوف بحسن  
اللون وطيب الرائحة ولذة الطعم (الخطط ج ٤ ص ١٦٥ )  
هذا فضلا عن الحبوب والرياحين كالاس والورد والفرج والبنفسج  
والنسرين .

وما كانت الثام تنعم به في تلك العهود من الاشجار  
غير المثمرة = السرو ، والصنوبر والارز والعرعر . ومن احراجها (١) غابة  
عسقلان (٢) غابة ارسون (٣) وحرج القنيطرة (٤) وفي اطراف حلب عدة  
غابات يقال لها الزور (٥) غابات لبنان (٦) غابات عكار وجبال النضيرية .

هذا عن الزراعة اما الصناعة فلم تكن اقل حفا من عناية

القوم بها ومهارتهم فيها وقد عرف الشاميون من احذق الناس بالصناعات  
على اختلاف انواعها وتنوع اماكنها فاخذت معظم المدن والبلدات قسطها من  
تلك الصناعات = الغزل والحباكة والنسيج فاشتهر القطر منذ القدم ببزده وقماشه  
ودباجه وخزه وبروده وهناك من الصناعات الهامة ايضا = القباية والحدادة  
والنحاسية فاشتهرت كبر من مدن الشام بصناعة القباية او عمل السلاح وذلك  
لان الحديد متوفر في حلب ولبنان وسبوف دمشق لا تزال يفاخر بها لتفنن  
الصباغة في صنعها وكذلك لسنا بناسين الزجاج وقد عدها التعاليق من خصائص  
الشام وقال انه يضرب المثل في الرقة والصفاء بزجاجها فيقال "ارق من زجاج الشام"  
وقد اشتهرت صور منذ القدم بزجاجها كما كانت معامل الزجاج في حلب وارناز  
مشهورة ، تصدر منه الى العراق وسباهى به في قصور الخلفاء ، وما اشتهرت  
بتلك الصناعة الثمينة عكا والخليل والرقة .

ومن الصاعات التي كانت تجود في دمشق وحلب من دون سائر المدن الشام صناعة القيشاني ومنه نمونج في جامع تنكز مكتوب عليه آية التوحيد (الخطاطج ٤ ص ٢٤١)

وفي ايام بني امية نقلت صناعة الورق الى الشام والغالب من البلاه اخذت فيما بعد في صنعه في دمشق وطبرية وطرابلس وحماه ومنبج وكان ينقل منه الى البلاد الاخرى كميات كبيرة من دمشق وطبرية على ما ذكر المقدسي . وكذلك من الصناعات الرفيعة كالصبغة ولعل الشام مدينة بها الى الفانحين العرب ان هادتهم الملوك في آسية وافريقية واغلب هذا باهم الجواهر الكريمة والذهب حتى امتلأت منها خزائنها فراح الخلفاء يهدون منها القواد والامراء والاطباء والعلماء والشعراء والفقهاء فكثرت في ايديهم وزادت بطبيعة الحال في ابدى الصاغة . ويمكن ان نعد في جملتها طبع الدراهم وضرب الدينار فان الشام كانت من اول الاقطار التي سكنت النقود وكان نسج الحرير من افضل صناعاتها وقد راي ناصر خسرو الجغرافي الرحالة في القرن الخامس الهجري حصرا من هذه الحصر الطبرانية تستعمل للصلاة عليها وتساوي الواحدة منها خمسة دنانير مربية ونجتزى بهذا القدر عن الصاغة لتتقدم الى التجارة .

ان لبلاد الشام من موقعها الجغرافي بين القمارات الثلاث ومن نشاط اهلها في الزراعة ومهارتهم في الصناعة لا عاملا كبيرا في اخذهم بالتجارة واسبابها والعمل على توسيعها وتنويعها . ولقد عرفوا بذلك منذ القرون الاولى في تاريخهم .

والعرب كجميع الساميين نجار بالطبع ولضعف زراعتهم اضطروا منذ القدم الى الضرب في الارض طلبا للرزق فكانوا يوغلون في الشرق والغرب بخيبة الريح والانرا .

وما ان تفتحت امام ابواب الشام وغيرها في القرن الهجري الاول حتى اتسعت الدنيا لديهم وراح الخلفاء والوزراء ثم الملوك والامراء يشقون الطرق ويستنبطون المباء على طول الطريق الى ام القرى تسهيلا لتأدية فريضة الحج ،

وينشرون الامن والراحة فيها فكان في ذلك كله افادة للتجارة اى افادة .  
ثم ما لبثوا ان ضبطوا حساباتهم بفن مسك الدفاتر وشرحوا  
الكفالة وانشاوا المصارف للفقراء وكنت تراهم حينما نزلوا مهدوا السبيل وامنوها  
وعصرو المرافىء واصبحوا الغرض وانشاوا الفنادق والرباطات ورتبوا سبيل القوافل  
فكانت طريقها من الشام الى مصر على الكرك او على غزة ورفح وكانت  
دمشق محط رجال القوافل الذاهبة الى بلاد الروم والجزيرة الفراتية فسي  
طريقها الى مصر او بلاد العرب او العائدة منها .

غير ان الشريانيين الرئيسيين للتجارة العالمية في ايام  
المقدسى كانا دجلة والفرات وكان على ضفة الاخير الغربية منهما قرصنتان  
مهمتان الرقة وبالس وسمى الاسطخرى هذه مرقا الشوام . وفي هذا برهان  
قاطع على ان التجار الشوام كانوا يتجمعون هنا عند تخوم بلادهم فسي  
القرن الرابع الهجرى ليهجروا سلحهم اما الى الشرق الاقصى عن طريق  
بحر الصين كما يسمى المقدسى الخليج الفارسي واما الى البحر المتوسط عن  
طريق حلب مركز تجارة الشمال ومنها الى انطاكية فرضت السويدية .

ولم يكتف العرب بالتجارة البرية بل راحوا يحثرون التجارة  
البحرية ايضا الشيء الكبير من غنائمهم فرقوا الصناعة البحرية ووضعوا القوانين  
لحقوق الملاحة واقتبسوا البوصلة من الصينيين وفتحوا بذلك امام بضائعهم  
آفاقا جديدة امتدت عبر البحار والمحيطات المعروفة لديهم اذ ذاك .

وقد كانت مراكب صور وطرابلس والسويدية تفلح بالتجارة الى  
سواحل خليج القسطنطينية وخليج البنادقة وبحر بنظر (الاسود) وجزائر  
قبرص ورودرس واقريطس (كرت) .

وكانت مدارات الشام كما يلى = من فلسطين: الزيت والزبيب  
والخروب والصابون والجنين والمرايا- وقدور القناديل والنيل <sup>لشمس</sup> والمبحور والحبوب  
والخرقان والعسل والكافور والهنز والارز .

ومن قدس (حمص وحماة) كانت تنقل الثياب والحبال ومن صور  
وطرابلس السكر والخرز والزجاج .

ومن دمشق الدباج ودهن البنفسج والورق والجوز ومن حلب القطن  
والثياب والمغرة ومن بعلبك الملايين .

وما ذكره ابن بطلان من اهل القرن الرابع عن عجائب حلب قوله =  
" ان في قيسارية البز عشرين دكانا للوكلاء يبيعون فيها كل يوم متاعا قدره  
الف دينار ، يستمر ذلك منذ عشرين سنة الى الان " هـ .

وكانت التجارة في القرن الخامس زاهرة جدا حتى ان جعفر بن علي  
الدمشقي قد قسم التجار الى ثلاثة اصناف وهم = الخزان والبركاهن والسجهز .

ولكي تنصروكم كانت حركة التجارة بين انطاكية وحلب قبل الحروب  
الصلبية نورد ~~لكل~~ الخبر التالي على سبيل المثال = نحن نعلم ان الروم  
في اواخر القرن العاشر للميلاد قد تغلبوا على المسلمين وانتزعوا منهم انطاكية  
وما جاورها وانهم قد احتفظوا بها حتى ١٠٨٤م ولكنهم ما ان استولوا على  
ذلك حتى ازاحوا عن حلب سيف الدولة وساعدوا مفتصيين من الرعية للقبض  
على ازمة الامور فيها . وقد حفظ لنا كمال الدين مؤرخ حلب البنود الرئيسية  
للمعاهدة التي عقدوها ~~حكام~~ حلب مع حاكم انطاكية في شهر صفر ٣٥٩ هـ .

وكانون الاول سنة ٩٦٩ - كانون الثاني ٩٧٠ ) منها = (١) لا يجوز اعاقة  
القوافل الرومية في طريقها من انطاكية الى حلب بل بحسن حمايتها حتى  
تجتاز طريقها بامان . ثم يذكرون شروطا لتحديد الرسوم الجمركية عن البضائع  
فبجهد في هذه القائمة = الذهب والفضة وحرائر الروم والحرير الخام والحجارة  
الكرمة والافمثة والكتان .

وفي سنة ١٠٨٦م كانت مراكب باري تنقل فواكه وبضائع اخرى الى انطاكية  
التي كانت قد انتقلت الى ايدى المسلمين . وفي الاربعين سنة التي سبقت

الحروب الصليبية كان بين الشام واما في علاقات تجارية (٩٦ - ٩٧ - ٩٨ - ١٠٠ Heyd<sup>v</sup>I

هذه لمحة موجزة عن اقتصاديات الشام في القرنين السابقين للحروب  
الصلبية فبتبيين منها مقدار الثروة التي كانت البلاد تنعم بها وبلغ الرقي  
الاقتصادي الذي وصلت اليه بفضل نشاط اهلهما وذكائهم . ولكن كيف انفق  
الناس تلك الثروات وفي اي وجوه العمل صرفوها ~~لافتنا~~ اعتدنا ان نرى الانسان

اذا ما ارتقى واغتنى ابتدع اجتمع حاجات بنفق في سبيلها ماله واخترع  
الوانا من الحياة بخلد فيها ذكره فما هي تلك الطرق وما هي تلك الالوان  
التي اوجدها الثاميون اذ ذاك فانفقوا في سبيلها اموالهم وخلدوا بها  
ذكرم .

لا شك ان الفنون الجميلة، من الوسائل التي اتخذها الانسان  
للتعبير عن خلجات نفسه وللترفيه عنها وادخال السرور عليها او دفع الحيرة  
والهموم عنها . فلنر ماذا كان حظ <sup>الشيء</sup> منها .

### الميلاني .

الفنون الجميلة = ان للناس في سبيل الترفيه عن انفسهم طرقا واساليب .  
يتخذونها بوقعا للهمم او جلبا للغبطة والسرور .  
وما هذه وتلك في الحقيقة سوى الفنون الجميلة او الصنائع النفيسة  
والاداب الرقيقة كما نراها بعضهم ان يسميها . فمنها ما يستعمل الالوان والاوزان  
تحقيقا لذاته وهذا ما يعرف بالموسيقى والغناء ومنها ما تكون الاشكال والالوان  
ادواته في الوصول الى غرضه وهذا هو فن التصوير او النحت او البناء ،  
ومنها اخيرا ما يتذرع بالكلام الموزون او العبارة القوية للتعبير عن خلجات نفسه  
وهذا هو الشعر والفصاحة .

ولم يشد الثاميون في مختلف عهود تاريخهم عن هذه القاعدة  
العامية وان تفاوتت فنونهم قوة وضعفا وتقليدا وخلقاً حسب الظروف التي مرت  
بهم في ادوار تاريخهم الطويل . فقد عرف عنهم منذ القرون الاولى انهم اهل  
طرب وشغف بالغناء والموسيقى ولا عجب فلمن من دقة الاحساس عندهم وجمال  
الطبيعة في بلادهم مبرر لذلك ومشجع فيه .

وما ان استقر العرب في هذه الديار بعد الفتح حتى رأيناهم  
يقبلون على ما كان عند اهلها من هذين الفنين الجميلين وبعد ان اطمان بنو  
امية في الحكم كان في حملة ما دخل عليهم في حياتهم الجديدة الغناء على  
صورة <sup>مختصة</sup> كادلا للغناء فيها ولا التبذل " حتى ان معاوية كان يستمع ويطرب ويتحرك في  
مجلسه واذا لفتوا نظره الى فعله قال = " كل كرم طروب " ثم توالى الخلفاء  
من بعده باخذون به حتى ان عمر بن عبد العزيز قد دونت له فيه صنعة  
وكذلك كان ليزيد بن عبد الملك .

وهكذا ما فتى الفن يتقدم فى الصنعة ويرتقى حتى ذكروا انه كان فى سائر الطبقات من اهل الرفاهية والسعة ممن كانوا ينشطون الى سماع الاغانى ويخلعون على الرجال والنساء من ارباب الموسيقى والغناء .  
وما يدل على مبلغ تقدم الموسيقى فى الشام ايام سيف الدولة الحمدانى ما يلى = جاء ابو النصر الفارابى الفيلسوف الى الشام على عهد سيف الدولة فادهشه ومن عنده من الموسيقيين على انقائهم لها . وقد وصل فى علم صناعة الموسيقى وعملها الى غاياتها كما صنع آلة غريبة يسمع عنها الحانا بدبعة بحرك بها الانفعالات .

وقد ذكر المؤرخون من تنافس سيف الدولة مع الوزير المهلبى للاستئثار بعغنية ادبية مشهورة ما يدل على شدة ولع القوم بالموسيقى .  
ولم ترح الشام تخرج فى فني الموسيقى والغناء رجالا ونساء كانوا بهجة عمورهم ومنعة اجبالهم . وكان من البارعين فى هذا الفن من علماء الشام قسطا بن لوقا البعلبكي وصفى الدين عبد المؤمن .

وكذلك التصوير فن جميل براد به التعبير عما تنفعل به نفس الجماعة من احساس وقد عرفه الشيخ محمد عبده بقوله = <sup>انه</sup> ضرب من الشعرى ولا يسمع .

ولما استقر الفاتحون من العرب فى الشام نهجوا فى التصوير نهج البيزنطيين والفرس واستمروا على ذلك مدة . واول ما عرف التصوير بعدئذ كان فى زمن الوليد ويخلب على الظن ان اكثرية من صوروا له ما اراد من الحيوان والنبات والشجر والمدن والاصقاع كانوا من الفرس والروم الذين دخلوا فى خدمة الدولة الجديدة . وقد عنوا فى قصير عمرة القائم على سبعين كيلومترا من قصر المشتى (المشقى) فى البلقاء على كتبر من النقود الزاهية والتماوير الحبيبة التى تاخذ بالابصار .

وبلاحظ ان العرب لم يخالفوا البيزنطيين فى التصوير الا بعدم تجسيم الحيوان .

وبعد ان ترجمت لهم كتب الفنون والضاعات عن الروم والفرس والقبط والسريان والهند منذ اول النصف الثانى من القرن الهجرى الاول شرعوا يزننون

كتبهم ببعض الصور يتخذونها لتمثيل المسائل العلمية للابصار .

واخذ القوم نفوس الفسيفساء عن الروم وابتغوا فيها ثم جودوا

عملها وكانت في الجامع الاموي قبل حريقه الاول في القرن الرابع الهجري

ملونة مذهبة تحوي صور اشجار وامصار على غاية الحسن والدقة ولطافة

الصنعة . وقل شجرا و بلد مذكور الا وقد مثل على تلك الحيطان (المقدس ص ١٠٥٧)

وكان العرب في الشام تلامذة الروم في البناء ايضا اذ كان

بين ابنتهم الاولى وابنة النصارى شبه كبير ولكن ما لبثوا ان اندأوا في القرون

التالية ابنية تدل على ذوق جميل . وكان من مبانهم ، فضلا عن القصور والجوامع

المدارس الكبرى في حلب ودمشق والقدر وغيرها . والقليل الباقي منها الى

الان شاهد على ما كان للمهندسين الشامي من حسن الذوق .

وقد رأى ناصر خسرو قبيل منتصف القرن الخامس ان البيوت في

طرابلس كانت ذات اربع طبقات او خمس واحيانا ست طبقات ، وتلك لعمرى ظاهرة

فريدة تدل على مبلغ تطور هذا الفن في الديار الشاميه وعلى الدرجة الرفيعة

التي وصل اليها علماءها من التقدم فيه .

وكان الساميون منذ ابعد عصورهم التاريخية معروفين بنبوغهم

الادبي ، ولطالما اخرجت مدارسهم القديمة في نصيبين والرها وبيروت وانطاكية

ادباء هزوا النفوس بخطبهم وقصائدهم وقد كثر سواد هذه الفئة في عهد

القريبة ولا عجب فان لطبيعة البلاد انرا بينا في الانهان والقرايح واكثر

ما يحيد الشعراء في بلد صح مناخه ، وطابت تربته وكثرت ظلاله . وهذا كله

موفور في القطر الشامي . وقد كان شعراء عرب الشام وما يقاربها اشعر من

شعراء شعرب العراق وما يجاورها في الحاهلية والاسلام . هذا ما قال به النحالي

وقد علله بقوله = " يرجع ذلك لسلامة سنتهم من الفساد العارض لغيرهم بجاورة

الفرس والنبط ، ولما جمع شعراء العصر من اهل الشام بين فصاحة البداوة وحلاوة

الحضارة ورزقوا ملوكا وامراء من آل حمدان وغيرهم ممن شغفوا بالادب وجمعوا بين

آداب السيف والقلم . . . . . انبعثت قرائحهم في الاجادة فقادوا محاسن الكلام

كأولين زمام واحسنوا وابدعوا ما شاءوا " ه .

وكان ابو بكر الخوارزمي قد دَخَّ بلاد الشام في صباه ولطالما  
قال وهو احد افراد الدهر وامراء النشر والنظم "ما فتح قلبي وشحن فمهي وصقل  
ذهني وارفف حد لساني وبلغ هذا المبلغ بي الا تلك الطوائف الشامية واللطائف  
الحليية التي علفت بحفظي وامتزجت باحزاء نفسي"<sup>(١)</sup> هـ . وكفى بهذا شامدا على  
صحة ما للشاميين من يد تذكر في فن التصوير باللسان والقلم .

تلك حال المجتمع الشامي عشية هاجمته جموع الصليبيين فلنر  
ما كانت عليهم حال مجتمعهم حتى نتبين الفرق بينهما ونستطيع الوقوف على ما  
اخذه كل منهما من الآخر .

---

(١) الخطط ج ٤ ص ١٣٨ - ١٣٩ .



## ٢ - المجتمع الغربي عشية الحروب الصليبية

اثر الامبراطورية الرومانية في نشوئه - عجز الامبراطورية عن صد القبائل عن تخومها - الحالة الفكرية - الحالة الدينية - الغزو الجرمانى - الدولة الفرنجية - النبلاء والملكية - حاجب القصر والملوك الكسالى - بيبين واتر حكمة - شارلمان والبابوية - الانقطاع والمنازعات - الايام الحرم - شارلمان والحركة الفكرية - الفروسية ومنشأها .

## ٢ - المجتمع الغربي عشية الحروب الصليبية

ليس من السهل ان نتفهم حالة المجتمع الغربي عشية الحروب الصليبية ما لم نتغلغل في اصوله البعيدة ومن ثم نتقدم في دراسته حتى تلك الفترة التي سبقت بقليل الحروب الصليبية .

ونحن مضطرون الى مراجعة تاريخ الامبراطورية الرومانية في اواخر ابامها بم اقام الجرمان ولا سيما الفرنج منهم ممالكهم على انقاضها .

ففي مطلع القرن الخامس الميلادى لم يكن فى غربى اوروبا من دولة بالمعنى الصحيح بل كانت البلاد التي تشمل اليوم انكلترة وفرنسة واسبانية واطالية تشكل آنذاك رقعة واحدة يحكمها الامبراطور وعمله وموظفوه . اما جرمانية فكانت ما تزال اقلها تغطيه الغابات وتقيم فيه قبائل جرمانية من انصاف المتوحشين . وقد حاول الرومان عبثا ان يفتحوا هذا الجزء من اوروبا فاضطروا الى الاكتفاء بان يبقوا تلك الجموع الجرمانية خارج الحدود الامبراطورية وان يصدوها عنهم بنثر القلاع والحصون ، يتيمونها على طول مجرى كل من الرين والدانوب .

وقد يتساءل البعض منا فيقول \* وكيف تعطل اذاً ضعف الحكومة الرومانية وعجزها عن صد القبائل الجرمانية عن حدودها مع تفرقهم وانعدام الوحدة في صفوفهم ، بعد تلك السطوة التي كانت لها حتى كاد بعض الناس يتوهمون انها باقية ابد الدهر . \* حقا انه من الصعوبة بمكان ان يلقى هذا السؤال جوابا شافيا . غير انه يظهر ان للام كما للافراد معدلا من العمر اذا ما بلغته كان لا بد وان تعمل عوامل الهرم في جسم الامة فتهدمه . وهذا ما حصل للحكومة الرومانية ان سكان الامبراطورية كانوا قد اخذوا يفقدون بالتدريج حيويتهم بل

والثقفة بانفسهم وبالتالي رفاهيتهم ورخاؤهم وذلك منذ القرن الثالث بعد الميلاد  
مؤ ومرد ذلك الى الاسباب التالية = (١) نظام الضرائب الجائر الذي كان  
بمنص مالبة التاجر والصانع والمزارع حتى افقدهم كل نفقة وانزل في اكثرية  
الطبقات الغنية المنتجة الدمار . (٢) انتشار الرق وكثرة الرقيق الامر الذي  
حط كثيرا من قيمة العمل مهما كان شريفا ثم هدم عند العامل معنوياته .  
(٣) التنافس في السكان الناتج عن قلة الموالب وكثرة الوفيات للاسباب التي  
ذكرناها . (٤) تسرب البرابرة الى قلب الامبراطورية وتغلغلهم في انحاءها ثم  
تصبيدهم فيما بعد الطريقة بذلك لفتح القسم الغربي منها امام اخوانهم الذين  
كانوا قد تغلفوا وراءهم .

الحالة الفكرية . تلك كانت الحالة العامة في اوروبا في القرن الخامس غير  
ان ذلك لم يكن كل ما بلغته الامبراطورية من الانحلال في القوى والتدهور  
في الثروة والضعف في الجندية بل ان تضاول انوار العلم والآداب والفنون  
قد ابعدها ما بينها آنذاك وبين ما كانت عليه في عصرها الذهبي فان النفوس  
ابام قسطنطين كانت قد فقدت كثيرا مما كان لملتها من الروعة والجلال ابام  
تراجان قبالا . ولم بعد ينبغ من كبار الشعراء وشيوخ الادب امثال شيشرون  
وتاسيت وغيرهما احد ان انحطت هذه الآداب الى درجة لم يخلوا نعد نجد  
بين القراء من يكلف نفسه عنا البحث عن عبون الكتب في الشعراء والنثر  
بل كل ما كان تصبو اليه نفسه ان يجتر بعض المنتهسات الادبية واما ما كانوا  
يسمونه "علما" فلم يكن في الحقيقة اكثر من بقايا ملخصات وتعليقات ومشروحات  
لا تسمن ولا تخفي من جوع .

الحالة الدينية = لقد كانت النصرانية منذ القرن الثاني للميلاد ، في ذلك  
العهد قد بدأت تجد طريقها الى قلوب الغربيين حتى غدت تقف وجها لوجه  
مع الوثنية عندهم وقد شبهها احدهم = " بجيشين يتقابلان في نزاع هجيت هذا  
في بادى الامر ، غير انها ما لبثتا ان اصبحتا كنهين بلتقيان / كل منهما ما  
عنده مع الآخر ."

ثم ما عتَمَّ معتنقو الدين الجديد ان اخذوا بشعرون بقيام  
كنيسة عامة شاملة (كانوليك) يقوم فيها رجال الاكليروس بجميع الامور الادارية  
المتعلقة بالعلمانيين من الشعب فكان لها في ذلك وفي موقف الاباطرة المتأخرين  
منها ما جعلها تعيش وتبقى بعد ما سقطت الامبراطورية وراحت تنوب مناب  
الحكومة فيها وتحفظ اللغة اللاتينية بين من لم يكونوا يحسنون سوى لهجة  
همجية من الجرمانية وقد حافظت ايضا على شيء قليل من الالاب التربية والتعليم  
حتى في احلك ايام العصر .

الذو الجرمانسي . وفيما كانت جموع الجرمان تسعى جهدها لاقتحام حدود  
الامبراطورية ابان القرن الخامس اذا بالهون من المغول تضاعف ضغطها على  
القوط الغربيين منهم وتدفع بهم الى داخل الامبراطورية حيث ينشرون الذعر  
في ارجاء غربي اوروبا . غير ان المصيبة ما لبثت ان وُحِدَت بين الجرمان  
والرومان وراحوا ينزلون في العدو المشترك هزيمة منكرة في سالون سنة ٤٥١ م .  
وبعد ان نوهم الناس ان شعبا جديدا سبخرج من اختلاط  
الرومان بالجرمان اذا بشيء من هذا لم يكن واذا باوروبا تغرق في ليل بهيم  
تضالك فيه انوار الفكر حتى انطقت جذوتها في القرون التالية فساد غربي  
اروپية عصر طويل من الظلام الحالك اتفق المؤرخون على تسميته "بالعصور المظلمة"  
امتد خلال قرون ثلاثة اخرى ما بين السادس والتاسع <sup>قليا</sup> برز فيه ادب واحد  
او كاتب واحد بولف حتى ولو بلغة ركيكة لا تينية تاريخا للعصر . فقد  
غدا كل شيء ان ذاك يعمل على قتل الافكار وما بقي من اساليب التربية  
والتعليم ولا عجب فان جميع مراكز الثقافة القديمة من قرطاجنة الى روميسنة  
الى الاسكندرية فميلانو كانت قد عملت فيها يد الدمار او اوقفت فيها انتاد جذوة  
ذلك الى حين . وكثيرا ما قضت جموع البرابرة على المكتبات التي كانت قد  
نقلت الى المعابد لتحفظ كما تعني <sup>ففي</sup> على شعائر الوثنية المتحمسون من النصرى  
وقد سرهم ان يوا مخلصات الوثنيين الفكرية تاكلها النار هي ودبانهم .

الدولة الفرنجية = وفيما كان غربي اوروبا يعاني تلك الازمة الاجتماعية مشثلة  
في انحلال اقتصادى سياسى ونضوب فكرى وفوضى شاملة واضطراب عام ، كان يقوم

في الحزب البريطانية حفنة من الحكام في كل من *أرلندة* و*اسكتلندة* و*انكلتره* وويلز، بل ان ابطاله نفسها لم تكن اقل تحزوا ولا اقل فوضى مع وجود البابا اقوى حاكم فيها . وكذلك كانت اسبانية قد وقعت فرسة الفتح العربي لما سادها من انقسام سياسي ومنازعات دينية . غير ان العرب ما كادوا يحنزون حبال البرانس الي غالبا حتى قابلهم الفرنج وصدوا لهم في سهل "بواتيه" وكانت تلك الهزيمة التي الحقوها بهم والتي تقهقروا على اثرها الي الجنوب ولم يتقدموا بعدئذ .

وهكذا نرى انه لم ينجح من الشعوب الجرمانية التي عبرت نخم الامبراطورية في الغرب في تأسيس ملك دائم سوى الفرنج منهم ان الدول المختلفة التي اقامها بعضهم لم تلبث ان اجتاحتها قبائل اخرى او ازاحتها الامبراطورية البيزنطية او ابتلعتها جحافل العرب، كما كانت الحال مع القوط الغربيين في اسبانية . اما الفرنج فقد كتب لهم ان يخضعوا اكثر القبائل الجرمانية الي حكمهم وان يمدوا حدود مملكتهم الي اقالم تنزلها **الخطية الصفالية**

واول ما نسمع بالفرنج مقيمين على طول مجرى الرين الامفل ما بين كولوني وجر الثعال وقد اختلفت طريقتهم في التسرب الي داخل الامبراطورية عن غيرها من طرق القبائل الجرمانية الاخرى . فبدلا من ان ينفصلوا عن جرمانية ومغرقوا في بحر الامبراطورية، كانوا يعملون على فتح ما حوالهم من الاراضي بصورة تدريجية . وكانوا على توسعهم يبقون متصلين بالقبائل الجرمانية المختلفة وراءهم فحافظوا بذلك على الروح العسكرية بينما فقدوا سواهم بفعل مؤثرات الحضارة الرومانية .

وفي مطلع القرن الخامس نراهم يحتلون ما يعرف اليوم ببلجيكة وما انبسط من الاراضي في الشرق منها . ثم ما لبثوا ان وسعوا مملكتهم بقيادة ملكهم كلوفيس (لويس) جنوبا وشرقا فوصلوا في غالبا حتى نهر اللوار وفي الشرق حتى الغابة السوداء .

ومما يحسن ذكره ان كلوفيس تنصر على اثر فوزه في الناحية  
الدرقية ودفعته حميته الدينية ان يهاجم القوط الغربيين وجعلهم ينكفثون  
الى ما وراء البرانس كما لم ينضم البرغنديين الى حكمه .

ولما قضى كلوفيس نحبه سنة ٥١١ م . في باريس عاصمة مملكته  
اقتسم اولاده الاربعة المملكة فيما بينهم وراحوا يتنازحون مدة قرن كامل  
من الزمن بيد انهم مع كل ما ارتكبوا في ذلك من فظائع وما وقعوا فيه من  
تفرق في الكلمة وظلوا بنجوة عن عدو قوى يستفيد من حالتهم فيقتحم اراضيهم  
فحفظوا بذلك وحدتهم رغم تبادلهم اقاليم عدة من المملكة .

وعلى كل فقد نجح ملوك الفرنج في مد سلطنتهم على الرقعة  
المتضمنة اليهم لفرنسة بلجيكة والنزلند وقسم كبير من جرمانية تقريبا فيكون  
بذلك قد دخل عدد كبير من الاقاليم التي لم يوفق الرومان الى فتحها في  
دائرة غربي اوروبا الناهض ان ذاك .

البيلا والمكبة = ثم انه رغم النزاع الطويل الذي امتد بين خلفاء كلوفيس  
فقد قام آخر المبروفنجيين داقوير سنة ٦٣٨ م . ووحد المملكة من جديد  
غير ان هذا لم يمنع ظهر خطر جديد يهدد وحدة مملكة الفرنج ونعني به  
تطلع النبله الاقوياء الى تسوية من الاستقلال والتحكم . وكان قوي هثولا  
من اصحاب المناصب العليا "صاحب القصر" او الوزير الاول على حد تعبيرنا  
ابن اليوم . وما يلاحظ انه بعد موت داقوير هذا غدا هثولا "الحجاب" اصحاب  
الكلمة النافذة في شؤون الدولة ان تراعى المبروفنجيون في احضان الكسل  
وراحوا يوترون اللهو واللعب على النهوض باعباء الملك حتى عرفوا "بالملوك الكسالى"  
فما لبث ازاء هذه الطلة ان امتاز "صاحب القصر" بيبين وول بضع اساس تفوق  
اسرته ولدى موته سنة ٧١٤ انتقل واجب تدعيم سلطة الاسرة الى ولده شارل  
مارتل .

وقد عانى شارل مارتيال من الصعوبات ما عاناه جميع ملوك غربي  
اوربية في سبيل تدعيم سلطته على جميع انحاء المملكة مع وجود حكام الاقاليم  
ونوابهم . وقد اقتبس الجرمان هذين من الرومان ومع ان الملك كان من

حقه ان يرفع هؤلاء الى مناصبهم او ينحسبهم عنها فقد استطاع بعضهم ان يدخلوا مناصبهم مدى الحياة مما جعلهم بطمعون الى اكثر فيقفون حجر عثرة في طريق وحدة البلاد فما كان من شارل مارنيل الا ان حاربهم واعادهم الى الهدوء وجعلهم يقدرون ضرورة خضوعهم الى الملك . ولم يكن الاساقفة من الاكليركيين اقل ازعاجا للملوك من زملائهم "النواب" البار ذكرهم من العلمانيين فكثيرا ما كان شارل مارنيل يضطر الى صرفهم من الخدمة زرافات زرافات .

وقد استطاع شارل مارنيل قبل وفاته سنة ٧٢١ ان يضمن منصبه من بعده لولدين يمين وكارلومان . فترك الاخوان "الملوك الكسالي" على عروشهم وراحا يضطلعان هما بجميع الاعباء فاستطاعا ان يخفيا صوت الشعب والمعارضة المرتفع من بيت "النواب" والاساقفة غير ان كارلومان ما لبث ان اعتزل العمل مؤثرا الرهينة على الادارة وفي يمين وحده يضطلع بشؤون الدولة . وعندما شعريبين بالقوة من نفسه راح يعمل للتخلص من "الملوك الكسالي" ويتخذ لنفسه اللقبين الاسوي والفعلو لملكية الفرنج ومع ذلك فقد كان الامر من الدقة بكان فعزم على جس نبض رئيس الكيسة قبل ان يقدم عليه فما كان من هذا الا ان اقره على مقترحه .

ولكان لهذا التدخل من البابا بامر الملكية شأنه الهام ان ان ملوك الجرمان قد كانوا حتى الان قوادا عسكريين منتخبين برفعهم الشعب بارادته او الخاصة منه الى عروشهم ولم يكن لحكمهم طابع ديني ما . اما الان فقد فسح البابا يمين على الطريقة السامية القديمة " فقد غدا الملك مسيح الله " على حد تعبير غيلن وان هذا العمل من البابا ليدل على تبادل الشعور الطيب من عاهلى الغرب سيد الدولة وراس الكنيسة . فما عزم هذا الشعور ان نما الى اتفاق هام كان له اثره البعيد في تاريخ اوروية ومن اولى مظاهره اخضاع يمين اللومباردين ثم تقديمه اراضيهم للبابا .

والخلاصة ان حكم يمين بمتاز بعدة نقاط منها = (١) تقوية مركز الملكية في دولة الفرنج وقد كانت على وشك ان تشمل اكثر اجزاء غربي اوروية . (٢) ايجاد

مملكة خاصة بالبابوية التي مع صغر رفعتها قد برهنت على انها كانت من اكثر الممالك خطورة واطولها حياة في اوربية . (٣) هذا فضلا عن صعوبات خلقها بين وابنه شارلمان من بعده . (٤) وقد صدق غبن حيث قال = تحت كنف مملكة القديس بطرس وعلى ضفتان النهر عاد العالم يستأنف جهاده وراءه بحته عن ملوك يحكمونه وشرائخ يسير حسبها ومقدرات يرتضيها لنفسه " ص ٧٦

وكان شارلمان بن بين برمي الى ضم جميع الشعوب الجرمانية في امبراطورية مسيحية واحدة وقد وفق الى حد بعيد في تحقيق هدفه . غير انه عجز دون اخضاع الساكسون لوعورة بلادهم فتصدت عندئذ الكنيسة للامر وعملت على تفصيرهم ثم تقدم شارلمان بطلب اليهم الخضوع له وللبابا وبهذا تعنت فكرة الازدواج في حكم الشعب من قبل الملك والبابا في العصور الوسطى .

ولما تعرض ملك اللومبارد مدينة رومية مقر البابا حمل شارلمان عليه بجيوشه وجعله يعترف له بالسلطة عليه ونادى شارلمان بنفسه ملكا على اللومباردين وبذلك اضاف الى مملكته ما كان بين مقاطعة ساكسونيا وبلاد اللومبارد . وما ان استتب له الامر في هذه الناحية حتى التفت الى الشرق من مملكته واخضع في سنة ٧٨٩ الصقالبة الممتدة بلادهم الى الشمال والشرق من بلاد الساكسون حيث ينزل البوهيميون .

ولعل ابرز ما اتاه شارلمان من الاعمال كان اعادته الامبراطورية الغربية سنة ٨٠٠م اذ ذهب شارلمان الى رومية ذلك العام ليقتضى في خلافه شطب بين البابا وخصومه . ولما كان حكمه قد اتى في صالح البابا شاء هذا ان يبرهن عن عظم شكره وامتنانه العاهل الفرنجي فاقام احتفالا يحيى فيه ذكرى ميلاد المسيح في كنيسة القديس بطرس وبما كان شارلمان راكعا يصلي امام المذبح اذا بالبابا يقرب منه ويضع على راسه تاجا ويحبيه بين تهليل الحضور وتصفيقهم بقوله "عاش امبراطور الرومان"

ويظهر ان شارلمان لم يكن يتوقع طول العمر لامبراطوريته موحدة لذلك نراه في سنة ٨٠٦ يقسمها بين ابنائه الثلاثة . غير ان موت كبيرهم اولاً

ثم نانبهم ثانيا جعل لوسر يفتي بعد ابيه بتولى شؤون الامبراطورية كلها .  
ولكن ما كاد يمر على حكمه عدة سنوات حتى راح يفكر في تقسيم الامبراطورية  
بين ابناءه الكثر من بعده . وهنا تضاربت المصالح بسبب المطامع الى حد  
رائنا الامبراطورية معه تنقسم الى ما يقرب من ستة اقسام بين سنتي ٨١٧ و٨٤٠  
وفي سنة ٨٤٣ عقدت معاهدة فردان وتم فيها الاتفاق على تقسيم الامبراطورية  
الى ما يعرف اليوم ، على وجه التقريب بفرنسة والمانيه وابطالية . ولم يكن هذا  
كل ما اصاب امبراطورية شارلمان من تجزؤه وتفكك بل غلقت الاختلافات تعمل  
عملها حتى طمع حكام الاقاليم بالملوك وقاموا بطالبون بالانفصال مما زاد في  
الطبن بلة .

اما اسباب ذلك التمزق فيرجع الى اسباب عديدة منها = (١) ضعف  
خلفاء شارلمان . (٢) اتساع الامبراطورية (٣) تحذر المواصلات لانعدام الطرق .  
(٤) ندرة النقود التي حالت دون ايجاد جديد دائم (٥) انقراض الغزاة من  
شماليين وصقالية وهنغارين وعرب - على الامبراطورية من جميع الجهات (١)  
هذا مع انعدام قوة مركزية تدفع المغبرين عنها مما اخطر معه حكام الاقاليم  
الى ان يهتم كل منهم بامر الدفاع عن اقليمه بنفسه يرضى الشعب الذي كان  
مستعدا لان يعترف لنائب الملك هذا بالسلطة والنفوذ . وهذا يفسر لنا ظاهرة  
قيام حكومة متعددة الرؤوس والارادات ممثلة بما انتشر فوق الري من قلاع  
وحصون دلت على تفرق الكلمة وانتشار الفوضى في الادارة القائمة . ومع ذلك  
فقد بقيت الدولة قائمة ولو بالاسم وظل الملك تتوجه الكنيسة كممثل الله على  
الارض اما الامراء العديدون - حكام الاقاليم - فنرى بهم صلة الاقطاع . وهذا  
ما سنتوجه الان لدراسته .

وهكذا فان تاريخ غربي اوروبا السياسي لمدة ثلاثة قرون انقضت  
بعد تمزق الامبراطورية كان بالحقيقة تاريخ الامراء الاقطاعيين العديدين ومع ذلك

---

(١) له نظرية تقول ان العرب هم الذين سببوا ذلك الفارق في تاريخ اوروبا بعد  
العصور القديمة والمتوسطة .



فان الملك على ضعفه قد بقي تاريخه اتم من تاريخ اتباعه الامراء  
اذ ان الملوك هم الذين نجحوا اخيرا - لا الامراء - في انشاء الحكومات  
القديمة .

ولقد راينا النزاع الطويل الذي امتد مائة سنة في سبيل مملكة  
الفرنج حتى برهنت الابام على ضعف الكارولنجيين وقام مقامهم في سنة ٩٨٧ اسرة  
هوغ كابيه وغير ان حالتهم ظلت مضطربة بين القوة والشعف والوحدة والتفرقة  
بسبب الاقطاع وامراءه وهي الدولة التي كانت ابام الحروب الصليبية .

الاقطاع - فما هو هذا الشكل الشاذ من الحكومة القائم على تملك الارض  
وارتباط التابع بالمتبوع حتى نستطيع ادراك كنه المجتمع الغربي في العهد الذي  
نحن في صدد تاريخه . اجل ان شكل الحكومة وقام ومتلك الاراضي الاقطاعيين  
بختلافان من اى شىء آخر نعرفه اليوم حتى لبتعذر علينا ادراكهما ان لم نرجع  
في درسهما الى التاريخ البعيد وكذلك يبقى قسم كبير من تاريخ اوروبا عديم المعنى  
لنا ما لم ننف على تاريخ تلك الحقبة منه .

جاء الاقطاع نتيجة طبيعية لظروف خاصة سادت غرب اوروبا في  
القرنين التاسع والعاشر على اثر ضعف امبراطورية شارلمان وسقوطها فرسنة  
للمنازعات الداخلية والغزوات الخارجية كما انه يرجع الى عوامل وعادات سادت جاء  
الرومان في اواخر عهد امبراطوريتهم وابام غزو البرابرة لها يوم عجز الملاكون الصغار  
عن القيام باستثمار اراضيهم فاضطروا الى التخلي عنها الى الملاكين الكبار  
( الاغنياء ) والجيران الاقوياء . وكذلك اضطر الملاكون الصغار في غربى اوروبا الى  
اللجوء الى رؤساء الاديرة والملاكين والملوك من الفرنج بتناولون منهم الاراضي  
فيعملون عليها مع بقائها في عهدة اصحابها الاولين ويستثمرونها لقاء خصومهم  
لاولياء نعمتهم وساداتهم . وعلى هذه الصورة خلقت الارض وملكتها تلك الرابطة  
الجديدة بين الناس وقسمتهم الى سيد وسود او تابع ومتبوع هذا وكان عند شباب  
الجرمان فضلا عن هذه العادة في تملك الاراضي عادة اخرى تقضى بانضمامهم تحت  
رابية زعيم حربى يدفعون عنه ويحميهم على اساس مبدا تبادل المنفعة والمشاركة  
في التعاون . وحينما تم انضمام العادتين معا بصورة تدرجية اصحت الاراضي

تورث للابناء فقدت القاعدة العامة في القرن العاشر لقيام العلاقة بين الناس بعضهم ببعض . ومع ان الملوك والنبلاء قد رضوا في ابطالها فقد عجزوا عن ذلك اذ الرأى العام وهدت الارض العامل الاساسى فى علاقة للناس بعضهم ببعض من الملك الى اصغر تابع ومنذ القرن التاسع حتى القرن الثالث عشر لم يكن ملوك الفرنج ولا ملوك الالمان يحكمون على اراضى يملكها رعاياهم بل كانوا كسادة اقطاعيين يستطيعون مطالبة اتباعهم بالاخلاص لهم وبعض الخدمات . وكذلك كان بحق لهؤلاء بالاضافة الى اتباعهم ايضا . وهكذا كان يسر هذا المبدأ نزلا حتى اصبح المجتمع من قمة راسه الى احصص قدميه يتألف من سادة واتباع تربط بينهم واجبات وحقوق .

اما الواجبات فكانت تختلف كثيرا وتتفاوت اهمية وخطورة اذ كان التابع يتعهد احيانا بان لا ينزل فى سيده اذى او فى ارضه ضرا بل يتعهد احيانا بان يشترك مع سيده فى غزوة كاحد المشاة وان كانت العادة لا تزيد مدة ذلك عن الاربعين يوما .

هذا وكان ينتظر منه ان يخدم فى قصر سيده لدى الطلب حيث ينضم الى امثاله من الاتباع فيدلى معهم بالرأى لسيدة فى قضايا تهمهم كما كان يتوجب عليه ان يقدم احيانا شيئا من المال او خدمة ما او ان يضيف سيده لدى مروره فى اراضيه .

ولكى بعد الانسان بين النبلاء كان من الضرورى فى المجتمع الورى انذاك ان يملك ارضا ليتاح له التمتع بتمثيل تلك الحقوق المذكورة سابقا . ثم يجب ان يكون حرا وان يملك من الواردات ما يكفيه للقيام باود نفسه وحاجات حصانه بدون ان يضطر الى العمل وكثيرا ما كان يتمتع ببعض الامتيازات التى ظلت معمولا بها حتى الثورة الفرنسية الكبرى . غير ان هذه الحقوق والواجبات لم تكن لتوضع فى حيز التنفيذ الا بالقوة ويطلق وحشية فى اغلب الاحيان اذ كثيرا ما كان الاتباع يتملصون من القيام بواجباتهم وينفضون يدهم من يمين الاخلاص للسادة النبلاء وكذلك لم يكن هؤلاء باكثر محافظة على تعهداتهم من اولئك .

وكثيرا ما كان يحدث ان ينقل احد الاتباع تعهده فى المحافظ على اخلاصه لسيدة الى تابع آخر بل كثيرا ما كان يجروا احدثهم على اعلان

انفصاله عن سبده وعدم الرضوخ له او قبوله برئاسة من تلقى قطبته (الارض) منه .

ولعل هذا ما جعل الحرب والقتال بسودان المجتمع آنذاك وبصبحان الشغل الشاغل للسادة البنلاء القلقين دائما والمضطربين ابدا . فروح القتال والمنازعات المستحكمة حلقاتها بسبب انعدام ما يضبط الحقوق والواجبات احبانا وهدنة المطامع احبانا اخرى كل ذلك ادى الى مشاحنات دامية جعلت العداوة والبغضاء تسودان الحياة . وهكذا فبنللا من ان تضمن الروابط الاقطاعية امنا وراحة يظهر انها كانت العلة الاولى فى المنازعات والمشاحنات . فكان الانباع يقتتلون ويجدون فى ذلك اكبر لذة لهم فى الحياة اذ كان القتال تفره شرائعهم كما هى الحال فى الغزو ومع الاعراب فى البوادي والغفار .

غير انه ما لبث الناس ان ملوا تلك الحياة واخذوا يتوقون منذ القرن الحادى عشر الى شئ من الامن والسلام وقد ظهرت رغم كل ذلك - بعض بوادر النهضة فى حقلى التجارة والتعليم فى بعض المدن القديمة ثم جنوبى ايطاليا وفرنسة ومهدت الطريق بذلك الى نشوء حالة جديدة وتطورات عديدة . فلم يكن الذين شغلهم امور السلم يستطيعوا الصبر طويلا على تلك الحال البغيضة من القلق والاضطراب فقاموا بئنددون بهول الموقف وفضاعته . ولعل الكنيسة كانت اول من استجاب لتلك الدعوة لذلك راينا رؤساها ينادون بجوب عقد هدنة رمانية " يمتنع بموجبها جميع اعمال القتال والنزاع خلال ايام معدودات تبدا مساء الخميس وتنتهى صباح الاثنين وكذلك يفعلون فى ايام الصوم العديدة . وقد الزمت محالس الكنيسة ومجامع الاساقفة السادة الاقطاعيين بان يقسموا الايمان المغلظة ضمانا لمحافظةهم على الهدنة اسبوعية وقد نجحوا بفضل عقاب الحرمان المخوف واستطاعوا الى حد بعيد ان يوقفوا فى مساعيهم وعندما ابتدأت الحروب الصليبية فى سنة ١٠٩٦ تدخل البابا لاجساد سلم عام بتحويل تلك الروح الحربية ضد الكفرة فى الشرق . وكان قد بدا الملك فى فرنسة وفى انكلترة على الاقل يظهر بمظهر القوى الحامل على نشر الامن كما نفهمه نحن اليوم .

ولما بحسن الاشارة اليه ان " الهدنة الرمانية " فى المجتمع الاوروبى

بذكرنا ببدا الكف عن القتال في الاشهر الحرم عند العرب في الحاهلية يوم  
كان الغزو والقتال روح المجتمع والعامل المعنى المبيد لانها في المجتمع  
الاوربي هذا .

والخلاصة فقد كان الاقطاع في غربي اوربية وضفا شادا لبعثت  
فيه عناصر الحضارة فلا قانون له حرمة ولا ادارة تسع كلمتها ولا طرق تسهل  
المواصلات ولا تهذيب بسدد النفوس الى الخير وحول بينها وبين الشر هذا مع  
ما كان عند الافراد من افكار عشيقة يجنرونها وعادات وتقاليد بالية يرددونها  
دون ما اثر تركه في نفوسهم . الم يكن الزمن زمن اضطراب ولصوصية واجرام  
وفقدان امن . بلو . ومن مجموع هذه المتناقضات تكون ذلك الوضع الشاذ  
المعروف "بالاقطاع" اذ اضطر الناس فيه الى التلفت هنا وهناك علمهم بلقون  
زعيماء يعتمدون في الدفاع عن انفسهم فكان ان تركت الحياة والاعمال فيها  
على رؤساء منوحشين = هنا سيد غليظ الكبر وحشى التصرف وهناك اسقف قوى  
او موظف عتيق او شيخ اقام نفوذه على الغزو واقتحام مستلكات جاره عله يفوز  
بغنيمة تسد جوعته او ارض تزيد رقعته )

وهكذا فلم تر الكنيسة بدا من التدخل في امور الناس علما تخفف  
من ويلات الاقطاع وشرور الاقطاعيين باعمال مختلفة منها = قيام الرهبان في  
ادبرتهم على بحث الشعور لدى الناس ، بشرف العمل البدوي ، وان كان  
- في اعتقادهم - من عناصر التدبير للخلاص من الخطيئة وكان الرقيق قد ازرى  
به في القرون الماضية . فراح هؤلاء الرهبان يضعون المثل الطيب في الاعمال  
الزراعية على اراضيهم المبسطة حول الاديرة . وبذلك ادخلوا التحسينات الكثيرة على  
الزراعة في الاراضي المجاورة لهم . وكذلك كان من الرهبان من بعث على نسخ الكتب الادبية القديمة  
وبالرغم مما وقعوا فيه من تحريف وتصحيف ومن اخطاء فادحة احيانا فلا يصعنا  
الا ان نشكر لهم عملهم ذلك ان انهم حفظوا به الشيء الكبير من تلك المخلفات  
الرائحة التي لولاها لضاعت وخسرتها المدنية . ومن يذكر بالخير من هؤلاء  
الرهبان خاصة البندكتيون في ايطاليا .

وما كادت الامور تستتب في بريطانيا بين مختلف الكنائس المتنافسة حتى دب الحماس في نفوس القوم لرومية وآدابها وثقافتها فعدت الاديرة فيها مراكز للدراسة فافت سواها في قري اوروية اذ كان الرهبان من الناشئين يدرسون فيها اللاتينية واليونانية احيانا وكثيرا ما جلبت لهم فسخ من المؤلفات الادبية الكلاسيكية عبر المايث بحفظت في خزائن الاديرة . هذا فضلا عما قاموا به من اعمال اخرى ادت الى انواع بعض الصناعات كصناعة البناء وصناعة الزجاج وغيرها . وكان هذا كله خلال القرنين السابع والثامن . اصف اليه كل ما سبق ذاكه من اعمال وجهود الكنيسة في سهل تنصير البرابرة وادخالهم في حظيرة البابوية .

ولعل شارلمان كان - بعد الرهبان - اول ملك فكر بعد تيودوريك في بحث الكتب والتوفر على دراستها بعد ان كانت قد خمدت جدوة ذلك بثلاثة قرون خلت بسبب انقطاع اسبيراد السردى الى اوروية بعد سنة ٦٥٠ م على اثر فتح العرب لمصر . ولما لم تكن صناعة الورق قد عرفت بعد ، فقد كان على الناس ان يدونوا ما عندهم على الرق بالرغم من غا \* ثمنه فخفظت بذلك بعض المؤلفات الادبية " اما القرن الثامن الذي سبق تنوع شارلمان فقد كان - على راء الرهبان البندكتيين - من احلك العصور واكثرها جهلا واثدها وحثية وذلك في فرنسا على الاقل " وكثيرا ما دلت سجلات المبروفنجيين على جهل مطبق واعمال بين من جانب كاتبيها .

ومع شدة سواد هذه الصورة فقد كانت الوقائع تشر ببعض الامل في التحسن في هذه الناحية فان الكنيسة قد حققت اللاتينية من الضباع اذ كان على رجالها ان يجمعوا التحالف الدينية من التوراة والانجيل وغيرها من الكتب . هذا فضلا عن المواعظ الكنسية التي كانت تولى ناحية ادبية اخرى ايضا . لذلك كان لا بد للكنيسة من ان تقوم بقسط كبير من التعليم حتى تتمكن من تادية واحباتها المعقدة . فكان على منظميها ان يقرؤا وكتبوا ولو قليلا لينتفعوا من الاداب اللاتينية القديمة ويمثل هذا احفظت الاداب القديمة حبه رغم ما ساء العصر من جهل وظلام ووحشية .

ولدينا كتابان لشارلمان بحث بهما لرجال الكنيسة بعضهم بهما على  
ضرورة العناية بالتعليم تجنباً للوقوع في الخطأ (ص ٨٧ - ٨٨ )  
ويظهر ان شارلمان كان يشعر انه من واجبه ان يعنى بتنقيف افراد الشعب  
ايضا . ولذلك رتبناه في سنة ٧٨٩ م يطلب الي الاكليركيين ان يجمعوا  
بعض ابناء الاحرار والافنان ويفتحوا لهم مدارس " للفتيان وفي هذا دليل  
على ان الفناة كانت حتى ذلك العهد تحرم من هذا الحق .

وليس من السهل معرفة ما اسسه الاساقفة ورؤساء الاديرة من مثل  
هذه المدارس بيد انه من الثابت ان مراكز التعليم هذه قد انتشرت في  
المدن امثال اورليان وكورسي وفولدا وتوريس . وما دل على عناية  
شارلمان بهذه القضية الهامة تاسيسه " مدرسة القصر " لتعليم ابناءه  
النبلاء ايضا . وقد استدعى لها " الكوين " من انكثره ليراسها كما استدعى  
غيره من مشاهير رجال التعليم من ايطالية وغيرها ليعلموا في مدرسته تلك .  
ولعل اشهر هؤلاء المؤرخ بولوس دياقونس واضع تاريخ اللومارديين في ذلك  
العهد .

وكثيرا ما كان شارلمان يلفت الانتار الى وجوب العناية بنقل الاداب  
القديمة لان تجنب الوقوع في الخطأ في نقلها لا يقل - على رايه - اهمية  
عن تعلمها . غير اننا نلاحظ ان شارلمان لم يعر الاداب اليونانية ولا الرومانية  
اقل التفاتة اذ كان يميل ان يرى رجال الكنيسة يكتفون بتعلم اللاتينية بلتقان  
ليستطيعوا تلاوة الصلوات والكتاب المقدس بتفهم .

وهكذا نرى ان تلك الخطوة التي اتخذها شارلمان في سبيل واخلاء  
التعليم والعناية بالناحية الفكرية من الحياة العامة قد كتب لها الفضل  
في نتائجها المباشرة اذ ان القرن التاسع لم ينجب سوى النزر اليسير من مشاهير  
الرجال ممن خلفوا مؤلفات تدل على دقة في التعبير وعمق في الثقافة الفكرية  
فان انحلال امراطورية شارلمان والمنازعات بين خلفائه ثم هجوم برايو جدد

وما نتج من الفوضى بسبب السادة الاقطاعيين الذين لم يكونوا مستعدين للخضوع  
لاية سلطة، كل ذلك قد تضافر على ان تاخر العلم في الغرب لمدة قرنين آخرين  
على الاقل من الزمن . وبالفعل فان القرن العاشر والنصف الاول من القرن الحادي  
عشر قد بدا فيها شيء قليا من التحسن عما كانت عليه الحال في القرنين  
السابع والثامن ومع ذلك نعمهما فالحب والفوضى لم ينتشرا بعد مارلمان كما  
كان الامر معهما قبله (Robinson ٩١ - ٨٨)

ومما يساعدنا على تفهم روح العصر وحياة اهله اليومية  
وما كان يكتنفها من مشاعر واحاسيس، التعرف الى ملاحمهم وقصائدهم واغانيتهم  
المعيرة عن الفروسية ومبادئها . ولا عجب فالفرسان قد لعبوا الدور الرئيسي  
في جميع اقصاء العهد ورواياته ولما كان الكثيرون من شعراء الغزل  
يعنون بصلة وثيقة الى فئة الفرسان، كان لا بد ان يذكروا الشيء الكثير عنهم  
في اغانيهم .

لم تكن الفروسية مؤسسة رسمية وضعت مبادئها في زمن  
معين بل كانت، كالاقطاع، الذي تمت اليه بصلة وثيقة، بدون مؤسس خاص لها  
با بروزا ذاتيا في غربي اوروبا لسد حاجات القوم ورغباتهم .

ويريد بعضهم ان يرجعها بالاصل الى الحرمان ان زان  
تاسيت \* على قولهم \* بحدثنا عن ان الجرمان في عهدهم كانوا يعتبرون اللحظة  
التي يتقلد بها الشاب عندهم للمرة الاولى سلاح الجندي . لحظة مقدسة  
لها معناها الخاص عندهم وانرها البالغ في نفوسهم \* لانهم كانوا يستبدلون  
من ذلك على بلوغ الشاب سن الرجولة . وهذا بالطبع شرف يتقلدو في حياته .  
ولعل في هذا - على راي هتولا \* - الجرثومة الاولى لنبذة  
الفروسية . غير انه هناك فئة من الناس - بينهم العلامة قبلب حتى - يعتقدون  
ان الفروسية زهرة نبتت اولا على ارض الشام ونقلها العرب معهم الى الاندلس

ولا يستبعد ان يكون الفرنج قد تعرفوا اليها على ارض عاليه يوم اصطدموا للمرة الاولى بجيوش العرب وفرق فرسانهم وهم على خيولهم المطهمة . ثم علم الشاب المنحدر من عائلة نبيلة بنشا على ركوب الخيل واستعمله السيف وتدريب البازي على الصيد بنصب فارسا في حفلة رسمية يشترك فيها رجال الكنيسة على ان التكريس يكون عادة على يد فارس عتيق .

وهكذا كان الفارس يعتبر جنديا مسيحيا بولف مع رفاقة فرقة

مفضلة ، بمتاز افرادها بمنزلهم العليا التي تبدو في تصرفاتهم . هذا مع العلم ان انضمام الشاب الى مثل هذه الفرق لا بعد عضوية في منظمة لها موظفوها ودستورها بل جل ما كان انهم بولفون جماعة متألبة ، نصف جنالية ، بشعر حتى الملوت والنلاء بالشرف العظيم بانتمائهم اليها . ولم يكن واحد منهم ليخلق فارسا ، كما كان الدوق او الكونت مثلا ، بل كان باستطاعته ان يصبح من الفرسان بعد عملية ذلك الاختفال المنوه عنه قبلا . وعلى هذا الاساس قد يكون الواحد منهم نبيلًا بالاصل ومع ذلك فلا يعترف له بالفروسية كما ان اي شخص ، مهما انحط نسبه كان باستطاعته ان يصبح من الفرسان على اثر عمل مجيد ياتيه .

فكان على الفارس ان يكون اولًا مسيحيا ، يتعهد بالدفاع

عن الكنيسة وبالخضوع لها في جميع المناسبات وكان عليه ان يخدم الضعف في جميع مظاهره وان يمد يد المساعدة للمساكين حينما وجدهم ، كما كان عليه ان يقاتل " الكفرة " بلا هوادة ولا رحمة وان لا يلين امامهم . وعليه فوق ذلك ان يقوم بجميع تعهداته الاقطاعية وان يخلص النية لسيدته ويحافظ على اي وعد يتم به وان يكون كريما سخيا بجود بما لديه للمعوزين وان يبقى مخلصا لسيدته ويكون مستعدا للدفاع عنها وعن شرفها مهما كلفه الامر واخيرا كان عليه ان يمثل الحق ضد الباطل وان يقف في وجه الظلم وبكلمة موجزة " كانت الفروسية ففكرة الجهاد الاسلامي " منتصرة .

ذلك هو المجتمع الفرنجي في غربي اوروة الذي كتب له ان

يحترك بالمجتمع العربي في الشام خلال الخروب الصليبية ولو رحنا نوازن بينهما لرأينا المجتمع في الديار الشاميه قد بلغ من الفضح الخابية في مختلف نواحي الحياة



المادية منها والفكرية والروحية . وقد تريم من ذلك كله الندوة ، بينما كان المجتمع الفرنجى فى الغرب قد درج من طفولته بتلمس طريقه الى شىء من عناصر الحياة فكان نصيب حينا ويخطئ احبانا . اجل لقد كان الفرق عظيما فى الناحية الاجتماعية ان كانت الديار الشامية فى هذه الناحية قد شارفت على الانحدار اما فى الناحية الاقتصادية فقد كانت فى حالة لم يكن الفرنج قد نذوقوا منها الا الشىء اليسير وكذلك قل فى الناحية الفكرية ان كان القوم بمجموعهم يتمنون لو يتاح لهم التمتع بالالف باء منها بينما كان العرب قد استفدوا منها الاسباب جميعها تقريبا . واذا كان من بين المجتمعين من وجه للشبه فانما كان ذلك من حيث ان العرب بمجموعهم قد شارفوا الانحدار من الذروة كما كان الفرنج على وكدك الشروع فى التسلق فوق المصقوع .

## الفصل الثالث

ما تبادلته الشرق والغرب من علاقات اجتماعية وثقافية  
أبان الحروب الصليبية

الحروب ظاهرة اجتماعية - يستحيل منع الحروب من الوقوع - الحروب الداخلية والخارجية - الموازنة بين الحروب الصليبية ووفياتها قديما وحديثا - اختلاف المؤرخين بتقدير ما خلفته من آثار - المملكة اللاتينية في القدس من الوجهة العسكرية - المجتمع فيها - أثر العرب الاجتماعي في الفرنج - في الأخلاق والملابس والمآكل والمشرب والحفلات والاعباد - الصيد والرياضة البدنية - المرأة الفرنجية وأثرها في المجتمع - الفروسية بظهورها - أصلها شامي - الإدارة في المملكة اللاتينية - القضاء والتشريع - الحالة الحربية - الأسلحة - فنونها - آراء لتمييز الأنساب - الشعائر عند الملوك والأمراء - الصداقات بين الحرب والفرنج - أمثلة حية عنها - الحياة في القصور وبوت الأمراء - الرق والخصيان - الحياة الاقتصادية - الزراعة والصناعة والتجارة - الحالة الفكرية - الحكومة الحرة الحكومة العلمية في الديار الدائمة والافرنج بناؤها - اللغات - الآداب التاريخ والجغرافية - العلوم الدقيقة - الطب - الفلسفة - العلاقات العامة -

الحروب ظاهرة اجتماعية تدل على وجود معضلة بين الطرفين المتخاصمين يضطرمم الخلاص عليها وفشلهم في حلها سلما لان يحتملوا الى النار والحديد الى ان يتم الاتفاق او يحنو احدهما للآخر . فهي اذن وسيلة لايجاد استقرار منشود او استرداد حق مغصوب او تحقيق مبدأ جديد .

اما التحدث عن منعها فلغولا طائل تحته ان ينبغي العمل على ازالة اسبابها وظروفها للاستغناء عنها كوسيلة لحل مثل تلك المشكلات وسواها عندنا كانت عواملها اقتصادية سياسية او اجتماعية دينية او نفسية .

والحروب على هذا الاساس ضريان = حروب داخلية واخرى خارجية .  
اما الاولى منها فتقع بين فريقين اثنين في الدولة الواحدة . واما الثانية فتضخم  
نارها بين دولتين او بين مجموعتين من الدول فيشترك فيها عندئذ اقطار  
وقوميات بل وقارات احيانا . وكثيرا ما قام مثل هذه الحروب خلال العصور  
التاريخية المتعاقبة - كحروب الميديين واليونان ، وحروب الاسكندر والفرس  
وحروب رومية وقرطاجنة ثم حروب العرب مع الروم والفرس وسواهم حتى كانت  
الحروب الصليبية بين العرب والافرنج وبين الشرق والغرب بل بين النصرانية  
والاسلام الى ما هنالك من حروب عالمية كبرى ما زلنا نعاني بعض مساوئها  
ونحنى كثيرا من فوائدها . غير ان اوضح فارق بين الحروب الداخلية والحروب  
الخارجية ان هذه كثيرا ما تنقلب بمظاهرها المختلفة من سفك الدماء وازهاق  
الارواح وتدمير معالم الحضارة في سبيل هدف معين او اهداف اخرى بعيدة  
اول كثيرا ما تنقلب من ذلك كله الى تصادم بين تناقضين او مبدئين فسي  
الحكم او فاسفتين او دينين فيخرب منها المتحاربون بنتائج بعيدة ايجابية وسلبية  
يقبض اثرها مائلا بحمل في التطور الاطرادي او العكسي . فتكون بذلك عاملا  
في نشر المعارف والتقاليد ونقل المبادئ والافكار من مراكزها الخاصة في السبي  
اوساط جديدة . وهذا ما يقدره في ص ٣٠٤ من كتابه تاريخ المجتمع  
البشري حيث يقول = وكثيرا ما يزداد ويقوى انتشار العلم والعادات والتقاليد  
والشرائع من مراكز الثقافة بفضل الهجرات وقبام الامبراطوريات ونشوب حروب الفتح  
وتقدم وسائل النقل والمواصلات .\*

ولعل الحروب الصليبية قد فاقت غيرها من الحروب الخارجية في النتائج  
المحيدة ، وذلك بما خلفته بين العرب والافرنج من آثار وما اقامته بينهم مسن  
علاقات اجتماعية وثقافية كانت عاملا هاما في تطور الشعبين بعد ذلك ان سلبا  
او ايجابيا .

وانا قيست هذه الحروب بما سبقها في العصر القديم من حروب  
مماثلة لها تميزت عنها جميعها بمداهم الزمنى وتعدد الامم المشتبكة فيها ونشوع  
الاحناس والقوميات واللغات والادبان والمذاهب بل وفي درجة التطور الفكري

والاجتماعي . فهي تختلف مثلا عن الحروب المدنية التي لم يطل امدها اكثر من سنوات معدودات ، وكذلك تتميز عن حروب روميو الاسكندر في كثرة المساهمين فيها وتنوع احناسهم كما تفتقر ايضا عن حروب رومية وقرطاجنة بما تركته من نتائج وما اوجدته من اتصالات واثقته من علاقات ، كان لها جميعها الاثر البليغ ، مع غيرها من العوامل في نشوء اوربة الحديثة بفضل بقظة قومية ونهضة جبارة ، خرجت بهما من ظلمات العصور الوسطى الى انوار العهد الحديث ومع ذلك فقد اختلف المؤرخون في تقدير ذلك الانسـر في نهضة اوروية . فمنهم من راي فيها العامل الاول في ذلك ونسبوا لها كل فضل فيها ومن هتولا\* هن ام رابن وهانزبروتر الالمانيان ولويون الفرنسي . ومنهم آخرون قد انكروا عليها ان يكون لها ذلك الانسـر البعيد فوجدوا في نظرية اولئك ومن لف لفهم مبالغات لا مبرر لها . وعلى راسهم ارنت باركر والاب هنري لامنس . ومبعت ذلك الاختلاف - في اعتقادي - موقف كل من هتولا\* واولئك من الثقافة العربية والميل الى تقديرها حق قدرها او الحط من شأنها ، فيينما كلا / نسمع لويون يقول = كان الشرق (آنداك) اباان الحروب الصليبية ) يتمتع بفضل العرب بحضارة زاهرة في حين كان الغرب غارقا في بحر من الجهالة " اذا بباركر (١) برفع عقيدته منسائلا = "ملي يقول ان اوروية الغربية . . . . . كانت خاوية ، تفتقر الى كل شيء" (٢) . وكذلك نقرا لمن ام رابن قوله = " . . . . . واما في عالم الثقافة الواسع فقد ظهر كبار المفكرين في الفلسفة بعد الحروب الصليبية وما يتبعها من الاتصال بالعرب وحتى التصوف تألمون بلون العلم " ولكن باركر يعود فيناقض نفسه عندما يقابل بين اثر الثقافة العربية عن طريق الاندلس وصقلية في نهضة اوروية وبين ما تغذت به من هذه الثقافة نفسها عن طريق سورية ومصر خلال الحروب الصليبية كما سوف نرى عما قريب .

اما نحن ، فمع اقرارنا بما في كلتا النظريتين من افراط وتفريط تميل الى القول بان تاثير الحروب الصليبية في نهضة اوروية الغربية ان لم يات بصورة مباشرة بحيث يكون قد اخرج فئة خاصة من العلماء ، عملت على ايقاظ اوروية وانهاضها كما كانت الحال مع صقلية والاندلس الا انه كان اثرالا يستهان

به ان خلق مجتمعا بالذات حمله قابليات عديدة من نفسية وفكرية وروحية ساعدت على التطور الجديد . القول ان مئات الالوف من الناس ينتقلون بافكارهم " الفجة " وعقولهم " البكر " الى وسط سبقهم اهله شوطا بعيدا في مضمار التطور الاجتماعي والتقدم الفكري واختلف افراده معهم في نظرتهم الى الدين والى سواهم من اهل العقائد الاخرى ، ان ذلك العدد من الناس يحثك افراده عشرات السنين بل يفوقهم ، لحيث بان تنكشف نفوسهم عن حقائق عديدة جديدة لا يدان توتر فيهم وتنقلهم من آفاقهم الضيقة التي كانوا يعيشون فيها الى آفاق جديدة رحبة سمحة فيصبحوا معها اكثر قابلية الى التطور والاندياع الى الامام . ولقد رايناهم فعلا يعودون الى اوطانهم في اوربة الغربية بعد ان حملوا في طباط نفوسهم بذور الحرية الاجتماعية فينحرون من عبودية الاقطاع وتحكيم رجال الدين وكذلك رايناهم ينقلن في شيايا ادمنتهم آراء ناضجة في الثقافة جعلتهم ينظرون الى الحياة معها نظرة جديدة لم يكونوا يتعودوها من قبل لا هم ولا اكثر مواطنيهم ، فكان لذلك كله انره البين في تحقيق ذلك الانقلاب العظيم في المجتمع والثقافة .

وهذا ما يقر باركر نفسه ببعضه حيث يقول = " واذا لم تكن الحروب الصليبية قد صادفت حظا من التقدم فهي بمفوي كل حال ، قد زعمت التفريق بين الكتاب المقدس وغير المقدس وبين الدنيوي والديني وبين الفاني والروحي . . . . . وادت ايضا الى تحرير غير رجال الدين واطلاقهم من قيودهم . . . . . وان كحركة كهذه بعضها مزاج ديني مغاير كل المغايرة للامزجة العادية . . . . . كانت ، على الرغم من ذلك ، من القوى التي تعمل على تقوية الروح المدني . . . . . وعلى كل حال حال فقد اظهر العلماء استعدادهم للاخذ عن فلاسفة العرب . . . . . ولتكن ظهرت الروح العلمية ، واستقام امرها بعيد عن الحروب الصليبية غير انها لم تكن لتستطيع ان توفق الى اداء اجل واجب كان عليه ان عمله الا وهو المصالحة والمواثمة بين كلمة ارسطو الدنيوية مع نصوص الانجيل وتعاليم الكنيسة المومي بها الا في جو التفاهم الحسن الذي هاوت الحروب الصليبية على ابحاده (١) ثم يعود

فيقول = لم يقتصر اثر الحروب الصليبية في اوربية على خلق نوع جديد من الاتحاد الداخلي وتأثير جديد في مرافق حياتها الداخلية المختلفة ولكن اوربية قد كسبت باستمرار هذه الحروب نظرة جديدة واسعة الى العالم = هذه الدارة الواسعة التي صاحبها نهوض حركة الارتياح والانصراف للاستزادة من المعلومات الجغرافية ..... (٢) .

وهكذا نرى ان الدبار الثامية بفضل الحروب الصليبية قد ساهمت بفسط غير قليل مع صقلية والاندلس في سبيل رفع مستوى اوربية ودفعتها الى بفظتها فنهضتها وعلبه نبتطبع ان نقرر = " ان الغرب قد تتلمذ على الشرق مدة مائتي سنة خلال الحروب الصليبية كما تتلمذ بعنى ابناؤه على اساطين العلم والفلسفة في جامعات الاندلس ومدارس صقلية من قبل قرن " .  
والان فلننتقدم لنبين هذه الآثار ومداهها في حياة الافرنج بالتفصيل .

### المملكة اللاتينية في القدس واثرها في نهضة اوربية .

رابنا في الفصول السابقة كيف ان آلافا من الافرنج بل مئات الالوف منهم قد توافدوا على الدبار الثامية بقصد لم تكن اكثرهم تنبين سواء الا وهو انتزاع بيت المقدس من ايدى المسلمين . غير ان هذا الهدف وان حققوه الى امد ، فقد كلفهم من الخسائر الفادحة في الانفس والاموال ما يجعلنا نعتبر المشروع معها فاشلا من الوجهة العسكرية = وكذا ولكن ظهر لهذه الحروب فيما بعد ، بصورة غير مباشرة ، من النتائج الطيبة ما يجعلنا ننسى معها فظاعتها وسوء اثرها المباشر ، ان على العرب او الافرنج على السواء ان اولئك قد خربت بالنتيجة اكثر مدنهم الساحلية كما هلك مئات الالوف من سكانها فضلا عما ورثته البلاد من التعصب الديني الذمهم بل والحقد على ابناؤ الغرب بسببها . هذا بالاضافة الى العرب واما الافرنج فقد هلك منهم لا اقل من مليون نفس بسبب بعد الثقة وصعوبة المواصلات والخرية في ارض نائية مع تعرضهم لفعوامل الطبيعة كانت ولا شك قاسية عليهم . ومع ذلك فهذا كله لا يعد شيئا بالنسبة الى ما جناه القوم من فوائد مادية قيمة ونتائج معنوية لا تقدر . كان لها جميعها الاثر المحمود في تطورهم الاجتماعي وتقدمهم الفكري .

فما كادت جموع الافرنج تحرز ذلك النصر الموقت حتى استفر بهم المقام في المدن الساحلية وبعض السهول الداخلة واناموا فيها مملكتهم في القدس وملحقاتها الاربع ثم ما كادوا يشعرون بطيب الهواء واعندالامناخ وجمال الطبيعة وعظيم الثراء حتى ترك ذلك كله في نفوسهم اثرا جعلهم يطمثون الى البلاد والسكنى فيها بل وسفيرون نظريتهم الخاطئة (١) الى اهلها ويقدرون ما يتمتعون به من ثقافة عالية واخلاق رضية فراحوا يؤسسون لهم ملكا استطاعوا بحمد كبير وعناء شديد ان يحافظوا عليه مدة مائتي سنة ، عقدوا خلالها اطيب الاتصالات الاجتماعية مع اهل البلاد واحكموا افضل العلاقات الثقافية معهم فنتج عن ذلك مجتمع جديد فلا هو شرقي بحت ولا هو غربي وحسب بل فيه من هذا وذاك .

### المجتمع في المملكة اللاتينية وملحقاتها .

كان قوام هذا المجتمع الجديد خليطا من الاجناس . والقوميات واللغات والاديان ما بين غربيين وشرقيين بينهم الفرنسي والانكليزي والابطالي والالمانى كما فيهم العربي والتركي والكردي والارمنى وكذلك ترى بينهم اليهودى والمسلم والنصراني ما بين روم ارنونكس ولاين وموارنة وسالطرة وسعاقبة او سنى وشيعى ودرزى ونصيرى . هذا مع تفاوت بين في المظهر الاجتماعى والدرجة الثقافية (٢) .

ومع ما كان عليه هذا المجموع من اختلاف وتفاوت وتعدد فقد اخذوا جميعشون جميعهم بعد فترة الانتقال راغبين مطمئين لولا غزوات كان يتبادلها من آن لآخر جماعة الاقطاعيين وكلمات كان يشتها ارباب الحرب والقتال ممن خلقوا لها وجبلوا على الحياة بها دفعا عن كيانهم او حبا بتوسيع مدى التملك . تلك حال يشهد بها الواقع ان لم تكد تنقضى فترة الانتقال من الفتح الى الاستقرار حتى راينا كلا من الجانبين يتقرب من الاخر ويسود حياتهم شىء غير قليل من روح التفاهم والتساهل (٣) بل سمعنا البعض ممن زاروا البلاد

في ذلك العهد كابن جبير مثلا الرحالة الاندلسي المسلم بحمد ما كان فيه سكان البلاد عامة وابناء ملته خاصة من دعة وامن ورجاء في ظل الادارة الجديدة (١) .

واذا رحنا نوازن بين هذا المظهر الجديد وبين ما كان عليه الصليبيون من مظاهر الخلفة والقساوة والجفاء في عهدهم الاول فاننا لنعجب جد المحب لذلك التعبير الذي طرا على اخلاقهم وتصرفاتهم فتبدلوا تبديلا .

ولو اصدينا الى بعض مؤرخيهم رنوكشي العربي في ذلك العهد لسمعنا ما جعلنا نتردد في الاعتقاد بان بالامكان ان نشهد عن مثل هثولا القوم ما خبرناه من انقلاب فيما بعد . واليك ما انقله عن الراهب التقى روبرت عن سلوكهم ، نورد له للدلالة على سياستهم الحربية قال = "كان قومنا الصليبيون بجويون ، كاللبوات التي خطفت صغارها ، الشواره والبيادين ، وسطوح البيوت ليرووا غليلهم من التفتيل ، . . . . . وكانوا يبقرون بظون الموتى ليخرجوا منها الذهب فيما لكثره . وكانوا يدسون جنث قتلى تلك الجماعة الكبرى التي لم يرض احد من افرادها بالنصرانية ديننا " . هذا في مدينة مارات (كذا) ولعلمها المعرة (١) .

اما غروسيه فيعد ان بورد الخبر نفسه يستدرك فيقول = " لا بد من ان تنقضي ذوات عدة قبل ان يتبدل روح الصليبية (كذا) - وكانى به قد اشفة من ان يقول "هذه الوحشية" بالروح الاستعمارية (٢) .

وليس يستغرب ان يبلغ مقت الشرقيين لهثولا الصليبيين حدا الهيبولا عبر عند الشاعر الفارسي الكبير سعدى بقوله " لم يكن اولئك الوحوش من البشر " (٤) وهناك شاهد عدل آخر على تلك القسوة هو الكاهن انكبل ان يقول في مؤلفه = " قلما كان صليبي يسير بوحى دينى . فلم يترك اولئك الصليبيون جرائم وحشية ولا ضربا من ضرب السلب والنهب او الفضائح المزرية الا اقتترفوها (٥) وكذلك

(١) ابن جبير ص ٢٨٢ - (٢) لوبون - زعيتر ص ٣٢٥ - (٣) غروسيه ج ١ ص ١٢٣ - (٤) لوبون - زعيتر ص ٣٥٣ - (٥) نفسه ص ٣٥٧ .



فلا تعجب ان يعزو سان برنار - الداعية الاكبر للحملة الصليبية الثانية  
فدلسهم فيها الى ما ارتكبهوه من مظالم (١) .

واخيرا فنورد راي اسامة بن منقذ في اخلاق فرسانهم وهو

من بلاهم في السراء والضراء ايضا ان يقول = " لا يرى فيهم سوى بهائم .

امنازوا بصفة الشجاعة والقتال لا غير (كذا) كما في البهائم فضيلة القوة والحمل (٢)

والان فما هي العوامل التي جعلت هؤلاء القوم يخضعون عنهم

تلك الخلطة والفظافة والوحشية ليتبدلوا بتلك " السباسة " وذلك الاعتدال في

في ادارة البلاد . الجواب على ذلك يصبح بشيئا مني تذكرنا الروحية التي

انت اكثرينتهم بها الى الشرق ليقانلوا " الكفرة " والعقلية التي كانوا جميعهم يحملونها

لدى وفودهم الى البلاد المقدسة التي يسكنها عبدة محمد وصنمه " اقول اذا

تذكرنا هذا علمنا ان الدعاوة الباطلة لا بد ان ينجلي الحق من ورائها وان

ينقلب مفعولها الى ضده وهذا ما حصل فعلا مع هؤلاء المساكين الذين سمعت

البابوية افكارهم واخرختهم عن طبيعتهم الانسانية لمأرب خاصة تبينوا مبلغ الصحة منها

فيما بعد ولاغراض اخفاها بعض امرائهم لكنها ما لبثت ان ظهر جلي امرها . ان انهم

ما كادوا يصلون الى الشرق وهم على اشد ما يكونون نحسا الى الانتقام بحكم نادير

المخدرات الروحية التي كانوا تحت مفعولها بفضل الدعاوات الباطلة حتى ظهروا بذلك

المظهر البشع الذي صوره لنا كتبهم ومؤرخوا ذلك العصر من غيرهم .

غير انهم ما كادوا يقضون مع سكان البلاد ردها من زمن يتنسمون

فيه ربح الحق ويستيقنون من تاثير تلك المخدرات حتى تغيرت تلك الروحية ان ويجو

وجدوا انفسهم امام شعوب بعيد افرادها رب العالمين لا محمدا ولا صنمه " وتعرفوا

الى اناس يحترمون المرأة ويشفقون من ابدا الشيخ والطفل .

بلى فقد القوا انفسهم وجها الى وجه مع الحق والحقيقة ولا تستبعد

ان تكون بعض الوجوه منهم قد احمرت خجلا لدى اكتشافهم خدبعتهم . لذلك

لم يسعهم عندئذ الا ان يتبدلوا روحا غير ما تلبسوا به من روح تعصبي ذميم (٤)

(١٠) لوبون زبتر ص ٣٥٧ - (٢) كتاب الاعتبار حتى ص ١٢٢ - (٣) تاريخ العرب -

حتى ص ٦٤٣ - (٤) تراث العرب ص ١٦٦-١٦٧ .



وتبدلهم ما كانوا فيه من جفاء وخبثونة الى ما اصبحوا فيه من دماثة في الاخلاق وانس باهل البلاد وازدياد الثقة فيهم والطمانينة اليهم .

هذا مع العلم ان هناك عاملا نفسيا كان له اثره في تلك المظاهرة

الاجتماعية بمعنى به ان سكان البلاد كانوا بجموعهم قد فقدوا العزة القومية لكثرة ما تغبر عليهم من حكام واصبح الامر لديهم سببان احكمهم هذا ام ذاك على شرط ان ينعموا بالعدل فيطمانوا الى اموالهم وارواحهم وممارسة دينهم وحقوقهم . وكسلن ملوك الافرنج ، على ما ظهر فيما بعد ، مستعدين لان يوفروا لهم ذلك اذا هم اخلدوا الى السكنة وانصرفوا الى اعمالهم الزراعية والصناعية والتجارية (١) وتركوا القتال لاهل الحرب والنزال . فكان هذا عاملا آخر قد ساعد بالفعل على تقريب الثقة بين الشعبين والعمل على زيادة اسباب التفاهم ولاختلاط بل والتمازج ايضا . فلا عجب ان نسمع امير صليبي يقول = " ان القتال بين المسلمين والافرنج انتحار اخوى " وكذلك موقف بعض رجال الدين من الافرنج كفلبهم اسقف صور بدل على هذا التبدل الجميل (١٧٧) . (٢)

وهناك فضلا عن هذه العوامل الاجتماعية والسباسبية والنفسية العامل الطبيعي الذي لا يقل اهمية عن سابقه في تحليل هذه الظاهرة اذ اننا نراهم يعشقون بحب ابلاد كما ادهشتم اخلاق اهلها فلما فانسوا بها حتى نسوا بتاثير جمالها ووفرة خبراتها وطيب هوائها اوطانهم الاولى " فلم يعودوا بذكرونها " فما كان منهم الا ان نوطنوها وراحوا يكتفون حبانهم الخاصة والعامه حسب مقتضيات الحال والمناخ فاتخذوا في بناء بيوتهم وقصور الامراء والملوك منهم الطراز العربي المتلائم مع ظروف البلاد فسكنوا البنايات ذات الاقنية الفسيحة تحوط بها الغرف والقاعات وتتوسطها " البحرة " بتدفق منها الماء وينطلق من النافورة غالبا فيسرى الهواء ثم تنتشر ذراته رذاذا يخفف شدة الحرارة ويبعث في النفوس البهجة والسرور كما يشبع في الاجسام البرودة والراحة (٣) . هذا عدا ما اقاموه فيها من آيات الزخرف بتصفيح جدرانها وسقوفها بالرغم والفسيفساء وتمويهها بالذهب والالوان المعدنية الاخرى والمنا .

(١) المستعمرات الافرنجية لبراي ص ١٠٦-١٠٧ - (٢) تراث العرب ص ١٦٧ -

(٣) تاريخ العرب - حتى - ص ٦٤٣-٦٤٤ .

ثم اتخذوا لبيوتهم وقصورهم من الاثاث ما يتفق معها والروح الشرقية  
العربية المعروفة بحب الترف فاصطنعوا السجاد والاناقر وزينوها بالرياش  
الفاخر والمصنوعات الدمشقية والايعة النحاسية المنمقة والانية الزجاجية والخزافية  
المصنوعة في صور (١) هذا وقد اتخذوا لتنويرها الشمع وكثيرا ما كان حسب عادة  
العرب مفرخا بالطيوب (٢) .

صفا

وكذلك تبدلوا ثيابهم بملابس شرفية سابغة واسعة الاكمام زاهية الالوان  
موثاة بالحرائر والتطاريز (٣) . ولعل المرأة كانت اسبق الي مثل هذه المظاهرة  
من الترف والنعيم من الرجل فانخذت لزينتها المجوهرات الدمشقية والقاهية وادوات  
القطرية من المساحيق والخضاب كذا انها اجتذبتها المرايا الزجاجية والخراف بانواهه  
والاقمشة المصنوعة من وبر الجمل وغيره .

وقد ترك لنا ابن جبير في رحلته صورة حبة لحياة المرأة الافرنجية  
وما توصلت الي اقتباسه عن اختها العربية في الدبار الثلجية من ادوات التطرية  
ووسائل التجميل ومظاهر الترف في العلب قال = "ومن مشاهد زخارف الدنيا  
المحدث فيها زفاف عروس شاهدناه بصور في احد الايام عند مينائها وقد احتفل  
لذلك جميع النصارى رجالا ونساء واصطفوا سماطين عند باب العروس المهداة  
والبوقات تضرع والمزامير وجميع الآلات اللهوية حتى خرجت تنهادي وهي في ابهى

زي وافخر لباس تسحب اذبال الحرير المذهب سحبها على الهيئة المعهودة من  
لباسهم وعلى راسها عصاية ذهب قد حفت بشبكة ذهب وعلى لبيها مثل ذلك  
وهي رافلة في حليها وحللها تمشي فترا في فتر مشي الحمامة او سير الحمامة (٤)  
ولم يكد القم يتعرفون الي اطعمة اهل البلاد حتى اصحبتمهم نكبتها  
فانقلوا عليها بانواعها واشكالها كالقطائر وغيرها من المعجنات والتمر الهندي والافاوية  
والاطياب والبهارات والقطاني كالذرة الشامية . ولعله بحسن الاشارة الي ان بعضهم

(١) تحفة الشرق للغرب - حتى - في الكتاب الذهبي ص ١٤٧ - (٢) المستعمرات

الافرنجية - راي ص ١١٠ - (٣) تحفة الشرق للغرب في الكتاب الذهبي ص ١٤٦ -

(٤) الرحلة ص ٣٨٨ .

راح بمنع عن اكل الخنازير تشبها بالمسلمين من الشرقيين (١) . ولم يكن ثلثهم اقل ومن ذلك في المشروبات فاصطنعوا منها المعطرة والمنلجة والحلاة وكذلك بحدتنا احد مؤرخي ذلك العهد منهم = جاك دوڤتري (Jacques de Vitry) عن نلج لبنان والستعمالهم له في المبردات (٢) .

وقد حذا الفرنجة أيضاً حذو الشرقيين في اعيادهم وحفلات لهموم فتدبها بهم في اتخاذ جوقات الطرب في مجالس الشراب فاستمعوا الى الارغى والنزار والعود والقيثارة والربابة وغيرها كالبواق المصنوعة من قرون الحيوانات (٣) وكذلك فقد استمعوا الى المغنيات في افراحهم كما استدعوا الندابات في المآم ايضاً . هذا وقد اتخذوا لذلك كله ادواته النحاسية والفضية والذهبية فضلا عن اغطية الموائد من الاقمشة الفاخرة (٤) .

ولعل الصيد كان من اللذ ما يقضون فيه اوقات فراغهم بعد طول القتال والنزال في ساحات الحرب ولا سيما في اوقات المهادنات ان كثيرا ما كان الافرنج والامراء من المسلمين يتبادلون الرخص للصيد في الاراضى المجاورة لكل منهم فيحقدون الحلقات المشتركة (٥) . وقد اتخذوا له البزاة والصقور والسواهين والكلاب الصلوقية وغيرها (٦) .

واما المباريات الرياضية وحفلات السبق عندهم فقد كان فيها من الخشونة كما بحدتنا بذلك اسامة ان حضر احداها في طبرية هناك ما يقول " حضرت بطبرية في عيد من اعيادهم (الصلبيين) وقد خرج الفرسان بلعبون بالرمح وخرج معهم عجوزان فانبتان كذا ) اوقفوهما في راس البدان وتركوا في راسه الآخر خنزيرا سمطوه وطرحوه على صخرة . وسابقوا بين العجوزين ومع كل واحدة منهن (كذا) سربة من الخيالة يشدون منها والعجائز يقمن ويقعن على كل خطوة وهم يضحكون حتى سبقت واحدة منهن فاخذت ذلك الخنزير في سبها " (كتاب الاعتبار ص ١٣٨) . اما سباقاتهم على ظهور الخيل فاشبه ما تكون بالعباب الجريد عند

(١) كتاب الاعتبار . اسامة ص ١٤٠ - ١٤١ - (٢) المستعمرات الافرنجية ص ١١ -

(٣) تراث الاسلام - باركر - ص ١٢٣ - (٤) المستعمرات الافرنجية راي ص ١٠ -

(٥) انظر راي ص ٥٥ وحتى في تاريخ العرب ص ٦٤٣ - (٦) كتاب الاعتبار اسامة ص ٣ ١٢

الثاميين (تراث الاسلام ص ١٦٥) "وكان العرب السوريون يراعين "بالرماية  
والمسابقة واللعب بالصولجة" على قول ابن جبير فاستحسن امراء الفرنجية  
العابهم الرياضية واخذوا يرتاضون بها وينسجون على منوالهم فيها ولذلك  
دخل الجريد وغيره (Eournameat) الى اوروية . ولقد حفظ لنا المؤرخون تذكارات  
من الاجتماعات التي كان يجتمع فيها فرسان الفرنجة بفرسان المسلمين ليجاروهم في  
هذه الالعاب تحت سما "سورية" (١) .

وما راق الافرنج كثيرا من نعم الحياة في مجتمعهم الجديد العامات  
فقبلوا عليها ابدا اقبال وقصدوها في اوقات فراغهم يقضون فيها الساعات طلبا باراخ  
فضلا عن الغاية الاولى منها وهي النظافة والظاهر ان البعض قد افترطوا في ذلك  
لدرجة لئنا نسمع جاك دوفترى يحتج على الراهبات لخروجهن من الاديرة مخالقات  
بذلك انظمة جانهن ليذهبن الى الحمامات العامة وحضورها مع عامة الناس ايضا (٢)  
وما اكثر ما يسرد علينا اسامة في "كتاب الاعتبار" من احاديث الحمامات وعديد  
اختباراته معهم فيها ما جعلنا نهيب بطلاب الامتدادة منها في الرجوع اليه  
ص ١٣٥ - ١٣٧ .

ولعله لا يتم بحثنا هذا ان لم نخص المرأة - وهي روح المجتمع -  
بكلمة تكشف لها عن مكانتها فيه وانرها في اهله . فقد لعبت فيه على ما يظهره  
دورا سلبيا اذ اننا نراها قد اقبلت بشره على ما فيه من اسباب الترف والبطر  
تاركة جانبا ما كان يحسن بها ان تنزود به من عادات طيبة واخلاق حميدة وفيما  
يحدثنا به مؤرخوهم عنها نفقد لاذع وقندح مقذع . فهذا سان برنار يقول في  
تعليل قتلهم في الحملة الثانية ((برجع نصب غير قليل الى انغماسهم في الفسق والفجور  
والفجور لسبب تسلط النساء وتأثيرهن)) (٣) وكذلك يحدثنا غلينم اسقف صور عن  
زواج قسطنتر سيدة انطاكية <sup>بريند</sup> دوثابتون (De de Chatillon) ونتبجته السينة لا في  
تاريخ امارة انطاكية فحسب بل في تاريخ المحكمة نفسها ايضا اذ انها في سبيله قد  
ضحت بكل شيء (٤) هذا بقطع النظر عما كانت تحوكة نساء البلاط من المكائد  
بالاشتراك مع رجال الدين في سبيل التحكم بشؤون المملكة (٥)

وكذلك <sup>مكتوبا</sup> ~~مكتوبا~~ عن مثل ذلك راى (ص ٢٧٢ - ٢٧٣) وما نوسلت به الملكة

الوالدة ماري كومين اريطة امي من وسائل لتنجية غلام اسقف صور عن بطريركة القدس

(١) تحفة الشرق للغرب - لحتي - في الكتاب الذهبي ص ١٤٤ (٢) المستعمرات الافرنجية  
راى ص ٦٢ (٣) حياة صلاح الدين - احمد بيلى - ص ٢٥ - ٢٦ (٤) غروسيه ج ٢ ص ٣٢٢

رغبة منها بهرقل رئيس اساقفة فينارية بارغم عما كانت تعلمه عن سوء آدابها .  
وهناك قصة زواج الاميرة سيبيل وريثة عز الملكة واغرائها بخدوين الابلينى  
صاحب الرملة ثم نكد لها عنه في سبيل غي اللوزيانى بطل ماساتهم فسى  
حطين (غروسبه ج ٢ ص ٦٨٧ )

هذا ويكفينا غروسبه مؤنة الاطالة في البحث في الموضوع ان انه  
يُسلخ حالة الملكة في عهد الملك الابرس بخدوين الرابع قبل هبوب العاصفة  
في حطين بقليل ، بما بلى = " بلاط ملكي يبشر بالزوال " <sup>وكلا</sup> <sup>فرد</sup> ذلك تسلط  
النساء وتنفذ رجال الحاشية الاندال وقد مثل هذا وذاك في سوء اختيار سيبيل  
ورثته العرش يوفيق بشاركتها في الحكم رغبة منها <sup>في</sup> جمال وجهه مع قبح نفسه  
اما اخت الملك الثانية ايزابل فآثرت الزواج برجل ارغن ساقط الهمة نحني <sup>Ouprom</sup>  
*de Cozon* ولا وكذلك لم تكن الملكة الوالدة آنباس ( *Agnes* ) باقل سوءا ان  
انها راحت تشارك الحاشية في الكيد ارضاء لشهوة الحكم عندها . ولو ادى  
ذلك بالملكة الى الحضيض واخيرا اصف الى هذا كله ان اكبر رجال الاقطاع  
بوهمند الثالث ، سيد انطاكية كان آنذاك يرتنى في احضان خليلته ( *Sibylle*  
*de Bunsch* ) التي تنجس عليهم لحساب السلطان صلاح الدين . ولما اراد رجال  
الدين تسديدها راح بضطهدهم " (١) .

اما المرأة في الطبقة الوسطى فلم تكن احسن حالا من سيدتها  
" النبيلة " ان بحدثنا مؤرخوهم عما كانت عليه هي ايضا من السقوط ولا سيما في  
ابان وحنتم . من ذلك ما جاء على لسان امبرواز ( ) قوله = " هادت  
النساء من عكا الى بافا سنة ١١٩١ ورحن بجرون انيال الفجور في تصرفهن  
الدائن ان كن يفدن عليها بالمراكب والزوارق - وهنا بتاوه مثالنا ثم بقول =  
" رحماك اللهم امثل هذا السلاح بسنود مبرات الرب " .  
وما هو اشد دلالة على سقوط القيم اخلاقا ان جنودهم كانت تغادر  
الاعمال الترسيمية في بافا لترجع الى عكا حيث يقضون مع " البنات " اوقانهم في الفسق

والفجور وقد اضطر وقتئذ ريكاردو الى العودة لعكا لينزع بنفسه هتولا الصليبيين من المواخير والخمارات (٢) . والخرب في امر هذا المؤرخ الفرنسى الحديث غروسيه انه يرجع ذلك السقوط في اخلاق القوم رجالا ونساء الى تاثير الشرق وهو لو فكر وادرك لانصف ان هذه الاخلاق نفسها كانت فيهم منذ عهدهم الاول ففروا فيها الان وهذا جاك دوفترى يترك لنا صورة حية لمدينة عكا في عهده فيقول = كانت

عكا من بين المدن الساحلية مكتظة بينات الهوى اللاتي يجنين ارباحا بما يلقينه من خطوة عند رجال الدين والدنيا على السواء (٣) ثم يستمر في وصفها فيقول = "نرى الرجال فيها يتناولون نساءهم والزوجات بسمن رجالهم في سبيل عشاقهم ، فلا غرابة ان ان تختم عكا ببيع السموم والعقاقير المسممة" ولم يكن امبرواز (Ambruzzi) باقل لذعا من زميله في نقده الفرنسيين من جنود الحملة الثالثة ان يقول = "كانوا يقضون لياليهم في الرقص ٠٠٠ وبعد معافرتهم بنت الحان حتى الصباح كانوا يغدون الى بيوت الدعارة معربدين محترجين الاثام بالتكسبر والتخريب" (٤) .

وقد يحسن او نورد ايضا ما جا' شهاب الدين في كتاب الروضتين في اخبار الدولتين ان يقول ص ١٤٩ في تاريخ سنة ١١٩٠ "ووصلت في مركب ثلاثمائة امرأة فرنجية مستحسنة اجتمعن من الجزائر (الجزر) وانتدبن للجزائر وفتنن لاسعاف الغرباء" . وقصدن بخروجهن تسهيل انفسهن للاشقياء وانهن لا يمتنعن من العزبا ، وراين انهن لا يتقرنن بطلا بافضل من هذا القربان ، وزمن ان هذه قرية ما فوقها قرية لا سيما فيمن اجتمعت فيه قرية وعزبة" ثم يستمر فيقول "وابقى من عسكرنا من المماليك الاغيا والمداير الجهلاء جماعة جذبهم الهوى واتبعوا فن غوى فمنهم من رضى للذة بالذلة ومنهم من ندم على الزلة فتحبل في النقلة" .

والان كيف يعطل غروسيه ما يجترحه هتولا النسوة وهن قريبات عهد بالشرق . فهل كسبن ما عندهن من اخلاق في الديار الشامية ام هي من صفاتهن وصادرات الغرب وجزره .

ولعل هذا بوهدى بنا الى الكلام عن الفروسية عند هتولا القوم . لقد راينا سابقا ان بعض المؤرخين يميلون الى رد نشوئها عندهم الى عوائد قديمة عند الجرمان بينما يرى البعض الاخر كالدكتور حتى انها "زهرة لا ينكر احد انها زهت اولا على نربة



سورية ومنها انتقلت الى البلدان الاوروبية . وقد بقيت الفروسية احواما بنبوها من بنايع المروية والشهامة واللفظ في مجمل بلاد الغرب ، لان الفارس كان من اول واجنائه ان يقسم ببنا نوجب عليه تقوى الله اولا ثم حماية الشعب ان امرأه او طفل ام معدم نانيا ، وكما كان صلاح الدين الابوي المثال الاعلى للفروسية العربية كذلك كان ريكاردس قلب الاسد ممثل الفروسية الغربية ، وكانت الاقاصيص والحكايات التي تدولتها الالسن في اوروية كلها مشحونة من صور الابطال المسلمين الذين امتازوا ليس فقط ببسالتهم بل وشهامتهم وحسن ضيافتهم مع المحافظين على شرف كلمتهم " و(١) .

وهنا لا بد من التحقيب على ما جاء به الاستاذ العلامة فيليب حتى ان انه قد ابان ان الفروسية مع كونها "زهرة زهت اولا في تربة سورية" فهي ايضا تقوم على خصلتين اثنتين = (١) البسالة و (٢) الشهامة " فاذا توفرت "السالة" في ريكاردس فهل ظهرت في اعماله وتصرفاته "الشهامة" بل ابن كانت المروية في تصرفات القوم في عهدهم الاول بالبلاد .....

المس في هذا برهان قاطع على ان الفروسية عند الافرنج لم تعرف الا بشرفها الاول قبيل الحروب الصليبية . ثم البس في اصرار الكنيسة على الفارس بوجوب "حلفه اليمين بضرورة تقوى الله و....." دليل على ان المروية لم تكن عندهم الا بفرض خارجي لا بشعور داخلي . والفرق بين هذا وذاك عظيم بحسب الانتباه اليه .

---

(١) تحفة الشرق للغرب لحتى - في الكتاب الذهبي ص ١٤٤ .

## الحكومة وهياتها الثلاث الادارية - القضائية والنشريع

فما ان انتهى دور الفتح حتى وضعت اسر السلطنة في القدس ونوزع  
الامراء الانطلاقات حتى اقتضت مصالح المجتمع "العالي" الجديد بمن فيه من  
شركيين وغربيين قيام حكومة تدبر - بهياتها الثلاث - الادارية والقضائية والعسكرية  
امور البلاد وترعى مصالح اهليها وترد عنها كرات المسلمين عليها .  
غير ان هذا كله لم يتم نهائيا قبل ثلاثة ارباع القرن من الزمن اقتضتها  
عملية التوفيق والعلامة بين ما جاء به القوم من شكل اقطاعي وبين ما كان من ذلك  
في البلاد فننتج عن ذلك من الانظمة والقوانين ما كان ارقى مما عرف في اوربية  
خلال العصور الاوسطى جميعها (١) .

عملية

وما نظن تحليل ذلك بحسب ان جاءت مجموعات قوانين "السلطنة  
اللاتينية في القدس" وامارة انطاكية وكونتية طرابلس برهانا على صحة ما نزع . ولنا  
فيما يلي مندوحة عن التوسط في اصل تلك "الدساتير" . اما حقوق الطبقة الوسطى  
في ملكية الاراضي فكانت حسب القوانين الرومانية التي وجدها الافرنج مطبقة في  
البلاد فلم يسعهم الا احترامها واقرارها كما كان سبق للعرب ان فعلوا من قبلهم .  
هذا مع العلم ان مجموعة القوانين "المختصة بالطبقة الوسطى والتي وصلت  
اليها قد ورثت من سنة ١١٢٣ سنة ١١٨٠ وهي تتضمن بالروح الرومانية .  
وما تحسن الاشارة اليه ان "هذه القوانين نفسها كانت منسبة في  
بلدان اوربية الرئيسية ومع ذلك فكانت تطبق بحذافيرها في المستعمرات اللاتينية في  
الشرق" (٢) .

اما فيما يختص بالادارة فكان امرها منوطا بالنائب (Viscount) او البسكند  
( كما جاء في المراجع العربية ) (٣) وكان هذا فضلا عن تراسه " المحكمة العليا " في  
اقطاعه مسوولا ايضا عن الامن فيها بمساعدة المحتسب ورجال الشرطة معه .  
ومنصب المحتسب هذا عربي اسلامي وجده الافرنج في البلاد فعملوا به  
والمحتسب من نصبه الامام او نائبه للفنظر في احوال الرعية والكشف عن امورهم ومصالحتهم  
ومن شرط المحتسب ان يكون مسلما حرا بالغيا عاقلا عادلا قادرا (٤)

(١) لايسر ص ٢٢٦ ج ١ وانظر ايضا راي ص ١٤١ وحتي - الكتاب الذهبي ص ١٤٢

(٢) راي ص - كتاب الاحكام ص ١٤٩ (٣) نظام القربى في اعطام الكتب ص ٧

(١) ومن الامور المنوطة بمراتبه المحتسب

- (١) الطرقات والاسواق
- (٢) الموازين والمكاييل
- (٣) تجار الحبوب والدقيق
- (٤) الخبازون
- (٥) الحزازون
- (٦) بائعو اللحم المشوي
- (٧) بائعو السمك المقلّي
- (٨) بائعو الزيت والسمن
- (٩) بائعو الشرابات
- (١٠) معلمو الصبيان
- (١١) الاطباء والمجبرون
- (١٢) اطباء العيون

ومن المعقول ان لا تختلف وظيفة المحتسب في المستعمرات الافرنجية عن ذلك كثيرا هذا في الادارة اما في القضاء فكان هناك محكمتان = محكمة التجارة وتعرف "بمحكمة الفندق او السوق" ومحكمة الملاحة او "محكمة السلسلة" التي تقفل بها الموانئ. اما الاولى فكان اختصاصها النظر فيما يقوم من قضايا بين التجار وتنازل من سنة اعضاء منهم اربعة سوريون واثنان افرنجيان . وهذه تذكرنا بالحكام المختلطة في ابامنا هذه واما الثانية فكانت تحكم في قضايا البحارة وما يتعلق بالملاحة ومتفرعاتها . وكان غير هاتين محكمة اهلية مختصة بالسوريين تسمى "محكمة الرس" وهو شيخ البلاد او نائب الملاحة . وكان اعضاءها واطباءها. محكمة التجارة يحكمون حسب قوانين الامارة مع مراعاة العرف المحلي وتقاليد اهلها .

غير انه لا بد من الوقوف هنا قليلا حتى نضع صورة لقضاء القم وحكمهم وذلك للمقارنة بين ما كان عند العرب من ذلك وما كان عند الافرنج منه . فقد قال اسامة في كتاب الاعتبار ص ١٣٨ - ١٤٠ " وشهدت يوما بتابلوس وقد احضروا اثنين

" للمحاكمة " وكان سبب ذلك ان حرامية من المسلمين كبسوا ضبعة من ضباع نابلس  
فأتهموا بها رجلا من الفلاحين وقالوا " هودل الحرامية على الضبعة " فهرب .  
فنفذ الملك فقهني اولاده . فعاد اليه وقال = " انصفتي . انا ابارز الذي قال عنى  
اننى دلت الحرامية على القرية " . فقال الملك لصاحب القرية المقطع = " احضر من  
يبارزه " فضى الى قريته وفيها رجل حداد فاخذه وقال له " تبارز " ابرقا من  
المقطع على فلاحيه لا يقتل منهم واحد فتخرب فلاحته . فذاهدت هذا الحداد وهو  
شاب قوى الا انه قد انقطع بمشى ويجلس بطلب ما يشربه وذلك الاخر الذى طلب  
البراز شيخ الا انه قوى النفس بزجر وهو غير محتفل بالمبارزة . فجا' البسكند وهو  
محنة البلد فاعطى كل واحد منهما العصا والتروس وجعل الناس حولهم حلقة .  
والنقيا . فكان الشيخ يلز ذلك الحداد وهو يتاخر حتى يلجئه الى  
الحلقة ثم يعود الى الوسط وقد تضاريا حتى بقيا كعمود الدم . فطال الامر بينهما  
والبسكند يستعجلهما وهو يقول بالعجلة . ونفع الحداد اذمانه بضرب المطرقة . واعبى  
ذلك الحداد فضربه الحداد فوقع ، ووقعت عصاه تحت ظهره . فبرك عليه الحداد  
بداخل اصابه فى عينه ولا يتمكن من كثرة الدم فى عينه . ثم قام عنه وضرب راسه  
بالعصا حتى قتله . فطرحوا فى رقبته فى الوقت حبلا وجرره وثنقوه . وجا' صاحب  
الحداد اعطاه غفارته واركبه خلفه واخذه وانصرف .

تلك طريقة من طرق المحاكمات عندهم تعرف بطريقة المبارزة ولهم طريقة  
اخرى لا تقل فظاعة عن الاولى اوردها اسامة بصدور محاكمتهم لفتى " كانت امه مزوجة  
لرجل افرنجى فقتله وصار الولد يبتال على حجاجهم ويتعاونه امه على قتلهم فاتهموه  
بذلك وعملوا له حكم الافرنج = جلسوا بتسبية عظيمة وملاوها ما وعرضوا عليها دف حذب .  
وثنقوا ذلك المتهم وربطوا فى كتافه حبلا ورموه فى البشبة - فان كان برتا غاص فى  
الماء فرفعوه بذلك الحبل لا يموت فى الماء ، وان كان له الذنب ما بغوص فى الماء  
فحرص ذلك لما رموه فى الماء ان بغوص فما قدر فوجح عليه حكمهم ، لعنهم الله فكحلوة  
وفى هذين النموذجين عن فقههم وقضائهم ما يجعلنا ندرت السبب فى  
" ان الشرائع البحرية والتجارية الاوروبية كلها ترجع الى اصول وضعت للمرة الاولى فى  
اننا الحروب الصليبية (١)

ولبت الافرنج يعتمدون في حروبهم على فرسانهم ومنظمتهم العسكرية  
المخصصة لذلك كفرقة السبتارية وفرقة المعبديين (الداوية) وعلى مجموع السرقندية (١)  
حتى اضطروا مع الزمن الى الاستعانة بالبلديين في تعبئة جيشهم فراحوا يشكلون  
الخبالة الخفيفة من المسلمين والمسجبيين وقد عرف افرادها بالتركبولي وكان من بينهم  
الموارنة الذين كانوا مسالمين طوائف . وكثيرا ما استخدم مثل هؤلاء المرتزقة بعض  
الاديرة كدبر جبل الطور والمنظمات العسكرية حتى ان امير طرابلس اخذ منهم حرسه  
الخاص (٢) في النصف الثاني من القرن الثاني عشر .

هذا وكان الافرنج يادى الامر بتفوق الحراب والسهم بدروع ثقيلة مصفحة  
كثيرا ما كانت تعبثهم في الحركة وتجعلهم بطئين في العمل . مما اهاب بهم اخيرا  
الى اتخاذ الدروع الخفيفة ذات الزرد واستعمال الخوذ الاسطوانية الشكل المروفة  
بالخوذ الصليبية كذلك المنجنق والكبود . ووضع اللخام المتفجرة وتركيب البارود والمواد  
المفرقة . واعداد النفط المتقد بالماء او ما يعرف عند الاوروبيين بالنار اليونانية .  
ومع ان البارود من اختراع الصينيين فان لدينا ما يثبت ان العرب  
استعملوه واستنبطوا مركبته للقتال خلال الحروب الصليبية وذلك حوالي النصف الثاني  
من القرن الثالث عشر والنص في مخطوطة عنوانها = "كتاب التعريف بالاصطلاح الشريف" المطبع  
تأليف شهاب الدين ابي العباس احمد بن فضل الله العمري ، حيث نرى اشارات الى  
"عقارب البارود المصروية" . . . . . (التي) امتدت كانها سحاب وهددت كانها رعود واضطمت  
كانها حريق وجعلت الكل رمادا (٣) . وكذلك فقد روى المؤرخون الفرنسيون ان  
الملك فيليب اوفسطور قد احرق الاسطول الانكليزي في ميناء ديباب بالنبران اليونانية .  
وبما ان هذه النار لم يكن لها معامل في فرنسا اذ ذاك "فلا بد من ان يكون الملك  
المذكور قد طلبها من معامل عكا" كما ورد في الكتاب الذهبي ص ١٤٢ .  
وفي منتصف القرن الثالث عشر انتشر بين الافرنج استعمال الاسلحة الثلية  
وغيرها من صنع البلاد الشرقية الاخرى فكانوا يتعاونون من دمشق السيف "الفرنجية" من  
صنع اليمن (٤) .

وكذلك نرى ان الافرنج مدة اقامتهم في الديار الثامية قد استفادوا من  
اخبارات العرب في فن الهندسة الحربية فاخذوا عنهم اساليب بناء الحصون والاستحكامات (٥)

(١) لمعنى مداة انظر اسامة ص ٦٧ - (٢) الكتاب الذهبي ص ١٤٣ - نفسه - (٣) راي  
ص ٢٩ - ٣٠ - (٤) الكتاب الذهبي ١٤٣ راي ٣٨ .

كما حسنوا كثيرا في وسائل الدفاع في اواخر القرن الثاني عشر حتى ان احدث مؤرخي العرب في ذلك العهد يذكر ما كانت عليه " فسي " النشايين الافرنج من الدفة والشدة على جيش صلاح الدين لدى محاصرته طرطوس سنة ١١٨٨ هـ اذ كانت تنقل اوت الى صفوف المسلمين من ابراج الحصن دون ان يتمكنوا هم من اصابة المدافعين عنه (٢٦)

وبذلك يكون الافرنج قد استطاعوا بفضل المهندسين الشاميين والارمن التضلعين من العلوم الدقيقة " ان يصعدوا في النصف الثاني من القرن اللطيفين الثاني عشر للمجيء المسلمة .

ثم ما لبثت الفلأه من بينهم ان اخذوا انفسهم بهذه العلم والفنون حتى اتقوها وقد ذكر احد مؤرخيهم انه في سنة ١٢٣٩ استطاع احد مهندسيهم *Anseau de Brie* ان يصنع آلة مدهدة تستعمل في حصار القنطرة في جزيرة قبرص (٢٧)

ومما اقتنسه الافرنج عن العرب وله علاقة بالروب اتخذت النار ليللا وحمام البطاق نهاراً لنقل

الاخبار المستعجلة (٣) او اعطاء إشارة الخطر لانقاذ شرمدهم اوجيش مهاجم كما انهم اصطنعوا لانفسهم الحواسيب في بلاطات الملوك والامراء بواصلونهم بالاخبار سرا . وكثيرا ما كان بعض اطباء يقومون بمثل هذه المهمة في سبيل اخبر والتفاهم ومن ذلك ايضا اتخانهم الوباء العكبرية في المبادئ الحربية واستخدام الطبيل والزرر رغبة في بعث الحماس في قلوب المقاتلين . (٤)

ولا يسعنا الا ان نذكر ابط ما قلد الافرنج به المسلمين من عادة اتخاذ " الرنوك " او الدعار وكبرا ما كانت هذه نرسا يحل إشارة الامير او الملك . ويرجع تاريخ هذه الشارات الى القرن الحادي عشر فما لبث ان عم استعمالها وتنوعت اشكالها في القرن الثالث عشر (٥)

وكذلك اقتدى القوم بالشرقيين في الاصطلاح على علام لتميز الانساب وبذلك دخل علم هذه العلامات الميزة للاسر المالكة والشريفة الى اورونة . وكان لهذا تاثير في ترقية الفنون الجميلة وفي الحياة الاجتماعية كما يقول الاستاذ الدكتور فليدب حتى .

صور حقا لنقد كانت قهور الامراء الغربيين في المقاطعات الافرنجية تبدو غريبة المظهر لم يكن فيها من الفرسان والمشاة وهم يروحون وسعدون بالسهم المتنوعة واسلحتهم المختلفة برطانون بلغاتهم العديدة وتميزون باجناسهم المتباينة .

(١) الكتاب الذهبي ٣٨ ١٤٤٠ راي (٢) راي ص ٣٨ - ٣٩ (٣) الكتاب الذهبي ١٤٤٠ راي ٤٣ (٤) الكتاب الذهبي ١٤٣ ص ٥١ (٥) نفسه ص ١٦

وأما رجال الاقطاع فكانوا ايضا يحددون في بيوتهم من الحشم والخدم ما يشكل مع تـ  
الحاحب والكاتب والطبيب حامية ضخمة وكثيرا ما كان هذا الأخير من اهل البلاد المسيحية  
او المسلمين ام اليهود<sup>(١)</sup> ولم تكن نملد وهم أقل ميلا الى اقتناء الخدم من الغربيين، واعتيد الارقاء من الشرفيين

وذكورا وانانا، يسترينهم عادة من اربنية وغلبان يكون بينهم السودانيون والسودانيات  
ياتي بهم النحاسون الاحباش الي سوق حدة في الحجاز ثم تنقلهم القوافل الكعابة العائدة  
الي ا من اليمن . هذا فضلا عن انخذلذهن الخصبان لخدمتهن الخاصة فقد نقل عن  
الملكة تودورا الارملة بنديوس الثالث انه كان في حاشيتها منهم عدد غير قليل اصطحتهم  
معها عندما عازمت على الاعتزال في دير القديسة حنة في القدس<sup>(٢)</sup>

#### الصدقات

ولعل اروع ما يوتر عن حياة العرب والافرنج خلال الحروب الصليبية تلك الصدقات  
التي ربطت بين القلوب واحكرودها فخلعت حوا من التفاهم ووتبادل الاحترام ، جعلنا نعتقد  
ان الانسان مهما قويت فيه حيوانيته وطغت عليه مطامعه ، فانها تبتو في نفسه زاوية  
فيها من اخبر والصلاح والحمال بقية تنتدله من حضن المادة ترتفعه الي اوج المسو  
الرواحي .

واهل احمى الصدقات ما عقدت عراها بين قلبي خصمين كاد كل منهما يودي بالاخر لولا  
ان اكتشف الواحد منهما فجاة في صاحبه انسانة حملته بغض عينا من هناك ليملاه  
الاخبر بحسناته .

وهل ابعث على الطمانينة الي ما نذهب اليه مما نقلته لنا المراجع المختلفة من عبر هذه

هذه الصدقات وهالماحاه منها في كتاب الاعتبار للافرنج<sup>(١)</sup> اللهم اسامة ص ٨١ حيث  
يتول متكلمة عن نفسه .

"كنت اتردد الي ملك الافرنج قلك الخاص ملك القدس في الصلح بينه وبين جمال الدين  
محمد بن تاج الملوك ( امير دمشق وقتئذ ) رحمه الله ، ليد كان للوالد رحمه الله علي بنديوس  
الملك والد الملكة امراة الملك فلك الخامس م

وهالتمثلا اخرا ليقول روعة عن سابقه جاء في صفحة ٩٠ من نفس الكتاب المذكور وذلك

ان مو دوسلين الاول صاحب تل باشر بما افار علي الرقة والقلعة بوهي لنجم الدولة مالك بن  
سالم . فاخذ كل ما عداها وسبو وساق غنائم كثيرة ونزل مقابل القلعة وبينهم افرات .

(١) نفسه ص ٨٤٦ (٢) نفسه ١٠٦

فركب نجم الدولة مالك في زورق وعبر الفرات الى جوسلين وبينهما معرفة قديمة  
ولمالك عليه جميل ٠٠٠٠ فقام جوسلين والتقاء واكرمه ورد عليه جميع ما كان اخذه  
من الثنائم والسي .

ودونك مثالا ثالثا يكشف عن ناحية نحن في صدها .

" ثم ملك بخدوين ( الثاني ) انطاكية . وكان لابي وعي ( اسامة بتكلم )

عليه جميل كبير حيث كان اسره نور الدين بلك ( صاحب منطقة شمال اوزن ) ٠٠٠٠  
فحمل البنا الى مدينز لتوسط ابي وعي ٠٠٠٠ بيعه فاحسنا اليه . فملك ( بخدوين  
هذا ) كانت لصاحب انطاكية علينا ~~نظيمة~~ قطبعة قيمتها اربعة آلاف دينار وضعها  
تفكر سنة ١١١٠ ) سامحنا بها وصار امرنا في انطاكية نافذاً ص ١٢٠ - ١٢١ من  
كتاب الاعتبار . وناهيك بصداقة اسامة نفسه للداوية وهاك ما بحدثنا هو نفسه  
عنها في ص ١٣٤ - ١٣٥ اذ يقول " فكنت اذا فخلت المسجد الاقصى ( في القدس )  
وفيه الداوية وهم اصدقائي يخلون لي ذلك المسجد الصغير اصلي فيه . "

واخبرنا تختم هذه السلسلة بذكر نفوذ آخر منها بدل على مبلغ ما

تركت عوائد العرب واخلاقهم في نفوس البعض من اولئك الافرنج ممن صفت نفوسهم  
فانطبعت على صفحتها صورة حبة من فروسية العصر الجميلة . " فمن ذلك انني

( اسامة بتكلم ) نعدت صاحباً الى انطاكية في شغل . وكان بها الرئيس تادرس بن الطه  
الصفى وبنو وبينه صداقة . وهو نافذ الحكم في انطاكية ، فقال لصاحبي يوماً " فقد

دعاني صديق لي من الفرنج لتجني معي حتى ترى زهم قال " فمضيت معه . فجيئنا  
الى دار فارس من الفرسان العتق الذين خرجوا في اول خروج الافرنج . فاحضر  
مائدة حسنة وطعاماً في غاية النظافة والجودة . ورأيت منوقفاً عن الاكل فقال = كل طيب  
النفس فانا ما أكل من طعام الفرنج ( كذا ) . ولا يدخل داري لحم خنزير . فاكلت .

وانصرفنا . فانا بعد مجنازا في السوق وامرأة افرنجية تعلقت بي وهي تبريرلسانهم

وما ادري ما تقول فاجتمع على خلقي من الفرنج فابقت بالهلاك واذا ذلك الفارس قد  
اقبل فرأيت فجاء فقال لتلك المرأة " ما لك ولهذا المسلم . قال " هذا قتل اخي

فارس ( ) مكان هذا فارساً قتله بعض جنود حماة . فصاح عليها وقال

" هذا الرجل برصاسي ( اي تاجر ) لا يقاتل ولا يحضر القتال " وصاح على اولئك المصمحين

فنفروا واخذ بيدي ومضى . فكان تاثير تلك المواقلة خلاصاً من القتل ص ١٤٠ - ١٤١



ولو اردنا ان نسرده اكثر ما لدينا من اخبار هذه الصداقات لطال بنا الامر فنؤثر ان نكتفى بهذا القدر منها مع التنويه بما كان بين ريشار قلب الاسد والملك العادل وما كاد يتم بفضل من زواج بين الملك الابوي واخت الملك الانكليزي (انظر غروسيه ج ٣ ص ٢٨٠) (كتاب الروضتين في اخبار الدولتين ص ٩٣) هذا ولئن ادت مثل هذه الصداقات التي كانت ما بين سنة

١١٩٢-١٢٤٩ الى تلطف جو العلاقات السياسية والاجتماعية فان لنا في علاقة فردريك الثاني ملك صقلية واماطور جرمانية ما يدخل عليها "عنصرا جديدا هو عنصر التفاهم الثقافي" فتكون بذلك قد بلغت منتهى مداها واقصى حد الجمال فيها . وكفى بهذه خاتمة تعبق بريح الفروسية نفق عندها لننتقل الى موضوع آخر هو موضوع العلاقات الاقتصادية ولعلها لا تقل بانرها واهميتها عن سابقاتها ما ذكرنا ولاحقاتها مما سنذكر فيما بعد من الروابط الثقافية .

### الحياة الاقتصادية في " مملكة القدس " وملحقاتها - الزراعة .

لقد كان المجتمع في "مملكة القدس" وملحقاتها يتكون كما راينا من طبقة الارستقراطيين الذين منهم الملوك والامراء والفرسان وفي يد هؤلاء جميعهم كما بينا ، سابقا ، الحكم والقضاة والحرب ثم ياتي بعدهم ، اكرية السكان من يكدهون في سبيل العيش واستمرار الحياة من ارباب التجارة والصناعة والزراعة وتم قوام الانتاج في الدولة وعليهم المعول في ايام الحرب والسلم . ونريد الان ان ندرس حالة هذه العناصر الثلاثة بادئين بالزراعة منها . فقد كان ارباب الزراعة ، على الدوام ، بولفون مجموعهم العنصر السلدي الاصيل وظلوا على مر الاجيال والقرون وتعاقب الغزوات والفتوح ، يشكلون النواة الحية في الشعب ان في الجبال والسهول (بطون الوديان ولا عجب ان استمروا بكونون الطبقة المنتجة في ظروف البلاد المختلفة وعهودها المتباينة اما الاراضي التي كانوا عليها يحملون وفي سبيل اجائها يكدهون . فكانت ملكا لابناء الطبقة الارستقراطية الذين اقطعها لهم السلاطين والملوك والامراء بحكم قياسهم بمهمة الدفاع عنها ضد عدو مهاجم او خصم دفعته مطامعه الى اغتطبها وعلى هذه الصورة نشأت مع الزمن فئة الاقطاعيين الذين كان لهم الحق في نملك الاراضي بما عليها من قرى وديساكر ومزارع وكان من واجبهم الدفاع عنها وحماية العاملين عليها في الفلاحة والبذر والصبابة وجني المحاصيل وهم مجموع المزارعين والفلاحين .

غير ان هذا الشكل من الاقطاع وان لم يات الا فرج الى البلاد به ، فانهم قد اقروه دون ان يزيدوا عليه مما في اقطاعهم من تحسف المتنوع بالتابع اذ ان كل ما يفرضه الواجب على اولئك " الاقنان " الكد في سبيل جنى المحاصيل المختلفة واقتسامها مع " السيد " حسب الاتفاق .

وليس هناك من واجبات اخرى تربطه به اللهم الا واجبات الولا والاخلاص وتموينه بما يحتاج اليه من ارزاق يقدمها له رجاله من الخيالة والرحالة ممن يقومون على حماية الاقطاع وارضيه .

وكانت الاقطاعات الكبرى تقسم الى رساتين اصغر تتالف منها القرى والديساكر والمزارع . وكان لهؤلاء الفلاحين " الاقنان " في كل قطيعة مرجع اداري هو الرمس او المختار على لغة البع وكان هذا عادة من ابناء الطائفة ذات الاكثريه في القرية او الديسكرة او المزرعة .

تلك كلمة موجزة عن طبقة الفلاحين وعلاقتهم بالارض تلك العلافنة التي تجعلهم مرتبطين بها ارتباط جاة وموت . ينتقلون معها بانتقالها من يد الى اخرى دون ان يكون لها سمة العبودية فيسامون مر العذاب .  
والان فعاد ا كانت حالة الزراعة في ذلك العهد .

يظهر انه بالرغم مما كان من مواقع حربية وما نتج عنها من تخريبات قد بقيت الزراعة حية نشيطة لم يصبها من التعطيل الا القليل بدليل ما جاء عن تلك الاراضي في وصف الرحالة الاندلسي لها ولما عليها من مزارع ومحاصيل حين مروره فيها في اواخر القرن الثاني عشر وهو على طريقه الى بلاده عائدا من الخجاز حيث ادعى فريضة الحج فقد جاء عنها (ص ٢٦٨) قوله بشأن مقاطعة الكرك = " شاهدنا في هذا الوقت . . . . . خروج صلاح الدين . . . . . لمنازلة حصن الكرك وهو سرارة فلسطين

وله منظر عظيم الاتساع متصل العمارة بذكر انه انتهى الى اربعمائة فرسة " .  
وسا بلغت النظر الى القوم من افرنج ومسلمين كانت قد سادت بينهم روح من التساهل والتسامح ما جعلهم يعبدون " واهل الحوب يشتغلون بحربهم والناس في عافية . . . .  
ولا تعترض (الحرب) الرعابا ولا التجار " فالامن لا يفارقهم في جميع الاحوال سلما او حربا " .

وقد جاء أيضا ص ٢٨٢-٢٨٣ لدى كلامه عن بانباس . وكانت بيد  
الافرنج واسترجعها نور الدين قوله \* ولها (بانباس) محرت واسع في بطحا متصلة  
وعمالها بين الافرنج وبين المسلمين . . . . . فهم ينشأطرون الغلة على اسنوا ومواسمهم  
مختلطة ولا حيف بحرى بينهم فيها . . . . . واجتزنا في طريقنا بواد ملتف الحجر واكثر  
الرند بعيد العمق كما كانه الخندق السحيق الهوى تلتقى حافته ويتحلف بالسما  
اعلاه . لو ولجته العساكر لغابت فيه . \*

وكذلك كان اولئك الفلاحون من المسلمين على حالة من " الترفه " مع  
الافرنج مما يدل على مبلغ ما توصل اليه القوم مع الزمن من " اعتدال في السياسة "  
وحسن تصرف الامور وتفهم صحيح للغاية الحقيقية من الحياة . وهاك دليلنا على  
ما نذهب اليه ما يورده رحالتنا في ص ٢٨٤ حيث يقول = \* ورحلنا عن تهبين  
وطريقنا كله على شباع متصلة وعماير منتظمة . سكانها كلهم مسلمون وهم مع الافرنج  
على حالة ترفه . . . . . وذلك انهم بوهدون لهم نصف الغلة عن اوان ضمها وحزبة  
على كل راس دينار وخمسة قراريط ولا يعترضونهم في غير ذلك ولهم على نمر الشجر  
ضريبة خفيفة بوهدونها ايضا ومساكنهم بايديهم وجميع احوالهم متروكة لهم . \*

ولم تكن الحالة في الساحل وسهوله لتقل عما كانت عليه في الداخل  
وان في السهول او على الجبال اذ اننا نسمع ابن جبير يقول = \* منزلنا بضبعة من  
ضباع عكة على مقدار فرسخ ورئيسها (المختار) الناظر فيها من المسلمين تقدم من  
جهة الافرنج على من فيها من عمارها من المسلمين فاضاف جميع اهل القافلة ضيافة  
حفيلة واحضرهم صغيرا وكبيرا في غرفة منسعة بمنزله وانا لهم الوانا من الطعام قدمها  
لهم فعمهم بتكرمه وكنا فيمن حضر هذه الدعوة \* ص ٢٨٤ - ٢٨٥ .

وبعد حديث طويل يسوقه الرحالة بصدد عكة وصور يقول \* وهانان  
المدينتان عكة وصور لا بساتين حولهما وانما هما في سيط من الارض افبح متصل بسيف  
البحر والفواكه تجلب اليهما من بساتينهما التي بالقرب منها ولهما عمالة منسعة  
فالجبال التي تقرب منها معمورة بالضباع ومنها تحنى الثمرات اليهما \* ص ٢٩٢

هذا ما جاء عن الزراعة وما افاد منها الافرنج وافادته من رعايتهم  
لها ولاهلها في شرق الاردن وفلسطين ولبنان الجنوبي غير انها لم تكن اقل ثانا  
من ذلك فيما تلقى من الديار الشامية . وهذا ما يصرح به رحالتنا حيث يقول عما

بختصر بما بين حلب ودمشق = "وقبشرين هذه هلى البلدة الشهيرة فى الزمان لكنها خربت وعادت كان لم تكن بالاسر . . . . . ولكن قراها عامرة منتظمة لانها على محرت عظيم مد البصر عرضا وطولا . . . . . ثم اسحرنا وربنا عن بعبن طرفنا . . . كور بلاد المعرة ، وهى سواد كلها بشجر الزيتون والتين والفسقق وانواع الفواكه . ويتصل التقاف بساتبعها وانتظام قراها مسبرة بومين ، وهى من اخصب بلاد الله واكثرها ارزاقا . ومن وراها جبل لبنان (كذا) وهو حد بين المسامين والفرنج لان وراها انطاكية واللاذقية وسواهما من بلادهم " . ص ٢٣٣-٢٣٤ . ودونك ما ما بقوله عن حماه " وبخارج هذه البلدة بسيط فسيح عريش قد انتظم اكثره شجرا والاعناب وفيه المزارع والمحارث وفى منظره اشراج للنفر وانفسال والبساتين متصلة على شاطئ النهر " ص ٢٣٦ .

تلك كلمة عامة عن الزراعة فلنخصر الحاصل منها بكلمة ان كانت تلك الحاصل سببا لثروة ضخمة نتج عنها كركة صناعة تجارية عظيمة . فكم ذلك احراجها وغاباتها فبالرغم من المظهر الاجرد الذى يظهر به جبال هذه الديار الشامية فى امامنا هذه فقد كانت فى ذلك العهد تغطيتها الغابات الكثيفة وترسبها الاحراج المختلفة . وهذا ما تحدثنا به كتبه ذلك العصر من مؤرخين ورحالين وسواهم ان انهم يشيرون الى ان منطقة انطاكية كانت كبيرة الغابات بل لعلمها اكثر مناطق البلاد احراجا . فالجبل الاسود وجبال النصبية كانت تكسوها غابات الارز والذاه بلوط والفسقق الحلبي وكذلك كان بكثر الصنوبر فى الجنوب الغربى من مره ولعل غلبوم الصورى قد عناها بقوله ص ٧٨٩ من مؤلفه ١٧ (١) اما جبال عكار فكانت تغطيتها فضلا عن الصنوبر غابات العرعر وغيره من انواع السنديانة المختلفة . وكذلك تحدثنا جاك دوفترى ان حشب العرعر فى لبنان كان يعتبر من الخشب الذى لا ينطرق اليه الفساد (٢)

وكانت مدينة بيروت تنعم ايام غلبوم الصورى بغاباتها الصنوبرية وقد ذكرها الادريسي اكبر جغرافى ذلك العصر وحدد سعتها باننى عشر ميلا وهو بذلك غابات الجبال المجاورة لها .

---

(١) المستعمرات الافرنجية لراى ص ٢٣٦ - (٢) نفسه ص (٣) بيروت تاريخها  
وانارها ص ٣٣

وسظهر ان مقاطعة الشوف قد لازمها سوء الطالع اذ كانت اشجارها تنمو

لضربات الفوهوس وكذلك كان حظ الساحل الممتد بين صور وهكّة (٢٣٩ راي )

اما احراج جبل الشيخ فكانت تمتد من سفحه حتى بلدة بانهاس

وكانت من الاتساع والعظمة بحيث عرفها مؤرخوا الافرنج باسم . ( )

وكان في بلاد الخليل غابنان احدهما في عرّابة والنانية جنوب الناصرة تمتد

من جبل الطور حتى شفا عمرو وقد ورد ذكرها في المراجع اللاتينية تحت لفظ

كما ذكر راي ص ٢٣٩ وهي كذايات جنوب قيسارية كان اكثرها من الشاء بلوط .

اما في جوار القدس فكان بعض الغابات تمتد بقرب سمّاس (قبيلة ) وبين كازم .

هذا بشأن الغابات والاحراج واذنا ما انتقلنا الى دراسة بقية

الحصولات نتبين مما جاء في قوانين الافرنج ان " تلك المحصولات كانت تقسم على

الطريقة التالية = حصة تتراوح بين الربع والثلث تقدم الى " السيد " والباقي

يكون من نصيب الملتزمين ا هذا مع العلم ان ابن جبير يقول انهم كانوا بتشاطرونها

على السواء اي بالانصاف . اما قائمة الحبوب لذلك العهد فتكاد تكون نفسها

لابامنا هذه وهي القمح والشعير والذره والارز والدخن والعدس والبقول والسمسم

وقد عثر على هذه الاسماء وارده في قائمة " العشر " الذي كانت تنقاضه كبسة

القبامة لذلك العهد .

ومن المحصولات الزراعية ايضا = القطن والكتان وعروق الصباغين

والزعفران والنيلة .

اما بساتين الفاكهة والخضار والبقول فكانت منتجاشها عادة = الرمان

واللبمون على انواعه وخاصة منها " اللبمون الحلو " الذي كان يعرف وقتئذ " بلبمون

انطاكية " والبرتقال والانرج واللوز والتين على انواعه والدراق وغيرها كثير .

وكانوا يعنون ايضا بزراعة شجيرات عدة من ذوات الازهار العطرية

كالورد والاكاسية (الطلح ) والكشمش والقرنفل والزنبق والريحان والنجوس والبنفسج

وهرائس النيل والحنة .

وكانت مزارع الزيتون كثيرة وتقم عادة عند اقدام التلال حيث

تتراكم التربة الخصبة الصالحة لانماها .

ومن الثوريات المزروعات الهامة النخل الذي كان يكثر في جوار حمص وتدمر  
كما في النور وبيسان ولعل أشهر منتجاته كانت في اربحا . وما كانت تكثر زراعته  
في ذلك الوادي الموز وقد سماه جاك دوفنري "موز الحنة" .

ومن الخضار الشهيرة لذلك العهد البطيخ "الاحمر" وقد شهد ابن البيطار  
العالم النباتي الشهير ان هذا النوع المجنى منه في صدد كان من اجود الانواع  
في سورية وما عدا ذلك فقد كان الخيار والقرع والبامبا والهليون .

ولقد ذكر الادبجي "النبيلة" وحدة عنابة القوم بها في وادي الاردن . كما  
كانت مزارع قصب السكر تكثرها هنا ايضا وقد بلغ من عنابة الافرنج به انهم غفوه  
من الضريبة تضحيعا لزراعته فانتسعت على طول الساحل من طرابلس الى صـ (٢)  
هذا فضلا عما كان من مزارع له بالقرب من البحر الميت وكان المحصول منه يعرف  
بند الافرنج "بسكر الكوك والشويك" .

ولم تكن عنابة القوم بزراعة التوت لتقل عنها بزراعة ما سبق ذكره كما اشتهرت  
بمزارع القطن في جوار اللاذقية وطرابلس وغيرها .

ولا يجب ان ننسى الكرمه ان كانت العناية بها تفوق حد الوصف وذلك  
لنورها على انواعه ولعصيرها ايضا . (٣)

ولورحنا الان نقابل بين ما كانت عليه الزراعة في الديار الشاميه وما  
كانت عليه في الديار الغربية الاوروبية في ذلك العهد لراينا الفرق عظيما والبون  
شاسعا . وهذه الحقيقة نفسها تجعلنا نستنتج ان ما افاده القوم في هذا الحقل  
يجب ان يكون متناسبا مع الزمن الذي قضوه في البلاد بحيثكون باهلها وطرق زراعتهم  
واسبابها وتنفقا مع درجة تاخرهم وتقدم العرب فيها .

وما اتفق عليه مؤرخو الصليبيين كذليلهم الصري وحاك دوفنري انهم  
ما كادوا يتعرفون الى السكر وحلاوته في اوطانهم الحديدية حتى يادروا الى نقل  
زراعتة نصه الى بلادهم .

وكذلك فقد نقلوا الليمون والبطيخ والشمش والخوخ والاجاص الكثرى  
وسعود "الفضل" في نقل اشجار الخوخ لاوروبا (لاوروة) الى الكوت دنجو وفي الشمش  
لعدة طويلة يعرف في اوروبا باسم نمر دمشق .

ومن حملة ما نقل من الحاصلات الزراعية الى اوروة \* عن طريق سورية  
وهي من اصل هندي او بنى \* . النمر الهندي والافاديه والطوب والبهارات  
واخصها القرفة ، وكذلك من القطاني = الذرة الشامية .  
ونستطيع ان نقرر انهم نقلوا ايضا زراعة السمسم وللخروب والدخن  
والارز والليمون والبطيخ والتوم وذلك بدليل ان اسماء بعض هذه المزروعات في بعض  
اللغات الاجنبية يقرب بلغة من الاصل العربي . اعتبر ذلك في (١)  
السمسم وفي الخروب وفي الليمون وفي اوبصل لمسقلان .  
وما له علاقة بالزراعة " النواعير " والدواليب الهوائية التي لم  
تظهر في نورماديا الا في سنة ١١٨٠ وكذلك الدواليب المائية فانها  
تنضح باصلها العربي " الناعورة " ولكن وجدت هذه في اوروة قبل الحروب الصليبية  
فما لا شك فيه ان القم عد عادوا من الشرق بنموذج منها وتداول عليه تحسينات  
حمة (٢) . وفي هذا كتابنا علنا ننقل الان الى درس الصناعة وما كان لهم منها =  
(٢) - الصناعة .

ان بلادا كالديار الشامية تكون الزراعة فيها على الحالة التي شاهدناها  
في الصفحات الصالحة وان شئنا نسيطا كالتاميين مع ما عرف عنهم من حيوية وذوق وحب  
للكسب اتوا ان بلادا كهذه وشعوبها كشمسها لا بد وان تكون صناعتها نامية متقدمة  
وذلك لوفرة المواد الخام فيها وكثرة معادنها بلاضافة الى ما راينا من عديد محاصيلها  
الزراعية . ويظهر ان الصناعة بمختلف فروعها قد بقيت من اختصاص العرب واليهود من  
بين شعوبها ايام الحروب الصليبية .  
اما فروعها الكثيرة فنعد منها = صناعة الخزف والزجاج والحلي والنسيج  
على انواعه \* ومراجعتنا في دراستها وتتبع حالات تطورها - لذلك العهد - مؤلفات  
الصليبيين والشرقيين والنماذج التي خلفتها لنا وحفظتها المتاحف العامة والمجموعات الخاصة ٣  
ويحدثنا الادريسي عن حركة صناعة قوية في كل من المدن الانية ذكرها .  
بافا ، بيروت ، صور ، دمشق . وقد كانت صناعة الفخار فيها متقدمة بجمل مصنوعات اورد بيع  
منتجاتها لما عرفت به من دقة في الصنعة وبها في المظهر لا سيما المطلوبة منها بالبنا \*

(١) تراث الاسلام . باركر ص ١١٧ - (٢) تاريخ العرب . حتى ص ٦٦٧-٦٦٨ .

(٣) رأي ص ٢١١

وكان الخزف الشامي من السلع الهامة في تجارة المستعمرات الافرنجية ويظهر هذه الحقيقة جلية من مراجعة "مجموعه قوانين القدس" (١) ويتضح مثل هذا من بنود المعاهدة التي عقدت بين "امارة بيروت" وجمهورية جنوا سنة ١٢٢٣ اذ نطالع فيها ما يلي = "ان المصنوعات الفخارية المختلفة كانت من السلع البيضاء" من الرسوم المحركة".

اما مدافعة الزجاج فكانت من اختصاص اليهود في صور واما كما ان صناعة الخزف كانت مما امتازت بها صور ودمشق آنذاك وكانت صا درات الاخيرة منهما تحمل الى اوروية باسم "فخار دمشق". وكثيرا ما كانت هذه من النوع "القيصاني". (وهو الفخار المطلي بالبيضا البديعة الحسن الزاهية الالوان) وشاهد منها حتى اليوم فيما تبقى من قطع احتفظت بها بعض المتاحق والبيوت الكبرى في دمشق وحلب وغيرها من المدن الشامية الكبرى. ويذكر ان منها قطعة في متحف سبفر ولاعجب اذا علمنا ان هذه الصناعة الجميلة صناعة الخزف قد بلغت اوج تقدمها في دمشق وابقان القرن الثالث عشر وظلت محتفظة بمكانتها في دمشق حتى غزوة التتر للبلاد عندما قضى عليها تيمور بنقله ضاعها الى عاصمته سرفند في مطلع القرن الخامس عشر.

وقد جاء في "معجم الاثناث في القرون الوسطى" ما يلي = "وان للقيصانيات الشامية اثرها البين في تقدم صناعة الخزف الفرنسية في اواخر القرن الثاني عشر وقد كانت هذه القديانيات نفسها نماذج احتذبت ايضا في جنوبي فرنسا ايضا" (٢). وما يذكر على سبيل المثال، صفائح مطلية بالبيضا الصفرا والخضرا، مزدانة برسم عربية انزلت تلك الصفائح في واجهة بناية بلدية سان انطوان المتبيدة في القرن الثاني عشر ويلاحظ انها نسخة عن فخار قد استورد عبر البحار وآية ذلك ما فيها من مظاهر الصنعة العربية وما بزخرفها من الخطوط الكوفية مع احتفاظها بطابع القدياني القديم المصنوع اما في الشام او بلاد العجم وما خلفه لنا الادريسي الجغرافي الشهير بشأن صناعة نسج الحرير. وكذلك فان صور وطربلس وانطاكية وطرطوس قد حازت جميعها شهرة واسعة في الشرق



والغرب بمصنوعاتها الحريرية . وكانت مصنوعات صور على قول الادريسي من افخر الاخشار  
فتمتاز بجمالها على غيرها من نضجات الشام وكان مرغوبا بها جدا في الخارج . كما  
كانت طرابلس تفاخر ايضا بمسجاتها المبرقشة وقد قدر  
لدى زيارته للمدينة سنة ١٢٨٣ ان عدد ضاحي الحرير ووبر الجمل لم يكن يقل عن  
اربعة الاف عاملا (١) .

وبالرغم من تعدد الحكام على مدينة انطاكية خلال العصور فقد  
احترت - على قول غلبوم الصوري - في عهدها الاسلامي الصناعات الميكانيكية  
التي كانت دائما من اختصاص الشاميين من سكانها ودونك ما يلاحظه الادريسي  
بشان صناعة الحرير فيها " يصفون في هذه المدينة اقمشة جميلة بالوانها المنسجمة  
ومن ابدء منسوجاتها الحريرية المبرقشة والديباج " (٢) .

ومن المنسوجات الفاخرة " المخملية " وهي اقمشة كانت  
تصنع في مدن الشام كلها وخاصة في طرابلس ولطربوس وكانت على اربعة انواع =  
(١) منها ما هو مصنوع من وبر الحمل (٢) او وبر الماعز (٣) من صوف الغنم (٤) من الحرير  
والظاهر ان هذه المنسوجات كان يرغب بها الاوروبيون كثيرا بدليل ان جوفانبل لدى  
زيارته لمدينة طربوس حاجا كلفه الملك لويس التاسع ان يتناح له كمية كبيرة مسن  
المخامل " ليقدمها لبعض المؤسسات الدينية (٣) .

ومن المنسوجات التي كان يطلبها البلديون والافرنج على السواء  
اليسط والسجاجيد التي دخلت صناعتها الى الشام ومن هنا انتقلت الى فرنسا  
في القرن الثاني عشر (٣) .

وهناك عدا ما ذكرنا من الصناعات صناعة المدروبات الروحية  
كالجعة التي كانوا يتخذونها من الذرة والشعير وكان يصنعها الشاميون والافرنج  
ويقدرونها في كتاب الروضتين في تاريخ سنة ١١٢٩ ذكر على قول راي غير نفالم  
نعثر على شيء منه .

ومن الصناعات الهامة صناعة السكر ولقد شاهد الرحالة بورشاردت  
سنة ١٨٠٩ في الضرور بقايا معاصر السكر التي يرجع عهدها الى القرون الوسطى

(١) ص ٢١٥ راي - (٢) نفسه ص ٢١٦ - (٣) نفسه ص ٢٢٠-٢٢١ .

وهي تسمى حتى ايام راي بطواحين السكر . ولقد شاهد راي كما صرح ص ٢٤٩  
قرب اريحا بقايا معصرتين للسكر ولكن الافرنج احتفظوا بالاسم العربي لها وهو معصرة  
اما الصابون فقد انشئت المصانيع العديدة لصنعه في انطاكية وطرطوس  
وعكة ونابلس وغيرها وكان استعماله قد عم في القرن الثالث عشر واسبغت صناعته  
على شئ كبير من الاهمية في المستعمرات الافرنجية حتى انهم اتخذوه له المتاجر  
الخاصة ايضا (١) .

ومن الصناعات التي احتكرها ايضا اليهود دون سواهم في كل من اللاذقية  
وطرابلس والخليل والقدس صناعة الاصباغ وصناعة الدباغة وتحضير الفراء . وكانت صناعة  
التعددين ايضا نامية جدا . فان ابن بطوطة يذكر ان بيروت كان تجلت فيها الو ديار  
مصر . . . والحديد (٢) وكان هذا يستخرج من الجبال المجاورة لها . كما ان الادرسي  
يحدث كثيرا حودة الحديد اللبناني وصلاحه لصناعة الاسلحة الشهيرة في مدينة دمشق  
ولعله من الخير تخصص صناعة الزجاج بكلمة اذ اشتهرت بها مدن عديدة  
منها صور وانطاكية والخليل وارا بلس ودمشق وعكة ويذكر غلبم الصوري ان هذه الصناعة قد  
ارتقت الى القاية القصوى في القرون الوسطى وان من معاملها خرجت تلك المصابيح البديعة  
والاكواب الجميلة والزجاجات المذهبية والمطلية بالبنا . وتحفظ متاحف اوروية بنماذج  
منها (٢) . وان ننسى فلن ننسى تلك الآنية المعدنية البديعة الحسن بانواعها  
واشكالها ويخص بالذكر منها النحاسية . فكم ازدانت بها قصر الملوك وبيوت الامراء من  
مسلمين وافرنج . ولم يكن ما يصنع منها للافرنج ليحلم رسوما بشرية فحسب بل كان  
ينقش عليها ايضا مشاهد دينية ويحفر على جوانبها حكم واشعار باحرف ذهبية مع  
احتفاظها بطابعها النصراني .

وهناك صناعة الحلوى التي كانت لها سوق رائجة وخاصة بها في القدس  
اذ تشتهر "قوانين الملكة" التي ان قيمة الذهب والفضة كانت يحددها بالملكي .  
ويقرر السيد فوجيه البجاعة النفقة " ان الشرق قسدا  
اهتم دائما بالحفر في الحجارة وهو يراجع حفر حيوانات لها علاقة بشعير الهلال النبلاء  
من الافرنج على حجارة ناسبة الى بعض الصناعات الشاميين الذين حضروها خصيصا  
لبعض النبلاء في البلاد المقدسة " (٣)

(١) ص ٢٢٢ راي رحلته ص ٣٥ - (٢) ص ٢٢٤ راي - (٣) ص راي

وكنبرا ما طلب نبلاء الافرنج الى جواهرين من العرب لصبخوا لهم  
ما يحتاجون اليه من حلى . هذا فضلا عن آنية كسبية عديدة كانت غنية بما  
رصعت به من ذهب وفضة او دق فيها من حجارة كريمة او انزل فيها من اللالى  
الغالية والعاج النعيم . كانت فى الحقيفة زينة الكنائس وبهجتها وقد توسع راي  
بهذا الموضوع ص ٢٣٠ - ٢٣٤ فى مؤلفه القيم = المستعمرات الافرنجية .  
والان ان الوقت قد حان لانن ننتقل الى درس التجارة وما نشأ  
عنها من علاقات وارتباطات كان لها اثرها العظم فى حياة الغرب خاصة .

### الحالة الاقتصادية

#### ٣ - التجارة

لم يكن فى استطاعة الطبقة الارستقراطية من الملوك والامراء مع وفرة جنوشهم  
البرية بمن فيها من فرسان ومشاة مهما اوتوا من شجاعة فى القتال ودراية فصول  
الحرب ان يفوزوا بما رموا اليه من فتح لولا المساعدة القيمة التى اتتهم من جانب  
الطبقة البرجوازية - التجار - التى كانت تتمثل برجال الجمهوريات الايطالية الثلاث =  
جنوا ، وبيزا والبندقية (١) وغيرها من مدن جنوبى فرنسا كمرسيلية مثلا وغيرها  
اذ كانت قد دفعتم شهوة الكسب (٢) والتوسع التجارى الى المساهمة فى ذلك  
المشروع الدينى فى ظاهرة والسياسى الحربى فى باطنه فجاؤوا بزيدون عليه  
العامل الاقتصادى . على انه يجب ان نذكر ان التجارة كانت فيه ابرز من الزراعة  
والصناعة اللتين باعتقادنا نمنا فيما بعد بحكم الظروف اما التجارة فكانت الدافع  
الحقيقى الاصيل عند هؤلاء المساهمين منذ البدء فى الاستيلاء على المرافى والمدن  
وذلك بمشاركتهم فعلا فى القتال ونموين الجيوش بالاطعمة والاسلحة جميعها والات  
الحصار منها خاصة (٣) .

ثم ما كاد ينتهى الدور الذى لعبوه فى فتح انطاكية وطرابلس والقدس (٤)  
ويقبة المدن والمرافى حتى استقروا فى البلاد وساهموا فى تنظيمها وادارتها بما  
نالوه من امتيازات خولتهم حق السكى واتخاذ المستودعات والاعفاء من الضرائب (٥)

---

(١) انظر ص ١٤٥ هاید - (٢) نفسه ص ١٣١ - (٣) ص ١٣٥ - (٤) ص ١٨٩ راي  
و ١٤٧ هاید - (٥) ص ١٥٨ هاید - (٦) ص ١٣٦ و ١٤٤ هاید

وراحوا عندها يقومون بالنوسط بين الشرق والغرب متخذين تلك المرافى الشامية مركزا لصفقاتهم فيشحنون منها ما يبتاعونه فيها من غلال الشرقين الادنى والاقصى الى موانئ \* الغرب في ايطاليا وجنوبي فرنسا (٧) ومن هنالك كانت توزع تلك السلع والبضائع والغلال الى داخل اوروبا . وشرقا وغربا وشمالا . فنشع عن ذلك كله ان ازديت حركة التجارة في الشرق (٢) عامة وفي الديار الشامية خاصة زيادة فانت كل ما عرف عنها في العهود السابقة (٣) ولا عجب فقد تفتحت امامها امصار واقطار لم يكن للشرق القديم عهد بها .

اما في الغرب فقامت حركة واسعة النطاق (٤) اذ ابقظت في اقاليمه النيام واسالت عندهم اللعاب بلاستيلا\* على ثروات الشرق الضخمة كما فتحت اعين شعوبه على كماليات في الماكل والمشرب والملبس وبقية مرافق الحياة من حربية وفكرية واجتماعية لم يكونوا ليعرفوا منها الى القليل (٥) .

ومحمد بنا ان نشير الى الطرق التي كانت هذه الحركة تتخذها في الشرق والغرب حتى نقف على الدور الهام الذي كانت تلعبه بعض المدن القديمة والحديثة في التقريب بين اسية واوروبا وربط شعوبها بروابط ثقافية واجتماعية زادت في دفع الغرب الى الامام في سبيله التقدم والرفى (٦)

نذكر من المدن الشامية انطلاقية ، اذ كانت على انطل نائم بمدينة حلب وهذه متصلة بالرقه وغيرها من مدن الفرات التي كانت مرتبطة بالمدين القائمة على دجلة كالموصل وبغداد فالبصرة على شط العرب . ومن هذه كانت تخرمراك العرب بحار الشرق الاقصى الى /مدينة مدنه ومالكه (٧) .

هذا وكان الاتصال مستمرا بين حلب ودمشق عن طريق حماه وحص فطريق الحج الشامي المتصل عن طريق مدن الاردن وفلسطين بالحجاز او بمصر . هذان طريقان للقوافل البرية ، اما المراكب والاساطيل فكانت عكة وصور وبيروت بين اهم المراسى لها في تلك الحركة التجارية الكبرى بحرا . وقد ترك لنا الرحالة الاندلسى ابن جبير شارة الى ما كانت عليه تلك التجارة فقال ص ٢٩٠ = \* وقبض

(١) ص ٣١٢ هابيد - (٢) انظر ص ١٩١-١٩٥ راي - (٣) انظر ص ١٨٩ راي -

(٤) نفسه ص ١٩٣ - (٥) ايضا ص ١٩٠ (٦) نفسه ص ١٩٢ - (٧) ص ١٩١، ٢٠٢

الله لهم (الاسرى المغاربة) بدمشق رجلين من مياسبر التجار وكبرائهم واغنيائهم المنغمسين في الشراء احدهما بعرف بنصرين قوام والناني بايى الدر باقوت ٠٠٠٠ ونحارتهما كلها بهذا الساحل الافرنجى ولا ذكر فيه لسواهما ولهما الامنا من المقارضين فالقوافل صادرة واردة بينضائعهما وثانها في الغنى كبير وقدرهما عند امراء المسلمين والافرنجيين خطير ٠٠ وهو ايضا يشير الى حركة القوافل المستمرة بين عكة ودمشق فيقول ص ٢٨٠-٢٨٢ = " ان قوافل المسلمين تخرج الى بلاده الافرنج وسيبهم يدخل الى بلاد المسلمين ٠٠٠٠٠٠٠ وخرجنا (ابن حبير في القافلة) الى بلاد الافرنج وسيبهم يدخل بلا المسلمين ٠ والاصباغ والعقاقير والتوابل والخزف الصيني والسجاجيد والابسطة والفراء ٠ ومن المرافىء الشامية كانت تنقل البهارات والطبوب والاصباغ والعقاقير والتوابل والخزف والسجاجيد والابسطة والفراء وغيرها من محاصيل الشرق والديار الشامية ومنتجاتها الصناعية الى الغرب (١) حيث توزع عن طريق البندقية فمصر برنر الى كولونيا في الداخل حيث المرافىء النهرية على الرين والموانىء على بحر الشمال (٢) وكانت "تزدحم المدن والشركات التجارية في القرون الوسطى على طول هذا الطريق مع لومباردبا على امتداد نهر الرين

هذا ولم تكن تلك الحركة لتستمر بدون امتداد المنافسة بين القائمين بها من جنوبيين وبيزيين وبنديقيين وفرنسيين من الجنوب (٣) ان كان التابق بينهم على اشداه في اكتساب رضى حكومات الافرنج في مستعمراتهم وعقد المعاهدات معهم طلبا لاحتكار نقل الجيوش والسلع والبضائع بمرآبهم هم دون سواهم ٠ وهكذا ظلت التجارة تسير حالة الحكومات الافرنجيسة قوة وضعفا حتى اذا ما انقضى العهد الاول وختم بكارثة حطين سنة ١١٨٧ تآثرت الحالة التجارية واخذت تعمل فيها عوامل الضعف كما آثرت فيها اسباب القوة من قبل ٠

اجل كانت تجارة الافرنج في عهدها الاول سنة ١٠٩٧-١١٨٧ تتقدم باطراد حتى غدا اربابها ذوى نفوذ سياسى قوى دفعهم الى التدخل فى شئون

(١) ص ١٣٧ هايد - (٢) تراث الاسلام ص ١١٨ ص ١٩١ راي - (٣) ص ١٤٢ هايد

و ١٤٧ - (٤) ص هايد ٠

الحكومات اولا ثم في المنازعات ناتجا مما ادى بالتجارة الى البوار بسبب كثرة الحروب فكان لا بد وان تنقل الحركة التجارية وتتركز في عكس التوزيع البها عدد كبير من التجار الافرنج وتجدد وفود الجاليات الاوروبية فكان بينها = الفرنسي والانكليزي والابيطالي والاسباني اخيرا . وراحت جميعها تتخذ السبيل الى التنافس مما اعاد الى التجارة بعض نشاطها السابق وانساعها ايضا فظهرت عندئذ صور ثم بيروت وطرابلس على المسرح من جديد.

وما يلاحظ في العهد هذا تدمير السلطات الافرنجية من تعامل الجاليات - وكلاء التجارة - وامتيازاتهم فاخذت تقلل منها شيئا فشيئا وكذلك راحت تزيد الرسوم الجمركية على البضائع المصدرة من بلاد "الكفرة" المسلمين ثم ما لبثت المنازعات ان ذرورتها من جديد بين الشركات التجارية فكان في ذلك ناللة الاصناف وكان وباله على جميع الافرنج دون او يوفر التجار انفسهم غير ان بعض العلاقات الاقتصادية ظلت تربط بين الغرب وبعض المدن الشامية كدمشق وحلب كما ان بيروت ما عمت ان استعادت مكانتها واتصالاتها بالغرب والشرق حتى غدت احدى المرافئ التي كانت اساطيل الافرنج تقصدها .

غير ان هذه الحالة لم تدم طويلا اذ ما كاد القرن الثالث عشر يشارف نهايته حتى رابنا المسلمين بقيادة بعض السلاطين المماليك امثال بيبرس وقلوون والامرف خليل بقضون الخلاف والنزاع بين الافرنج من تجار ومنظمات وسلطات فاجمرا عليهم . تلك كلمة مجعلة عن التجارة وارتبابها في الديار الشامية ابان عهد الصليبيين فيها فنر الان ماذا نشا بفضلها من علاقات وارتباطات بين العرب والافرنج في تلك الاثناء .

فمن ملحقات التجارة النظام الجمركي والرسوم التي تقاضاها الحكومات المختلفة عند دخول القوافل المدينة والخروج منها بالبضائع المختلفة والغلال والمصنوعات وقد ترك لنا ابن حبير صورة حية لما كان يحدث في مثل هذه الظروف المتعلقة بالجمرك ومعاملاته لا يامر من ابرادها قال ص ٢٨٥ " وصبحنا يوم الثلاثاء العاشر من الشهر المذكور وهو الثامن عشر لسينبر مدينة عكة . . . . ودخلنا الى الديوان ( دائرة جمركية ) وهو خان معد لنزول القافلة وامام بابيه مصاطب مفروشة فيها كتاب الديوان ( لموظفون ) من النصارى بمحابر الابنوس المذهبة الحلبي وهم يكتبون بالعربية ويتكلمون بها ورؤسهم

صاحب الديوان والضامن له بعرف بالصاحب لقب وقع عليه لمكانة من الخطة وهم يعرفون به كل محتشم متعبد عندهم من غير الجند ، وكل ما بجى\* عندهم راجع الى الضمان . وضمان هذا الديوان بمال عظيم فانزل التجار رجالهم به ونزلوا في اعلاه وظل رجل " من لا سلعة له " لكثلا يحتوى على سلعة مخبوءة فيه واطلق سبيله فنزا حيث شاء\* ، وكان ذلك بوفرة وتوادة دون تعنيف ولا حمل " . واذا نالنا ما جاء في وصف الرحالة الاندلسي رابنا صورة مصغرة عما يحصل في كل مركز للحجر عند الحدود . اما الرسوم المفروضة في المواني فكانت تسمى " رسم السلسلة " وتدل ضخامتها على مبلغ تقدم التجارة ووفرة ارباحها .

اما المراكز الحمركية فنسمى منها = الدورم عند الحدود المصرية والجسر الحديدى بين انطاكية وحلب وكذلك عند حصن المرقب حيث شاهد راي في القرن الماضى بقايا برج السبع (١) .

اما مقدار ما وصلت اليه ثروات القوم (٢) فبحسن بنا لتقديرها الاستمراء الى احد مؤرخيهم حيث يقول = " ان اكبر مضرب العملة للامارات الافرنجية انما كانت في صور وهكة وطرابلس وانطاكية حيث كانوا يسكون النقود كادبنار الاصلاحي تقليدا للدينار الفاطمي وما لبث هذا الدينار ان حمل الشعار النصراني بالاحرف العربية وكان البندقيون هم السابقين الى ذلك في صور لذلك فقد عرف دبنارهم " بالدينار الصوري " وقد كان الثوم والصرافيون يتعاملون به تسهيلا لصفقاتهم التجارية وكان منتشر التداول في جميع اسواق الشرق . ولعل هذا كان اول عهد الاوروبيين بالنقود الذهبية .

هذا وكان الايطاليون مع منظمى الداوية والسبتارية اصحاب اكبر المصارف المالية في عكة وقيسارية وطرابلس . وفي القرن الثانى عشر استعمل البندكتيون " الاوراء النقدية " في المدن الساحلية من الديار الشامية (٣) . وكانت المدن الافرنجية في هذه الديار تشتمل على ما يسمونه " الفندق " وهو نوع من " البورصة " كان يجتمع التجار فيه للتداول بشؤونهم التجارية والمالية .

(١) انظر ص ٢٥٩ راي المستعمرات الافرنجية - (٢) ايضا ص ٢٦٣ - (٣) ايضا ص ٢٦٥

وفي ذلك العهد اقيم مثل تلك البضايح في المدن الغربية وقد شاهد راء بقايا احداهها في مدينة مابنس وفي مدن اخرى على مجرى الرين وفي غيرها من المدن حيث تعرف باسم "البورصة" ص (١٩١٠ راي) .

وكذلك كانت المراكز الجمركية امكنة بجمع فيها التجار احبانا لمثل

هذه الاعمال المار ذكرها .

وقد كان للتجار ا لافرنج كالبنديبين والبيزبين والجنوبيين

والمرسيليين في المدن الشمالية عدا المساكن والمخازن "خانات" لابتداء بظئعهم فيها .

كما انه كان للتجار العرب القادمين من المعالي المسلمة لمدة قصيرة في المدن الافرنجية "خانات" يقيمون فيها وهذا ما بصرح به ابن جبير وهذه الخانات كانت اشبه شئ "بخان

اسعد باشا في دمشق وخان انطون بك في بيروت او خان الفرنسويين في صيدا وخان

الخليل في القدس .

ويظهر ان "الصرافة" كانت من اختصاص الابطالبيين واليهود

فكانوا يواصلون البيوتات التجارية والمصارف الكبرى في جنوا والبندقية وفلورنسة وبيزا .

وكانت اوراقها جميعها "مقبولة" في الاسواق التجارية الكبرى على السواحل الشمالية

واخيرا لم يقف نمو تلك التجارة بعد طرد الصليبيين من آسيا

بل عقد اكثر جمهوريات ايطاليا مع امراء المسلمين معاهدات تجارية وكانت صلات

البندقية التجارية الوثيقة بالمشرة سبب عظمتها حتى اطرد تقدم تلك التجارة مع الزمن

ولم يضعف امرها الا بعد اكتشاف الطرق البحرية الجديدة وانتقال زمامها الى ايد

اخرى (١) .

بهذا نكتفي في الناحية الاقتصادية = الزراعة والصناعة والتجارة

لنتقدم الان لدرس الحالة الفكرية .



## الحالة الفكرية في الديار الشاميه وما انفاد الافرنج منها ابــان

### الحروب الصليبية

رابنا في صفحات سابقة ان قد شهدت الديار الشاميه عشية الحروب الصليبية حركة علمية مباركة كانت تتجلى في مدارس مدنها الكبرى كانطاكية وطرابلس والقدس ودمشق الا ان هجمات الافرنج في اواخر القرن الحادى عشر قد خمدت من فونها وان لم نستطع ان نطفيء جذوتها ويكفى ان نذكر ما اقترحه القوم في طرابلس من <sup>طما</sup> ~~واكظم~~ مكتبتها الكبرى الى النيران حتى يحز الالم في نفوسنا ونذكر ذلك الاثر السيء الذى تركه تلك الحروب في مسنهلها على الحركة الفكرية عامة والعلمية منها خاصة غير ان الامور ما لبثت ان تغيرت بعد ان استقر القوم في ملكتهم وملحقاتها وتم لهم الاتصال " بالشاميين " في الساحل والداخل فاخذوا عندها يتذوقون ما عند العرب من آيات العلم والفن والادب فتطورت نظريتهم وهدات نورتهم وراحوا يتقلدون ما عند الاهالى من مظاهر لا اجتماعية كما رابنا وانظمة ادارية وعناصر فكرية ١. وهذا ما بصوره لنا كتاب الحصر من افرنج وهرى قدما ومحدثين / ومن ذلك ما بلى = " لقد انتشرت معارف الشرف في الغرب بصورة خاصة من طريق الحروب الصليبية تلك التى استمرت منذ القرن الحادى عشر حتى الرابع عشر تقريبا فجمع بين المنحاربين والتجار من الافرنج ضد نصوم ~~شمر~~ <sup>شمر</sup> <sup>شمر</sup> " (١) ولذلك بوهانا آخر على ما قرناه: " نحن نجد بين فرنجة فلسطين اول انطال دائم للعناصر الشرقية والغربية في اغلب ميادين التقدم الثقافى (٢) لذلك يجب اعتبار تاريخ الحروب الصليبية " فضلا في تاريخ الحضارة " في الغرب اكثر من اعتبارها حركة اريد منها توسع السلطان الغرب او نشر لديانته في الشرق (٣) " وقد ظهر في المجتمع الافرنجى الشاب الجديد ثقافة كانت في اكثر عناصرها جديدة تفوق اية ثقافة اخرى في ذلك العهد وكانت تحمل بين طياتها بذور النهضة (٤) وكانت التجارة من العوامل التى جعلت بعض ال ثقافة في الديار الشاميه تنسرب الى اوربية بحكم الواقع واتصال الافرنج بالمسلمين (٥) وبذلك تكون الحروب الصليبية قد قامت مقام التحليم الحر لاوربية (٦)

(١) هـ. ١٠٠٠ سافاج - تراث العرب ص ١٩٩ - (٢) تراث الاسلام ص ١٠٢ - (٣) باركر في تراث الاسلام ص ٩٨ - (٤) لامونت تراث العرب ص ١٦١ - (٥) حتى تاريخ العرب ص ٢٦٢ - (٦) رومن مقدمة لتاريخ غربى اوربية ص ٢٠٠ - (٧) راسم في المستعمرات الفرنجية ص ١٧١

فلم يستطع النبلاء من الافرنج اذن ان يفتقروا بنحوه من الانحراف بهذا  
التيار القوي للحركة العلمية فراحوا بادى ذى بدء يعيون من منالها جميعا وخاصة  
من الشرائع وانظمة (١) فنبخ منهم حقوقيون عدة نسمى منهم = بوخنا اللابني وجرار  
المونريالي وولما . ثم ما لبثوا ان تقدموا من الحركة العلمية فراحوا يساهمون فيها  
وقد اتسعت عند العرب في سورية ومصر خلال القرن الثاني عشر وقد كان للسرمان  
بحكم الرابطة الدينية - اكبر الفضل في تعريف الافرنج بتلك الحركة الثقافية ولا عجب  
فقد كانوا من قبل حفظتها ومذيعيها ويسي الاب لامس بعض السرمان الذين قصدوا  
الى اوربية واستقروا في بلاطات بعض الملوك كما كان البعض الاخر منهم يتوسطون  
بين العلماء من العرب والافرنج .

ومع ذلك فيدعي باركر نحصبا = " ان الحروب الصليبية قد اسدت  
للافرنج منافع اكبر بفضل اتصالهم بالقسطنطينية مما اسدت لهم بانظلمهم بالمسلمين  
في الشرة (٢) بدون اى دليل بورده .

وما جاء في كتاب فيليب النافاري عن ابن رينو صاحب صيدا " انه  
كان متعمقا في معارف زمانه " كما يذكر غليم الصوري " ان جيوفري رئيس هبكل السيد  
كان من المتضلحين من علم الرم في الشرق بل كان احد مشاهيرهم الكبار فيها (٣)  
اما المدارس التي كانت شائعة ان ذاك فلا باس ان نعتبرها من نوع  
المدارس التي عرفها رينان بالمدارس العربية-المسائية (٤) وليس غريبا ان تعدد بدء  
التدريس للفلسفة المشائية في جامعة باريس ثم بين سنتي ١٢٢٠ و ١٢٢٥ م كما جاء  
لجوردان مؤلف كتاب " مترجمي ارسطو " .

وجاء للمؤرخ العربي المعروف بالفزوني " ان العلماء والعرب من الشاهسين  
في القرن الثالث عشر كثيرا ما كانوا يستشارون من قبل الافرنج في قضايا تتعلق في الطب  
والفلسفة والرياضيات (٥) .

وقد نتساءل عن اللغة او اللغات التي كانت شائعة ان ذاك في مملكة القدر  
وملحقاتها فالاب لامس يقول بهذا الصدد = " لقد كانت اللغات من اكثر بحيث

---

(١) راي في المستعرات الفرنجية ص ١٦٦-١٦٨ - (٢) نوات الاسلام ص ١١٠ (٣) راي ص  
١٢٢ - (٤) نفسه ١٦٨ - (٥) ايضا ص ١٧٢ - (٦) ص ٢٦١ من " سورية تحقيق تاريخي ج ١

بحيث اتمت على جميع لغات اوروبا الغربية والاقطار الجنوبية وبعدها منها (١) اللاتينية . وكانت لغة الكنيسة والدولة امانيا . (٢) الفرنسية . لغة البارونات العامة (٣) الايطالية . لغة التجار والتجار المحتردين في المرافى . (٤) وكان الكثيرون من سادة الاقطاعات - فضلا عن المولدين - قد اتقنوا اللغة العربية وذلك للتفاهم مع اهل اتباعهم من البالدوين وللادارة والتجارة . ولعل هذا الاختلاط بين مختلف اللغات قد احدث تبادلا للكلمات بينها اذ اننا حتى اليوم نجد كثيرا من الكلمات العربية في اللغات الاجنبية في غربي اوروبا تشهد بقيام الحروب الصليبية منها ما يتعلق بالتجارة والملاحة ومنها ما يختص بالفنون والصناعات والعلم (١)

ومن اقبلوا على دراسة اللغة العربية والاطلاع على تاريخ العرب من الافرنج رينو الصيداني (٢) وبفيدنا بها<sup>١</sup> الدين ايضا بقوله = " وكان يعرف العربية وعنده اطلاع على شئ من التواريخ وبلغني انه كان عنده مسلم بقرا له ويفهمه وكان حسن المجاورة ومناوبا في كلامه . ومنهم ايضا الامير همفري سيد تينين اذ كان ترجمان ريثار الى الملك العادل في المفاوضات التي دارت بينهما قرب ارسون ثم قرب بافا سنة ١١٩٢ م وقد قام بنفس المهمة ايضا بلدوين الابلني للقدس لويس التاسع في ايام اسره في مصر (٤) .

وكذلك اقبل بعض الشاميين على التطلع من اللاتينية<sup>٢</sup> ومنهم الحكم ناذرى الابطالى اليعقوبى النحلة فقد احكم اللغة السريانية واللاتينية بانطاكية وشدا بها شيئا من علم الاوائل<sup>٥</sup> .

ومن اثار الحروب الصليبية في هذا الحقل<sup>٣</sup> ان دراسة اللغات الشرقية قد بدأت مع البعثات النصرانية الى الشرق وان المبشر راي <sup>سلفه بسلفه Raynaldus</sup> نورديك<sup>٤</sup> قد جعل المجتمع الدينى في فيبنة بفتح ست مدارس لتعليم اللغات الشرقية في اوروبا سنة ١٣١١ م . وكان للاداب الغربية تاثيرها في بعضهم حتى استوحاها بعض شعرائهم وكتابهم (٧) ودلبننا على ذلك ان بعض شخصيات الصليبيين كفودفروا وتانكرد قد اتخذت

---

(١) باركر تراث الاسلام ص ١١١ - ١١٢ / غروسيد (٢) غروسيد تاريخ الحروب الصليبية ومملكة القدس الافرنجية ص ٨٣٣ ج ٣ - (٣) سيرة صلاح الدين ص ٨٠ - (٤) راي المستعمرات الافرنجية ص ١٧٢ - ١٧٣ - (٥) ابن العبري . مختصر الدول ص ٤٧٧ - (٦) باركر تراث الاسلام ص ١٢٤ - ١٢٥ - (٧) لوپون حضارة العرب ص ٣٦٧ .

موضوعات قصص للشعراء الحوالين الذين كانوا يشتغلون بين قصر وآخر من قصور الملوك والامراء وكما اخصب التوسع في المعارف الفكر العلمي عندهم كذلك اثر في الخيال الشعري ايضا (١) فما لا شك فيه ان اسطورة "الكاس المقدسة" تتضمن عناصر ترجع بلا ريب الى اصل شامي ، ان لا بد وان يكون الصليبيون قد سمعوا بعثر قصص الف لبله ولبلة او كليهما لولا انهما لم يفتحا شيئا فان حكاية السنحاب للنشور Chauar من حكايات الف لبله ولبلة وكذلك فقد اشتهر بوكاشيو من مراجع سمعية "الحكايات الشرقية التي تضمنها كتابه *Decameron* (٢)

ومما بلغت النظر توسعهم في الشعر بسبب الحروب الصليبية فان قصائد جديدة عديدة نظمت في تاريخ الصليبيين كقصيدة كبرواز الانكليزية التي تصف لنا الحملة الثالثة وقصيدة اغنية انطاكية (٣) (*Chanson d'Antioche*)

وسرعان ما استحال قضية الحروب الصليبية في الزب من تاريخ الى اسطورة وذلك منذ مستهل تلك الحروب وقد تمثلت في "اغنية الضعفاء" سنة ١١٣٠ م . . . *Chanson de Chetifs*

واذا انتقلنا من الاداب الى التاريخ رابنا ان هذه الحروب الصليبية قد خلفت لنا من المعلومات منه طائفة كبيرة . ومن بين مؤرخيها من الفرنسيين ذلك النورماندي الذي لم يشا ان يسم كتابه "حركة الفرنج" باسمه فوصف

لنا فيه الحملة الاولى (٥) وكذلك فوشيه ده شارتر *F. de Chartres* صاحب كتاب *H. Hierosolymitana* ويصف فيه تاريخ مملكة القدس حتى سنة ١١٥٧ م . ولنا بناسين غليم الصري وسعته الطرابلسي وكلاهما ولدا وتربيا في البلاد الشامية . اما الاول فله "تاريخ فيما وراء البحار" *Le voyage de la mer* وهو ٢٣ مجلدا تناول فيه الحوادث حتى سنة ١١٨٣ م . وقد اصبح هذا الكتاب بعد ترجمته الى الفرنسية اهم مرجع لقصة الحروب الصليبية ولم يهتم صاحبنا بتاريخ الافرنج بحسب بل ألف ايضا تاريخ "الامراء المسلمين منذ ظهور النبي"

(١) الامم العربية والاسلام في القرنين ١٢٧٠ و١٢٨٠ (٢) حاضرة العرب ص ٦٦٣ (٣) باركر تراث الاسلام ص ٢٢ (٤) باركر تراث الاسلام ص ١٢٧ - (٥) نفسه ص ١٢٥ - ١٢٦

وهناك اثار فيه ما تزال محفوظة في مكتب فليوم الطرابلسي المسمى بـ "بحث في حالة العرب" سنة ١٢٢٣ . وان ما تحلى به الصوري من سعة الاطلاع وروح النقد والوقفة في تحرى الحقيقة لجعله يستحق كل تقدير (١) هذا بعض ما خلفه لنا الكتبة من الافرنج اما العرب فقد خلفوا لنا ايضا مؤلفات لها قيمتها في دراسة هذه الحقبة من تاريخ الديار الشامية والافرنج فيها ، بينها (١) كتاب الاعتبار\* لاسامة بن منقذ وهو يتناول تاريخ القرن الثاني عشر كله و (٢) كتاب تاريخ الانابكة لابن الانبر . و (٣) كتاب سيرة صلاح الدين لجها\* الدين المعروف بابن شداد (٢) وغيرها .

ومما لا ريب فيه ان الجغرافية كانت احدى الموضوعات التي عني بها الصليبيون اكثر من سواها (٣) اذ كانت مؤلفات الفلكيين والجغرافيين الهامة مع علاقات الملاحين والتجار وقد اهابت بالفرنج الى دراستها (٣) وباستطاعتنا ان نعتبر ان الخرائط المعروفة بالسوقية والتي وضعت خلال النصف الاول من القرن الرابع عشر هي اولى منتجات القرون الوسطى في اوربية في هذا الفن وانها انت نتيجة للمعلومات المكتسبة من الشرق خلال الحروب الصليبية (٤) .

ثم ان المخطوطات اللاتينية المرقمة ٤٩٣٩ في المكتبة الوطنية بباريس ويرجع عهدا الى سنة ١٣١٠ م تتضمن خارطة لنصف الكرة الارضية وانثنين اخرتين للارض المقدسة مع تعيين المسافات بين كل موقع وآخر وهذه الخارطة العالمية قد تاخرت بظهورها عن خارطة ( مسكس ) باحدى عشرة سنة اذ قدمها للبابا جان الثاني عشر سنة ١٣٢١ (٥) .

وهناك اطلس لبيرو فيسكونتي وهو يخوى على نسج خرائط محفوظة في متحف كورار في البندقية يرجع تاريخه الى سنة ١٣١٨ وتحتوى على مجموع البحر المتوسط وما يدهد له الدقة في التفاصيل مع صحتها ولا سيما فيما يختص منها بالساحل السوري - الشامي - وجزيرة قبرص وغيرها .

---

(١) لامير - سورية ص ٢٦٠ (٢) باركر تراث الاسلام ص ١٢٦ . ١٢٧ - (٣) راي ص

١٧٣ - ١٧٤ (٤) نفسه ص ١٧٧ - (٥) نفسه ص ١٧٧

ويوجد في مخطوطة اخرى محفوظة في مكتبة الفانباكان بحث مرقوم  
١٩٦٠ يعود تاريخه الى مطلع القرن الرابع عشر كما انه يوجد عدة مصورات  
ايقونية من القديس وعكا وانطاكية فيها خرائط للارض المقدسة وتوجد خارطة اخرى  
تمثل ابطالبة وثانية تمثل مقاطعتي نابلي وصقلية وثالثة الاراضي البندقية وكلها  
تستوعو النظر بدقة الحسابات والسلوب العمل فيها (١) .

واخيرا بحسن ان نشير الى ما جاء بهذا الصدد على قلم هاسكنز  
وهو " انه اذا كانت الحروب الصليبية قد زادت في معلومات اوربية النصرانية  
في الجغرافية فان ذلك قد تم عن طريق التجارب العلمية لا عن طريق الاطلاع على  
كتب الجغرافيين من العرب التي كان الغرب يحملها حتى ذاك الزمن (٢)

عذا ولم تكن غنابة القوم بالفنون الحيلة لنقل عنها في الاداب  
والعلم فقد كان تاثير فنون العرب بالافرنج كذلك عظيما ان نشأ عن هولاء الصليبيين  
ضروب منتجات الشرق المستمد من القسطنطينية الى مصر تدواتهم الخشنة (٣) .

اما فيما يتعلق بالعلم الدقيقة بمسند *صاعد* فان لويون يقول  
انها كانت ضعيفة وذلك بفقدانهم (الافرنج) العالم (٤) الا ان راي بفرر غير ذلك  
اذ يقول " ولما كان للتربية والاداب والتاريخ من ضعف بها من الافرنج كذلك كان  
عدد كبير من النبلاء بينهم قد شغفوا بالعلوم الدقيقة ايضا اننا نشاهد في سنة  
١١٢٩ م بناء القلعة التي قوض يتم تحت ادارة وتصميم آنصوري  
لمجابهة الصعوبات في ذلك الحصار (٥)

ولعل علم الرياضيات قد قوى عند الافرنج بفضل الاندلسيين اولا  
وفي الشرق ثانيا اذ ان العالم الاول في الحبر وهوليوناريه فيبوناتسي كان قد طاف  
سورية ومصر وكان هذا العالم معاصرا لفرديريك الثاني وقد قسم له كتابه في الاعداد  
المربعة ولا يستبعد ان يرجع الفضل في ذبوع الارقام العربية واهم الحلب الى التجارة  
التي راجت بين الثغور ابطالبة والديار الشامية (٦) .

(١) نفسه ١٧٨ - (٢) حاشية رقم (١) من ص ١٢٥ الى تراث الاسلام هاسكنز .

(٣) - لويون حضارة العرب ص ٣٦٧ - (٤) نفسه ص ٣٦٧ (٥) راي ص ١٧٣ -

(٦) باركر تراث الاسلام ص ١٢٣ .

ومن الملوك العلوم التي عرفت ان ذاك علم النبات وقد اشتهر به ابن البيطار الاندلسي في القرن الثالث عشر وكان في الشرق في سنة ١٢٧٠ م فزار انطاكية ومصر ثم استقر به المقام في دمشق لدى السلطان الملك الكامل وكان لبنان ميدان دراساته عن الحشائش فرسمها له رسام كان يرافقه وهي في مختلف حالاتها وبالوانها الطبيعية (١) وهناك نباتي آخر هو رشيد الدين الصوري ولد في صور سنة ١١٧٧ ودرس في دمشق ثم ما لبث ان نافس ابن البيطار في علمه وقد اتخذ نباتات وحشائش بيروت وطرابلس وانطاكية ولنا به موضوعا لدراساته (٢) .

اما فيما يختص بالتاريخ الطبيعي فقد كان جاك دوفنوي الوحيد من مؤلفي الافرنج الذي نطالع له بعض المعلومات فيه (٣) . غير ان تعصبه ضد الشرقيين جعله يبتغي غربا عن الحركة العلمية المنتشرة ان ذاك .

وتدل معلوماته عن الحيوان والنبات على سعة اطلاعه من جهة ورغبته في تحري الدقة وكذلك فان وعفه للحجارة الكريمة بانواعها لدقة فائقة . وسندل من كتاباته انه قد درس ودقق في كتب علم المعادن الطبية ان انه قد وقف على خصائص الحجارة الكريمة التي لفتت الانتظار في الشرق حتى ابام النهضة (٤) .

واما ما كتبه بشأن البناء الحارة فبدار على معلومات مبهمة وخاطئة احيانا (٥) .

وكانت مدينة طرابلس إحدى المراكز المحركة العلمية الهامة ان ذاك تضم مدارج مزدهرة يؤمها الطلاب من جميع الاقطار المجاورة ويدرسون فيها على اسانفة شرقيين لهم شهرتهم الذائعة الفلسفة والطب وقد نقل اسطفان الانطاكي - البيروني الاصل الى اللاتينية كتاب المجوس في الطب ولعل هذا هو الكتاب الوحيد الذي عرفناه حتى الان ان الافرنج قد نقلوه (٦) .

ويظهر ان هذه المهنة الشريفة - مهنة الطبيب - ظلت من اختصاص البحاقبة من النصارى فكان لاطبايهم مكانة مرموقة عند امراء الافرنج ورجال الدين منهم اذ كان يعهد اليهم بمراقبة الصيدليات ومتاجر العطارين - العقاقير - وكان الاطباء

(١) رأى ص ١٨٥ (٢) رأى ص ١٨٥ (٣) رأى ص ١٨٥ (٤) رأى ص ١٨٥-١٨٦

(٥) نفسه ص ١٨٨ . (٦) حتى تاريخ العرب ص ٦٦٢

في الدبار الثامنة عهد ذاك بنتمون الى جميع الاجناس والادبان ما عدا الافرنج (١) وكفى ان نرجع قليلا الى كتاب الاعتبار لاسامة بن منقذ لنرى الفرق البين بين طب الافرنج وطب العرب اذ ذاك . وهاك نموذجا منه = ومن عجب طبهم ان صاحب المنبظرة كتب الى عمى يطلب منه انقاد طبيب بدوي مرضى من اصحابه . فارسل اليه طبيبا نصرانيا يقال له ثابت . فما غاب عشرة ايام حتى عاد فقلنا له " ما اسرع ما داويت المرضى " قال " احضروا عندي فارسا قد طلعت في رحله دملة وامراه قد لحقها نشاف (٢) . فعملت للفارس لبيخن ففتحت الدملة وصلحت . وحميت المرأة ورطب مزاجها . فجاؤهم طبيب افرنجى فقال لهم " هذا ما يعرف في (كذا . عابنه ) بداوهم . وقال للفارس = " ابا احب اليك تعين برجل واحدة او نموت برجلين . " قال " اعيش برجل واحدة " قال " احضروا لى فارسا قويا وفاسا قاطعا " . فحضر الفارس والفاس وانا حاضر فحط ساقه على ثومة خشب وقال للفارس " اضرب رجلك بالفاس ضربة واحدة اقطعها " . فضربه وانا اراه ضربة واحدة ما انقطعت . ضربه ضربة ثانية مسال من الساق ومات من ساعته . وابصر المرأة فقال " هذه امراه في راسها شيطان قد عذقها . احلقوا شعرها فحلقوه . وحادت تاكل من ماكلهم النوم والخرذل فزاد بها النشاف . فقال الشيطان قد دخل في راسها . فاخذ الموسى وشق راسها صنبا وسلخ وسطه حتى ظهر عضم الراس وحك بالملح فماتت في وقتها . فقلت لهم " بقى كم الى حاجة فقالوا " لا " لحيث وقد تعلمت من طبهم ما لم اكن اعرفه (٣) .

وكان للطب فروع عدة تلحق به = كطب العيون والجراحة والتجبير والحجامة وغيرها . وكان جميع منتهبا كالطبيب والصيدلى تحت مراقبة المحتسب (٤) ومن الفروع التي اهتم لها العرب في مطلع القرن الثالث عشر " الطب البيطرى " ويتعذر علينا معرفة مقدار ما اولاه الافرنج من عنايتهم غير انه باستطاعتنا ان نحزم ان البيطرة - من حذائيبين ومدادين - كانوا مسئولين عن الحيوانات

(١) الامسر سوربة ص ١٤٥-٢٤٦ - (٢) نشاف فارسية بمعنى البله (اسامه ص ١٢٣ حاشية رقم ٦

(٣) اسامه كتاب الاعتبار ص ١٣٢-١٣٣ . (٤) راي المشهورات الفرنجية ص ١٨٢ .



الموكول بهم امر تطيبها . (١)

وكذلك كانت " الصبلة " جزءا لا يتجزأ لعلم الطب اذ كان

الطب نفسه يحضر الدواء . وكانت الوصفات الطبية تحفظ وفي حال موت المريض تقدم الي رئيس الاطباء ليرى ما اذا كان فيها تفريط او افراط من قبل المريض (٢) وما يدل على عناية القم بحقوق الناس " ان الطبيب كان مسئولاً

عن حياة مريضه وشفائه كما انه مسئول ايضا عما قد يترك الدواء من تائبسو ونتائج ( هذا ما ننطق به قوانين المملكة اللاتينية ) وكان من حق الطبيب ان

يبوهن لدى المحاكم ان المريض لم يتقيد في تناوله الدواء بتعليمات الطبيب وانه بسبب ذلك قد هلك . فاذا ثبت امانة الطبيب لموت " الفن " بكلف بدفع ثمنه

واذا كان المريض افرنجيا من الاحرار كان بالامكان شرف الطبيب ومصادرة املاكه (٣)

ويظهر ان الاطباء كانوا يتعهدون شفاة الاحرام . قد اختبر ذلك بولون لدى زيارته لدمشق في سنة ١٥٤٨ . اذ كانت العادة ما تزال مرعبة الاحرا عند الاطباء

الساميين (٤) .

وكانت قوانين " المملكة اللاتينية " تنظم حالة الاطباء في المستعمرات

الافرنجية في البلاد المقدسة . من ذلك انها لم تكن تسمح لاي طبيب، وفد الي البلاد بمعاونة المعالجة فيها قبل ان يودي امتحانا يحضره افضل اطباء البلد في مجلس براسه الاسقف (٥) .

ويظهر ان الاطباء كانوا يتمتعون باحترام كبير اذ ان ابن العبري

يذكر فيمن يذكر منهم ميخائيل ، اسقف حلب البعقوبي الذي بعد ان اعتزل منصبه الديني وفد على طرابلس وبقى لديها حتى نوفاه الله ، يعلم الطب وكان محاطا بالاجلال والاکرام من رجال الدين وطبقة الاشراف (٦) .

اما مراكز الدراسة للطب فكانت انطاكية وطرابلس والقدس ومن اساندها

المشهور لهم بطول الباع تيودور الانطاكي طبيب فردريك الثاني الخاص واسير الحلبي

(١) راي المستعمرات الفرنجية ص ١٨٣ . (٢) ايضا ص ١٨٢ (٣) راي ص ١٨٢ - (٤)

نفسه ص ١٨٢ (٥) ايضا ص ١٨١-١٨٢ (٦) نفس المرجع المذكور ص ١٨١ .

ويعقوب النسطوري الطرابلسي . اما ما نطالع في مؤلفات المؤرخين من افرنج  
وعرب " ان التطبيب كان في المستعمرات الافرنجية من اختصاص الوطنيين ورجال  
الدين من المعاقبة السريان خاصة . اما اطباء الغرب فكانوا دائما منحطين عن  
زملائهم الشرقيين (١) .

ولما كانت المستشفيات والمؤسسات ولا سيما المختص منها بمعالجة  
الفقراء والمجانيم قد انتشرت في انحاء اوروبا ابان القرن الثاني عشر بحق انا  
ان نقرر ان تاسيس المستشفيات على تلك الصورة المنظمة قد وجدت تشجيعها  
لها من الشرق المسلم (٢) كما اننا نستطيع ان نقرن ايضا افتتاح مدرسة الطب  
في مونبيليه بالاعمال التجارية التي كانت تتبادل بين جنوبي فرنسا وسواحل بحر  
الروم الشرقية . هذا ما يثوره باركر (٣) .

لقد انبنا حتى الان على ذكر ما تم من اتصالات فكرية عن طريق  
اللغات والاداب والعلوم فنقل كلمة في *الفقه* الفيلسفة تشبها للبحث . يظهر ان  
الافرنج لم يقبلوا على هذا النوع من الدراسة بدليل قلة ما ورد عنها في كتبهم  
لذلك العهد . ودونك ما عثرنا عليه بهذا الصدد وهو كما سوف نرى لا ينفع  
غليلا ولا ينهي من جوع تال الدكتور حتى ص ٦٦٣ من تاريخ العرب\* وكان  
فيليب الطرابلسي قد عثر في انطاكية على مخطوطة عربية لكتاب " سر الاسرار"  
ومال التي التوا بان ارسلها وكان وضع هذا الكتاب لتلميذ الاسكندر المقدوني .  
وقد نقلها فيليب المذكور الى اللاتينية تحت اسم . وضمنه خلاصة  
الحكمة العملية وطلم البصريات وكان هذا الكتاب من اكبر المراجع انتشارا في القرون  
الوسطى . وهناك المارة اخرو التي الاقتراب من الفيلسفة دون الاخذ بها والتعمق  
بدراستها . من ذلك ما جاء لقروميه من ص ٤٣٩-٤٤٠ الجزء الثاني قوله عن  
بلدوين الاول " لما كان بولدواي في سورية كثيرا ما كان يظهر ميلا خائما للبحث

---

(١) راي ص ١٧٨-١٧٩ - (٢) حتى تاريخ العرب ص ٦٣٣ . (٣) تراث الاسلام

المسائل البلدية ودونكم مثلا واحدا بدل على ميله الفلسفي " فيما كان يوما  
بلازم قصره في مدينة صور بسبب وعكة المت به ، اشدهى اليه الاسقف - غلبوم -  
وطلب اليه ان يسرد على سمعه البراهين والحجج التي تدل على خلود النفس .  
ولما بسط الاسقف له الحجج المستمدة من " الكتاب المقدس " اعلن الملك انها  
غير كافية معترضا بان " الكفرة " يرفضونها مقدما .

هذا وانا لنقر لباركر ص ١٣٦ من تراث الاسلام قوله " وعلى

كل حال فقد اظهر العلماء استمدادهم بالاخذ عن فلاسفة العرب ]

الى هنا تكون قد اتينا على ذكر العلاقات الاجتماعية والفكرية

عند العرب والافرنج في سورية (الدبار الثانية) بقى علينا ان نقول كلمة عما  
ينتج عنها من علاقات عامة في موطنها ومصدر انتشارها وهو اوروبية الغربية التي  
اختلفت بها لذلك نقول = ان الحروب الصليبية قد تركت اثرها فونصارى غربي

اوروبية من نواح اربع وهي = (١) فقد اثرت في التنسنة وبالتالي بالباوية .

(٢) كما اثرت في الحياة الداخلية والاقتصادية في جميع الممالك . واستطاعتنا ان  
نتابع هذا التأثير حيث نراه في سير اعمال الحكومة وفي مركز النملاء والحوام

والتحار و (٣) فاننا نتميز ذلك في العلاقات الخارجية عند الدول المختلفة من

كث ٢ دولة تحدثها اولا ثم من حيث التطور العام لاجداد مجموعة من دول اوروبية

(٤) لقد اثرت هذه الحروب في علاقات اوروبية بآسية جميعها - وفي العلاقات اليابانية/الهندية -  
فلنفصلا ذلك فيما يلي -

(١) لقد كانت الحروب الصليبية - رغم مكانة البايوية منها - من

التدمير التي عملت على تنوية الروح المدني واعلاء كلمة السلطة المدنية بدلا من

السلطة الدينية التي سبقتها بادي' ذي بدء' فتدا عن ذلك التسلح والروح العنفي .

(٢) اما فيما يتعلق بالحكومات فقط لهر فيها جميعها نوع جديد

من الضرائب التي لم يكن لهم عهد به حتى لقد قبل " ان الضرائب الحديثة نشأت

من حاجات الارض المقدسة " اضف الي هذا اثر الحروب الصليبية في انحلال الاقطاع

وفقدان امراك مركزهم الاجتماعي ثم نهوض البلديات واستقلالها وكذلك فان هذه الحروب

بنوسيعها التجارة قد اثرت في نمو المدن عامة وموانئ الجنوب خاصة ان في فرنسا

او في ايطاليا ولنذكر ان الطريق البرى الداخلى الذى كانت تجتازه تجارة  
البندقية في الرين الى البحر البلطى وبحر الشمال .

(٣) لقد اوجدت الحروب الصليبية رابطة جديدة بين الدول  
الاوربية ما تزال حتى اليوم تنجح في اكثر المحاولات لاجاد كتلة ضد الترك  
(المسلمين) اثر الفكرة الصليبية باقيا .

ومن آثارها ايضا ان انتقل التوازن الدولى الى غرب اوربية  
وكان لفرنسة القديح المعلى ولتلك الحروب يرجع الفضل في رفع مستوى فرنسة  
الى ذلك المقام في القرون الحديثة ولا عجب فان اول نداء قد وحه من اجل  
الحروب الصليبية كان من فرنسة واول من لبى النداء فرسانها .

(٤) واخيرا نستطيع ان نقرر بدون تردد ان الحروب الصليبية  
قد اعطت اوربية نظرة جديدة واسعة للعالم تلك النظرة التى صاحبها نهوض  
حركة الارثياء والانصراف للاستزادة من المعلومات الجغرافية فالانحاء الى العناية  
بكل آسية وقد بدا عصر الاستكشاف الاسيوى منذ ١٢٤٠ م وانتهى بعد ذلك بقرون  
وهو بوازى باهميته الاستكشاف الامريكى وكان العاملون في هذا رجال دينيون  
متحمسون وآخرون تجار طامعون على ان محاولة الاوار باء بالفشل واما الثانية  
فكانت حجر الزاوية في استعمار الحديث .

هذا ملخص عن باركر في تراث الاسلام من ١٣١-١٣٦ .

## الخلاصة

عندما قررت ان يكون موضوع اطروحة حتى " الحروب الصليبية وما

نتج عنها من علاقات اجتماعية واقتصادية وفكرية من العرب والافرنج " شرعت في التفكير فيه ، وما كدت اخطو الخطوة الاولى عمليا حتى اخذت الهواجس مني ودب في نفسي شيء من التهييب والخشية . ذلك لان الموضوع جديد والطريق الى تحقيق الهدف منه طويل يتطلب جهودا متواصلة واتحافا متتالية هذا من جهة ، ومن جهة ثانية فهل المعلومات عنه متوفرة وهل هناك من الحقائق ما يجوز اتخاذها لبنات لتشييد بناء .

ومرر هذا او ذاك عندي الى النقطة التي اعتدنا ان ننظرها الى

هذه الحفنة من التاريخ نحيلنا ما اعلى هوامشها من ادعاءات وابطال وما قد نتج عنها من اهلاك وتفتيل لموال فرين من الزمن فتبدو لنا الامور قائمة والحياة مسودة فننسى ان التاريخ ليس بمجرد مظاهر بل ان له لغابات ابدد واصق يجدر بنا ان نتوصل اليها وان ننفذ الى بواطنها حتى تتجلي الحقائق واضحة وتبدو النتائج ناصحة في مجرى التطور في المجتمع والاقتصاد والثقافة وهذا ما لم اكن احسب ان السبيل اليه معبد .

ولكن ما ان خطوت الخطوة الثانية حتى وجدتني ازداد للموضوع

تعديفا وللحقائق تعقبا ولمظاهر التطور في حياة الافرنج تبينا ، فادركت عندها ان ما قد يبدو شرا فيه خير كثير وان مجريات التطور لا تقتصر على ظواهر الامور ولا تعبها بالتوافق فيها بل انها لتختط لنفسها طريقا تسير فيه حتى تتجلى اغراضها قد لا نراها نحن البشر الا فيما بعد . وعندها نتكشف امامنا

عوامل خفية تعمل للمصالح العام دون ما نظرة حيقة الى هذا او ذلك وما تلبث الاوضاع ان تتبدل والافكار ان تتجدد والحياة بصمومها ان تتطور فتتقلب الى ما فسه الحق والخير والحمال لئلي الانسان .

لقد فذلت الحروب الصليبية فيما رمت البابوية اليه وفيما امل الملك

والاسرا فيه ولكنها انت بما لم بات على فكر احد . فكم ترفي فيها ، لاول وهلة ، من سرور ومكابد وديسائس وكيف تنجلي اليوم اخبرا فتشدي الحقائق واضحة

فبما اراده التطور ان يكون من تبدل او تقدم ورقى .  
فكم من شعوب وقبائل فى اوروبه كانت ترسف فى قيود اقطاع  
بحول بينها وبين الحرية الاجتماعيه . وكم بد ام كانت تحنو لسلطنة  
دينيه يضيق صدرها عن الاتساع للافكار الجديدة فتزدها قيودا على  
قيودها وتحول بينها وبين التطور الفكرى فتبقى " رهين المحسنين " الاقطاع  
والكنيسة " كحتى اذا ما شامت تلك القوى الرجعية التسلط فى الشرق رغبت  
فى التسلط على اقطاره واقليمه وارادت التفتح بمرافق الحياة فيه ، اهابت  
بتلك القبائل والشعوب والامم الى المسير تحت رايتها . وما ان وطئت  
اقدام القوم تلك البروج واحتكت جموعها بشعوبها حتى وجدوا انفسهم وجها  
لوجه امل نفاقة بهرت منهم العيون وادهشت منهم العقول فهزت مذاهبهم  
المشاعر وصقلت منهم النفوس .

وقد يكون الموضوع بحد ذاته يكررا بالاضافة اليه ، أمسا  
الفرس وقد استفدوا كل جهد فى الانكباب على مراجعهم وتبين حقيقة  
امرهم فعبدوا لنا الطريق بما اعدوه من مؤلفات اعتمدوا فيها على  
المراجع الاسمية من شرقية وغربية ودلوا لنا الصحاب فيما جمعوه ونقحوه من  
تلك المخططات . فلا يسمع الواحد منا ازا ما يتف عليه فى هذا الحقل  
من مصادر رتبته ونسقت ولولا جهود القوم وعنايتهم لاكتنبا يد التلبس ولاضاعها  
الجهل والاهمال انقول لا يسمع الواحد منا ازا ذلك الا ان يكون لهم  
من الشاكرين فبهنا حُفنا من الرجالين ، وهناك ففة من الكتبة والمؤلفين  
تكاد تحار فى كثرة ما خلفوا لنا وتنوعه . اناخذ بما عند الالمان \* و ما  
احسن ما عملوا فى سبيل الشرق ودراسته وربما عييفا نظريا ام نكتفى بما  
خلفه الفرنسيين وما اكثره واغزره وايست جهود الانكابر لقتل كثيرا من  
جهود هؤلاء واولئك ثم اغتف اليها جميعا ما راج الاميركيون والمتأمركون  
يزيدون على تلك التروة الضخمة .

غير ان وقوفك على هذه المراجع المختلفة المتعددة يشعك  
امام نظريتين مختلفتين فانت بين رأيين احدهما يمثله الكتبة الالمان  
واشباعهم وهو يرى فى الشرق عالما خيرا وفى شعوبه اما راقبة جاء  
الفرب اليه يهرب من مناهله العذبة حتى ارتوى فعاد وقد تبدل <sup>جهد</sup> ~~هنا~~

بصحة <sup>بشرف</sup> ~~بصحة~~ و <sup>بشرف</sup> ~~بصحة~~ حياة قائمة باخرى مشرفة فكانت تلك النهضة الجبارة  
في مطلع القرون الحديثة . اما الرأي <sup>الاشي</sup> ~~الاشي~~ وبمثله الفرنسي ومن لف لفهم  
فهرى في الآخر غلوا ومبالغات وبأى ان <sup>الاشي</sup> ~~الاشي~~ للشرق بكل الحق وللعرب  
بجميع الفضل فتضطر عندئذ لان تبذل الجهود الجبارة للتوفيق بين  
الفكرتين والخلوص منهما بما يضيء السبيل وضع الحق في نصابه .

ولا بد هنا من الاقرار بجهلي للالمانية التي لو كنت احسنها  
اذن لوفقت الى الاضطلاع على ما يبدو لي قبا وبفداً ولكن .....  
وما لاحظته ان ما بين الاوروبيين ~~من~~ الشرقيين منهم  
والذين من نزاع وتنافس اليوم انما يرجع في الاصل الى نفسيين مختلفين  
ولا يعود كما قد يتوهم البعض الى الحوار فحسب او الى الثورة الصناعية  
وما نشأ عنها من تطور وتنافس . وتحاسد بل يعود الى نشأتهم الاولى  
ولعل الحروب الصليبية كانت اول مظهر له .

تلك ملاحظات نبذت لي احب ان اسجلها للتاريخ  
وكخلاصة استنتاجها بعد طول الجهد في عملي هذا <sup>الاشي</sup> ~~الاشي~~ / ٥٧ / فمسي ان  
يكون فيها بعض الشيو لمن يتصدى للموضوع من بعدي .  
وقد يحسن ان اشير اخيراً الى ان <sup>الاشي</sup> ~~الاشي~~ هذه الدراسات  
انما ترك في النفس اثرها فتجدلنا ندرك ما كان للشرق عامة وللعرب من اهله  
خاصة من فضل في تطور الغرب والخربيين وما باستطاعتنا ان نقدمه غدا بعد  
ان ظهرت اليوم <sup>الاشي</sup> ~~الاشي~~ وبدت آيات النهضة <sup>الاشي</sup> ~~الاشي~~ واضحة واضحة  
فمسي ان يكون الاصحح حافظاً للقيم والبيد دليلاً على  
ما سيكون الغد .

## مصادر الكتاب

### ١ - العربية

- |   |                                    |
|---|------------------------------------|
| المختصر في اخبار النشر ١٢٢٥ هجرية بصر                                       | (١) ابو النداء (اسماعيل صاحب حماء) |
| تاريخه الكامل ١٢٠١ هـ بصر   | (٢) الانبير (الطلب بنو الدين بن )  |
| اسامه بن منذر من تاريخ الحروب الصليبية<br>١٩٤٦ بصر                          | (٣) احمد حسن (محمد)                |
| نزهة المشتاق ..... ١٥٩٢ هـ برومية   | (٤) الادريسي (الشريف)              |
| الشرع الدولي في الاسلام ١٢٤٩ هـ - ١٩٣٠ م<br>بدمشق                           | (٥) الارمازي (نجيب)                |
| الحروب الصليبية في تراث الاسلام ١٩٢٩ م بصر                                  | (٦) باركر (ارنست)                  |
| رحلته ١٢٨٧ هـ بصر   | (٧) بطوطه (احمد)                   |
| سيرة صلاح الدين الايوبي ١٢١٧ بصر  | (٨) بقاء الدين (المعروف بابي شداد) |
| فتوح البلدان ١٢١٩ هـ ١٩٠١ بصر   | (٩) البلاذري                       |
| حياة صلاح الدين الايوبي بصر   | (١٠) بيلي (احمد)                   |
| رحلته بصر   | (١١) جيزر (محمدي)                  |
| (١) تحفة الشرق للغرب - في الكتاب الذهبي ليوبيل<br>المنتطف الخمسيني ١٩٢٦ بصر | (١٢) حني (تيليب)                   |
| (٢) كتاب الاعتبار ١٩٣٠ برنستون  |                                    |
| تاريخ التمدن الاسلامي بصر   | (١٣) زيدان (جرجي)                  |
| الظاهر بيبرس وحضارة مصر في عصره ١٩٢٨ بصر                                    | (١٤) سرور (محمد جمال)              |
| كتاب الروضتين في اخبار الدولتين ١٢٨٧ بصر                                    | (١٥) شهاب الدين (المنديسي)         |
| بيروت تاريخها واثارها ١٩٢٥ م بيروت  | (١٦) شيخو (لويس)                   |
| تاريخ بيروت ١٨٩٨ م بيروت  | (١٧) صالح بن يحيى                  |
| عصر السريان الذهبي ١٩٤٦ بيروت   | (١٨) طرزي (تيليب)                  |
| مختصر تاريخ الدول ١٨٩٠ بيروت  | (١٩) المعبري (ابو)                 |
| المرأة العربية في جاهليتها و اسلامها<br>١٢٠٠ هـ ١٩٢٢ م بصر                  | (٢٠) عيني (عبدالله)                |



- تاريخ البيمارستانات في الاسلام ١٢٥٧ هـ ١٩٢٩  
دمشق .
- عنفية العرب في العلم والفلسفة دمشق
- كتاب معالم الفرية في احكام الحسية ١٩٢٧ بكمبرج  
ذيل للتاريخ دمشق ١٩٠٨ بيروت
- (١) خطط الشام ١٢٤٣ هـ ١٢٤٧ هـ دمشق  
(٢) الاسلام والحضارة العربية ١٩٢٤ - ١٩٢٦ بمصر  
تسريح الابصار فيما يحتوى لبنان من الآثار ١٩١٣ بيروت
- حضارة العرب - نغله زعيمتر ١٢٦٤ هـ بمصر
- الحضارة الاسلامية في القرن الرابع الهجري نغله ابو زيد  
١٢٥٩ هـ - ١٩٤٠ م بمصر
- احسن التفاسيم في معرفة الاناليم ١٨٧٧ م لندن
- كتاب لفظ السلوك لمعرفة الملوك ١٩٢٤ بمصر
- كتاب الاعتبار - حرره حتى ١٩٣٠ برنستون
- سفرنامه - نغله يحيى الخشاب ١٢٦٤ هـ ١٩٤٥ م  
بمصر .
- حداية الارباني نون الادب بمصر
- مطلع الكروباني اخبار بني ايوب (مخطوطه بمكتبة  
الجامعة المصرية)

- (٢١) عيسى بك (احمد)
- (٢٢) فروخ (عمر)
- (٢٣) الفرشي (محمد)
- (٢٤) الفلاسي
- (٢٥) كرد علي (محمد)
- (٢٦) لامنس (هنري)
- (٢٧) لويون (غستاف)
- (٢٨) متر (آدم)
- (٢٩) المنديسي
- (٣٠) المنريزي (تقي الدين احمد بي علي)
- (٣١) منذ (اسامة بن)
- (٣٢) ناصر خسرو (علوي)
- (٣٣) السويدي
- (٣٤) واصل (ابن)

٢ - الارجنتينية

- 1) The anonyme author
- 2) Barker Ernest
- 3) Barcovici, K.
- 4) BBlackmar, Franker
- 5) Blochet
- 6) Bohn, H.G.

- Gesta Francorum  
The Crusades Oxford 1936  
The Crusades, N.Y. Cosmopolitain  
book corporation 1929.  
History of Humor Society, Boston  
Relations diplomatiques des  
Hohenstaufen avec les sultans d'E-  
gypte 1902.  
Chronicles of the Crusades, London  
1843

- 7) Bréhier, Louis
- 8) Bongars
- 9) Bridrey, E.
- 10) Byrne, D.
- 11) Byrne; E.H.
- 12) Caffarus
- 13) Cahun; L.
- 14) Cambridge Medieval hist.
- 15) Chalaudon
- 16) Cheikho, L.
- 17) Conder, C.R.
- 18) Coulson, Georges
- 19) Coy, Sir Georges W.
- 20) Dekisle, L.
- 21) Derembourg
- 22) De Vogue
- 23) Dodu, G.
- 24) Douglass, Amanda N.
- 25) Encyclopedea of Islam.
- 26) Eulart, G.
- 27)
- 27) Faris, N.A.
- 1) L'Eglise et l'Orient au Moyen Age .  
2) Histoire de la 1ere Croisade 1924
- Gestader per Francès
- La Condition juridique des Croisés et le privilège de la Croix Paris 1900
- Crusades, London 1928
- Genoese Colonies in Syria 1882
- ~~\*\*\*\*\*~~  
Annales Genœuses
- Introduction à l'histoire de l'Asie 1896  
Vol. IV.
- Jean II, Comène. Manuel Comène 1912.
- ~~\*\*\*\*\*~~ Un dernier écho des Croisades (MFOB)
- The Latin Kingdom of Jerusalem ~~\*\*\*\*~~  
1099-1211, London 1897.
- Crusades, Commerce et Aventures, London 1930.
- The Crusades, London 1884
- Opérations financières des Templiers Paris 1889.
- Osamaibn Mounquith 1889.
- Les Eglises de Terre Sainte. Paris 1860
- Hist. des Inst. monarchiques dans le royaume latin de Jerusalem.
- The heroes of the Crusades, Boston 1897
- a) Les monuments des Croisés dans le royaume de Jerusalem. - Architecture religieuse et civile Paris 1925-28.  
b) La Cathédrale St; Jean de Beyrou dans le bulletin soc. des antiqua' de France, 1904.
- The Arab Heritage Princeton, 1944

28) Foulcher de Chartres

29) Grousset, R.

30) Gruhn,

31) Hamp, Karl,

32) Hatim, A.

33) Heyd, W.

34) Henn-am Rhyn

35) Hitti, Phil.K.

36) L'Inst. de France

37) Jewdal, R.B.

38) Joinville (~~suède~~ <sup>Sine</sup>)

39) Kulgler

40) King

41) Kugler

42) Mamens, H.

43)

44) Lane Pool, Stanley

45) Le Strange, G.

46) Marago Bernarhus

47) Martin, E.J.

28) Foulcher de Chartres

Histoire Hierosolymitana

Hist. des Croisades et du Roy. Fran.  
de Jerusalem Paris - 1934.

Der Kreuzzuge Richards I Berlin 1892

Das Hochnittelalter Geschichte des  
Abendians Von 900 bis 1250.

Les Chansons Epiques au temps des C  
Croisades, Paris 1930.

Hist. du Commerce d' Levant au Moyen  
Age Leipzig 1885.

Allgemeine Kullurgeschichte

Hist. of the Arabs, London 1937.

La Collect. de l'Hist. des Croisades

a) Hist. occidentaux.

b) Hist. arabes.

c) Hist. grecs

d) Hist. arméniens.

Bohemond, Prince of Antioch.

Mémoires of the Crusades trans. by Sir  
Franck Margials.

Geschichte der Kreuzzuge

The Knights Hospitallers in the Holy  
Land.

Studen zur Geschichte des Zweiten  
Kreuzzuge, Stuttgart 1866

a) La Syrie Précis Historique, Bey-  
routh 1924.

b) La description du Liban d'après  
Idrisi.

a) Saladin and the Fall of the Ki  
dom of Jerusalem London 1906/

b) A hist. of Egypt inthe M.Age

Palestine under Muslims.

Annales Pisani.

The trials of the Templars, London

- 47) Mayer, L.A. Larace. Heraldry Oxford.
- 48) Michaud a) Hist. des Croisades 3 vol. 181  
b) *Bibliothèque de la Croisade*  
Chroniques Syriaque, éditée et tra  
par l'abbé Chebot 1900.
- 49) Michel le Syrien
- 50) Muir Sir W. The Mameluks or Slave Dynasty of E  
Egypt.
- 51) Muller, W. The Latin Orient London 1920.
- 52) Norgate, K. Richard the Lion Heart, London 1924.
- 53) Oman, Sir Charles W.G. Hist. of the Art of War in the  
M.ages 1898.
- 54) Pirenne, H. Mahomet et Charlemagne *Éd. Paris 1938*
- 55) Prutz Kulturgeschichte der Kruzzege
- 56) Raoul of Caen Gesta Tanenidi
- 57) Raymond of Agiles Hist. Francorm qui ceperunt Les Jeru-  
salem.
- 58) Rey, E. a) Colonies Franques en Syrie aux XII  
et XIII siècles Paris 1883.  
b) Etudes sur les monuments de l'ar-  
chitecture des Croisés en Syrie et en  
Chypre.
- 59) Risbhueber Les traditions françaises au Liban.
- 60) Robinson, J. Harvey. Int. to the hist. of W. Europe 1902-1903
- 61) Rochrichtes, R. a) Geschichte der ersten Krauzzege  
1901
- 62) Ruville, A. Die Krauzzege 1920.
- 63) Schaube Handelsgeschichte der romanschen  
volker des Mittelmeengebiets.
- 64) Schumberger a) Numismatique de l'Orient Latin  
ris 1878.  
b) Renaud de Châtillon prince d'An-  
tioche, seigneur de la terre d'or  
Jourdain Paris 1923.
- 65) Société de l'Orient Archives de l'Orient Latin.
- 66) Stevenson, W.G. The Crusades in the East Cambri  
1907.

67) Sybel;H.W.

Über den Zweitein Kreuzzuge in  
"Kleine Schriften Bd.I.München 16

68) Weil

Geschichte der Califen 4.und. 5.Bd

69) Wells,H.G.

The outline of history London 1921.

70) Woodhouse,F.C.

The military religious orders London  
1879.

71) von Lybel

Geschichte der Ersten Kreuzzuge.

## العلاقات الاجتماعية والثقافية

بين العرب والفرنج

خلال الحروب الصليبية

يحسن بنا قبل ان نتصدى الى الموضوع الاساسى وهى العلاقات الاجتماعية والثقافية بين العرب والفرنج ان نلقى نظرة عجلى على تلك الحروب التى استمرت قرنين كاملين من الزمن لتبين اسبابها وظروفها وبعض نتائجها المباشرة من تارة سيمس ملك واقاطة حكومات حتى تكون على بينة من امر ما سنقف عليه بعدئذ من النتائج فى حقلى الاجتماع والثقافة .

يتوهم البعض ان تلك الحروب انما حدثت بفعل الدافع الدينى فقط وانه لولا البابوية لما كان قتال ولما تصادم الشرق والغرب آنذاك . والحقيقة انها لم تكن سوى نتيجة لحركات سبقتها ورد فصل للموجة العربية الاسلامية التى بدأت فى منتصف القرن السابع الميلادى تطرق ابواب اوروبا من الشرق تارة ومن الغرب اخرى حتى نجحت بعض النجاح من الجهة الغربية وفشلت كل الفشل من الجهة الشرقية .

ثم ما فتئت بين مد وجزر حتى كانت الفرصة فى القرن الحادى عشر للميلاد سانحة امام البابا ليجمع قوى اوروبا المبعثرة ويعيد الكرة على الشرق فيستعيد ما كان العرب قد سبقوا واستولوا عليه وييسط سلطانه على بلاد الشرق فيضم اليه كنيسته لاسيما وقد استطاع من قبل ان يجعل الغرب بممالكه وشعوبه ان تعنو جميعها الى سلطانه .

هذا فضلا عما كان فى الاقطاع از ذاك من شقا وعنا اهابا بمجموع الفلاحين الى ان يستجيبوا دعوة البابا ويحققوا رغبة ساداتهم الامراء فى الغزو والفتح . وان تنس فلن ننسى التجار وما كان لهم فى ذلك من اثر ورغبة از كان الكثير بينهم من اهل ايطاليا وجنوب فرنسا قد تعرف الى الشرق وما فيه من تجارات رابحة واسواق لها رائجة وثروات فيه متضخمة كان لهم فيها مطمع . ولنذكر انه كان فى جانب هذا وذاك ظهور النورمان ( الشماليين ) والبروفنسيين من اهالى جنوب فرنسا بحال تميزهم بحب الاقتحام والفتح ومناجزة العرب فى سبيل الاستيلاء على البلاد وطردهم منها .

عندها تضافرت تلك الاسباب مع ما كان فى الشرقيين العربى والاسلامى من تداع فى اركان الملك وتفكك فى اسباب الوحدة وضعف ووهن عند السلطان فكان لا بد ازا هذا وذاك من قيام

مثل تلك الحروب سواء ادعت اليها البابوية ام الملوك الزميين والامراء الإقطاعيون او التجار الطامعون .  
فما ان دوت كلمات اوربان الثاني في قاعة كلرمون سنة ١٠٩٥ م حتى انتشرت وفعلت في نفوس  
القوم فعلها فاستجاب الناس اليها وراحوا ينضون تحت راية امراء تحرك فيهم حب القتال والنزال  
فقادوهم الى الشرق من جهة اسية الصغرى . فما ان تلقاهم الكسيوس فيصر الروم حتى ظهرت بوادر  
الخلاف والتفرقة . . . . .

ثم كانت حارك بينهم وبين السلاجقة في الاضول ومن هناك انقضوا على الشام حيث كانت  
حكومات عديدة متنازعة متناصرة فاستطاعوا بعننا غير كبير ان يقحموا طرفهم خلال انطاكية الى  
طرابلس فصيда ثم الى حيفا فالقدس حيث التفوا حامية للفاطميين لم تصمد في وجههم الا قليلا  
فخدعوا افرادها والناس بالخلب من المواعيد فاستسلموا لهم وكان ما كان من اعمالهم السيف في  
رقاب العشرات من الآلاف بوحشية سبق لهم ان باشروها في المعرة وانطاكية من قبل .

على هذه الصورة استطاع الفرنج خلال بضع سنين ان يؤسسوا مملكة لهم في القدس وان  
يلحقوا بها كونتية طرابلس وامارة انطاكية ومقاطعة الرها . فكانت هذه نتائج الحملة الصليبية  
الاولى المباشرة . الا انهم ما كادوا يتبادلون الهجمات والكراوات مع المسلمين حتى كان عماد الدين  
زنكي قد صوب لهم ضربة قاضية من الرها سنة ١١٤٤ م وجعلهم يخلون المقاطعة كلها دون  
ان يلجوا على شيء ويرفتون ان ايامهم في الديار الشامية قد لا تطول كثيرا .

فكان على اثر ذلك ان قامت دعوة سان بونار واستجاب لها رجال الحملة الثانية بقيادة  
امبراطور وملك ولكنها هي ايضا تكسرت على صخور المعرة عند النيرب من دمشق وكانت نميا نميا  
بفضل لعبة سياسية قام معين الدين انسر يمثل فيها دوره ببيراغ لا تغل طراقة عن حذق  
زنكي في القتال .

بيد ان هذا لم يفت في عهد الفريبيين بل قاموا يلجون دعوة صليبية ثالثة فكان على راس  
جيوشها رشار وفيليب اوقست وفرديريك بربروسا لكن هذا لم يكتب له سوى الموت العاجل في  
اسية الصغرى ولحمته سوى التعثر والتلاشي في السهول الساحلية من الديار الشامية .

وكان قد نبغ في الديار الشامية نبيل ذلك الشهيد محمود زنكي ثم تروى على يديه ویدی  
شيركوه العظيم صلاح الدين بطل حطين . وما كادت تصل الحملة الثالثة ببعض جيوشها سوسوس  
الخلاف ينخر في جملتها - حتى كانت الظروف المواتية قد هياأت لصلاح الدين ان يؤسس ملكا  
ويجمع كافة المسلمين في مصر واليمن والشام وراح يعد العدة وينتظر الفرصة لينقض على فرجته التي  
جعلها بين فكي الكماشة وكان قد ابى احد امراء الفرنج ارنات الكرك الا ان يفتح باب الشر بينه

وبين صلاح الدين وذلك بتعدياته التي لا مبرر لها مع قيام الهدنة بينهم وبين المماليك السلطان ولما لم يعد السلطان يستطيع صبرا جمع رجاله وانقض على جيوش الفرنج في سهل حطين سنة ١١٨٧م حيث القى عليهم درسا بليغا في وجوب المحافظة على اليهود فكانت ضربة موجعة حقا اذ انزلت في جيوشهم وفرق الداوية السبارية منهم ما جعلهم صرعى الى زمن ولما استفاقوا لم يستطيعوا معها كبير شيء .

ولم تكن ضربات زنكي و انصر وصلاح الدين لتعمل وحدها في اهلاكهم بل كان هناك ايضا ما بينهم من خلاف ونزاع وتدهور في الاخلاق . كل ذلك كان يزيد في طينهم بلة حتى هوت ملكهم وملحقاتها عند اقدام بيبرس وقلاوون والاشرف خليل سنة ١٢٩٢ م .

هذا ما كان للحروب الصليبية من نتائج مباشرة بين المتحاربين خلال قرنين من الزمن فلنسر الآن ما نتج عنها بينهم من علاقات اجتماعية وصلات ثقافية وهي في الحقيقة اهم واجدر بالدراسة والتفهم .

ان ما كان من النتائج السلبية للحروب الصليبية كخرب للمدن في الشام ومصر ونقص في الانفس بين المسلمين والنصارى من اهل الغرب لا يقاس بالفوائد الجمة التي اصابتها اوربة الغربية في حقل الاجتماع والثقافة بل وفي الاقتصاد ايضا .

اما في المجتمع فقد تبدلوا بحياتهم التعسة الخشنة حياة نعيم وترف ان في بيوتهم وقصورهم او في ملابسهم وما كلهم . هذا فضلا عن خشونة في اخلاقهم خلعوها وتحلوا بدماثة اقتبسوها من اهل البلاد ط يفتوب بفضل المعاشرة . فما ان انقضى على اقامتهم في البلاد ما يقرب من رسع قرن من الزمن حتى شعروا وكا\* نهم اصبحوا شرقيين بلديين وقد نسوا مواطنهم الا لى وعلقوا بحب مواطنهم الجديدة فقلدوا اهلها بكل شيء حتى في لغاتهم واعيادهم وحفلاتهم ومبارياتهم الرياضية وخاصة الصيد منها . وان ننس شيئا فلنمنا بناسين الحمامات العاة ونعمتها عليهم فقد اقبلوا عليها اقبالا عظيما حقا حتى تجاوز بعضهم - كالراهبات - حد انظمة حياتهم وقوانينها ( هذا ما نقله راي ص ٦٢ من كتابه " المستعمرات الفرنجية " عن جاك دي فنترى ) .

هذا وان المرأة الفرنجية ببقائها بعيدة عن احسن ما كان بوسعها ان تكسبه من الاخلاق والعادات ظلت بفحشتها ومجونها سببا من اسباب الفشل عندهم في مشروعهم . اذا كانت النبيلة منهم لا يهملها على الاغلب الا لتحقيق رغائبها الجنسية ونزواتها النفسية ولو كان في ذلك خراب القوم والمملكة ولم تكن المرأة المتوسطة من بينهم خيرا من زميلتها النبيلة اذا انغمست هي ايضا في حماة من الفحش والمجون ما جاء وبالاعلى اخلاق الرجال وبالتالي دمارا للملكة وملحقاتها .



بهذا يحدثنا سان برناد انظر ص ٢٥ - ٢٦ من حياة صلاح الدين لمؤلفه احمد بيلى وانظر غروسيه ج ٢ ص ٣٢٦ .

اما من حيث الفروسية فبالرغم مما يدعيه بعض الغربيين كروسيه فانه لم يظهر منها في الديار الشاميه في حياة اكثر كبرائهم الا الناحية الجسمانية وذلك في القوة وتحمل مشاق القتال اما من حيث الناحية الخلفية التي تتمثل في المروءة وكبر النفس والعطف على الضعيف فقد اقتبسوا من ذلك جله من الفرسان العرب كما برز ذلك في كتاباتهم الادبية فيما بعد .

ولو اتينا الآن الى الحكومة وما افاد القوم منها لرأينا انهم قد اصابوا في هذا الحقل ايضا خيرا كثيرا . اما في الاقطاع فقد تعلموا ان يقصروه على الارض واما الاسان فيبقى مالكا لحريته فلا يسام في سبيل ذلك سوء العذاب ولا يحرم من حسن المعاملة .

هذا فضلا عما دونوه فيما بعد من القوانين واذا بعثت الشريعة الرومانية عندهم فانما حصل ذلك بعد رجوعهم من الشرق . وما اقتبسوه الفرنج من العرب منصب " المحتسب " للنظر في امور الرعية والكشف عن احوالهم ومصلحتهم .

هذا في الاقطاع والادارة اما في القضاء فقد اخذوا منه التشريع التجارى بفرعيه البرى والبحرى كما اقتبسوا ايضا اصول المحاكمات القانونية . وكذلك فقد افاد الفرنج كثيرا من طرق الحروب واساليبها الفنية ومن الاسلحة والآلات الحصار وما شاكل فراحوا اولا يجندون من اهل البلاد فرقا من الخيالة الخفيفة وما لبثوا ان اتخذوا ايضا الدروع الزردية ومن الخوذ الشاميه يتقون بها ضربات السيوف ملقين جانبها بدروعهم وخوذهم الخشنة الثقيلة . ولم يتورعوا عن تقليد العرب في استعمال المنجنية وزرع الانغام المتفجرة وضع مركبات البلرود والمواد المفرقة واعداد النفط المتقد في الماء . ليس هذا فقط بل اقتبسوا ايضا شيئا كثيرا من فن الهندسة العربية كما حسنوا كثيرا من وسائل الدفاع . ثم ما لبث بعض النبلاء من بينهم ان اخذوا انفسهم بالمعلم الدقيقة والفنون الآلية حتى اتقنوها .

وما اقتبسوه اهل غربى اوربية خلال الحروب الصليبية من العرب النار كوسيلة للمخابرة السرية المستعملة ليلا وحمام البطاق نهارا . انظر صالح بن يحيى ص ٦١ وكذلك فلهنهم فقد قلدوا اهل البلاد الشاميه في اتخاذ الرنوك والشعارات واستعمال علامات خاصة لتمييز الاساب .

هذا وكان لاخلاق الشرقيين فضلا عن كل ما ذكر اثرها البين في المتبلدين من الافرنج فنشأت صداقات بينهم وبين الشرقيين من عرب وترك واكراد جعلتهم يتشبهون بهم في كثير من العادات الحميدة والاخلاق الفاضلة كالاستراف بالجميل والتسامح الدينى والدفاع عن الصديق وحفظ الجار ورعاية الطفل وحماية الضعيف .

ولعله من الخير ان نذكر ما قام بين العرب والفرنج من تفاهم ثقافى كان له اثره البين في تقدم القوم في هذه الناحية ايضا .

ولو رحنا نعدد ما افاده القوم في ناحية الانتصديات لكان لنا متسع للقول وسجال فسيح للاشادة . ومن ذلك ما كان يتعلق بالزراعة فما كاد الفرنج يتعرفون الى السكر وحلواته حتى بادروا الى نقل زراعته فصبه الى بلادهم . وكذلك فقد نقلوا ايضا اللبغون والبطيخ والشمش والخبز والاباص وقد بقى المشمش لمدة طويلة يعرف عندهم باسم " ثمر دمشق " .

ومن جملة ما نقلوه من الديار الشامية " التمر الهندى " وان كان من محاصيل الهند هو

والاوىة والطبوق والبهارات ونخص بالذكر منها القرفة . واما القطنى فقد نقلوا منها الذرة البيضاء الشامية . واستطاعتنا ان نقرر انهم نقلوا زراعة السمسم والخروب والارز والقمح وما علينا الا ان نذكر اسما تلك المزروعات بلغاتهم ونقابلها بما هي في اللغات الشرقية وخاصة العربية منها فنعلم صدق ما نقول . وما له علاقة بالزراعة ايضا النواعير والدواب الهوائية التى لم تظهر في نورمانديا من فرنسا الا في سنة ١١٨٠ م .

وفي هذا كفاية فلننتقل الى الصناعة التى يظهر انها انتقلت الى لبروجية اوروسيا باكثرية فروعها كالخزف والزجاج والحلى والنسيج على انواعه والقيشانى هذا عن صناعة الجعة والسكر التى بسببها احتفظوا بالاسم العربى للمصورة ( *Masria* )

اما الصابون فقد عم استعماله في القرن الثالث عشر واصبحت صناعته في المستعمرات الفرنجية

على شىء كبير من الاهمية ومنها يجب ان يكون قد انتقل الى غربى اوروسيا .

ولعل مقتبسات القوم في التجارة قد فاقت مكتسباتهم من الزراعة والصناعة ولا عجب فان التجار

من الإيطاليين والفرنسيين الجنوبيين كانوا اول المشتركين في تلك الحروب رغبة الكسب والا ثرا . ولا

غرابة ان يكونوا قد اهابوا بالفرنسيين الى توسيع نطاق ترفهم وتعيمهم بما جلبوه اليهم من منتجات

الشرقيين الزراعية والصناعية فنمت بذلك مدن كبيرة وفتحت طرق جديدة مما قرب الشقة بين آسية

واوروسيا وورط بين شعوبها روابط اقتصادية زادت في دفع القوم الى الامم في سبيل التقدم والرفى .

اضف الى ذلك الشركات التجارية الكبرى والنظام الجمركى ورسومه وغيرها من الضرائب التى فرضت ايام

الحروب الصليبية . وما قلدهوا العرب به ضرب العملة وسك النقود وتاسيس المصارف واصول ادارتها

والبورصة واعداد الإثنية الخاصة بها .

وما كاد القوم يتعرفون الى علوم العرب وفنونهم حتى سارعوا الى الاخذ ببعضها فتعددت عندهم اللغات ولا عجب اذا علمنا ان دراسة اللغات الشرقية قد بدأت في اوروبا مع البعثات التبشيرية التي ارسلت الى الشرق وقتذاك .

هذا وقد كان للآداب الشرقية عاقبة والقرية منها خاصة ثابتها على بعضهم حتى استوحاها بعض شعرائهم وكتابهم فنقلوا بعض عناصرها الف ليلة و ليلة وكليلة ودمنة الى اسطورة " الكاهن المقدسة " وغيرها من الروايات الخيالية الخالدة .

وكم من قصيدة جديدة نظمت في اثناء تلك الحروب كقصيدة الشاعر الانكليزي (

Ambrois

وقصيدة انطاكية ( *Chanson d'Antioche* ) .

وكذلك فقد زادت ثروة القوم في التاريخ والجغرافية كما ازدادت عنايتهم بالفنون الجميلة كالموسيقى والزخرفة والحفر والعلوم الدقيقة كالرياضيات والطب والتاريخ الطبيعي .  
ولعل في هذا القدر ما يرينا ما كان للعرب من اثر في اعداد الفرنج الى نهضتهم وخروجهم من ظلمات القرون الوسطى الى انوار العصر الحديث .

زكى النقاش